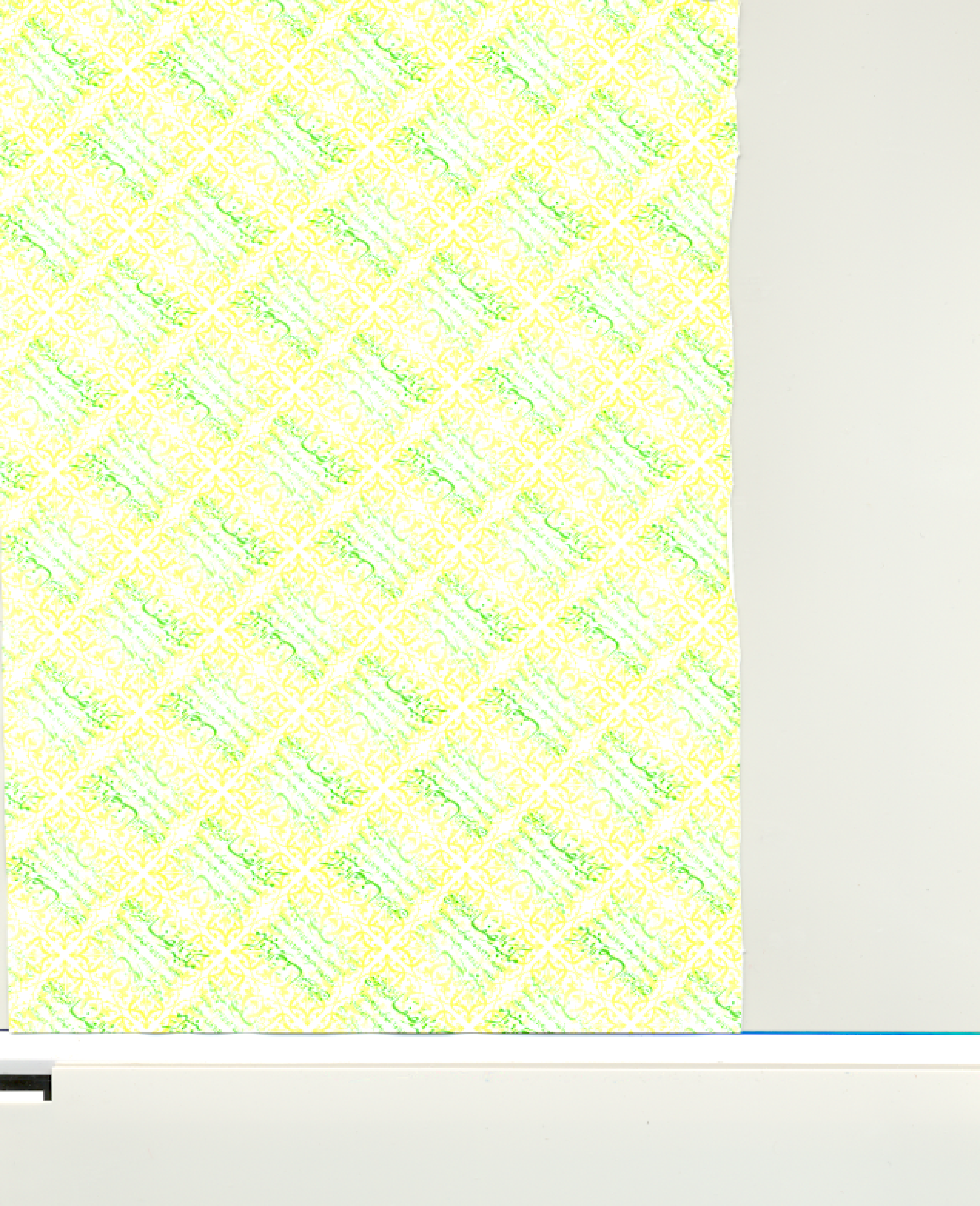


الشيخ
محمود المصري أبو عمار

مكتبة الصفا



قصص الأنبياء

لِلأطفال

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٣٧٠٣

مكتبة الصفا

١٢٧ ميدان الأزهر القاهرة ت: ٢٥١٤٧٣٢٠

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٢٥١٤٧٩٧٤/٠١٠١٤٣١١١٤

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

المصري، محمود

قصص الأنبياء للأطفال / محمود

المصري. - ط ١. - القاهرة: مكتبة الصفا

، [٢٠٠٨].

٧٠٤ ص، ٢٤ سم.

١ - قصص الأنبياء

٢ - قصص الأطفال

أ- العنوان

٢٢٩,٥

قصص الأنبياء

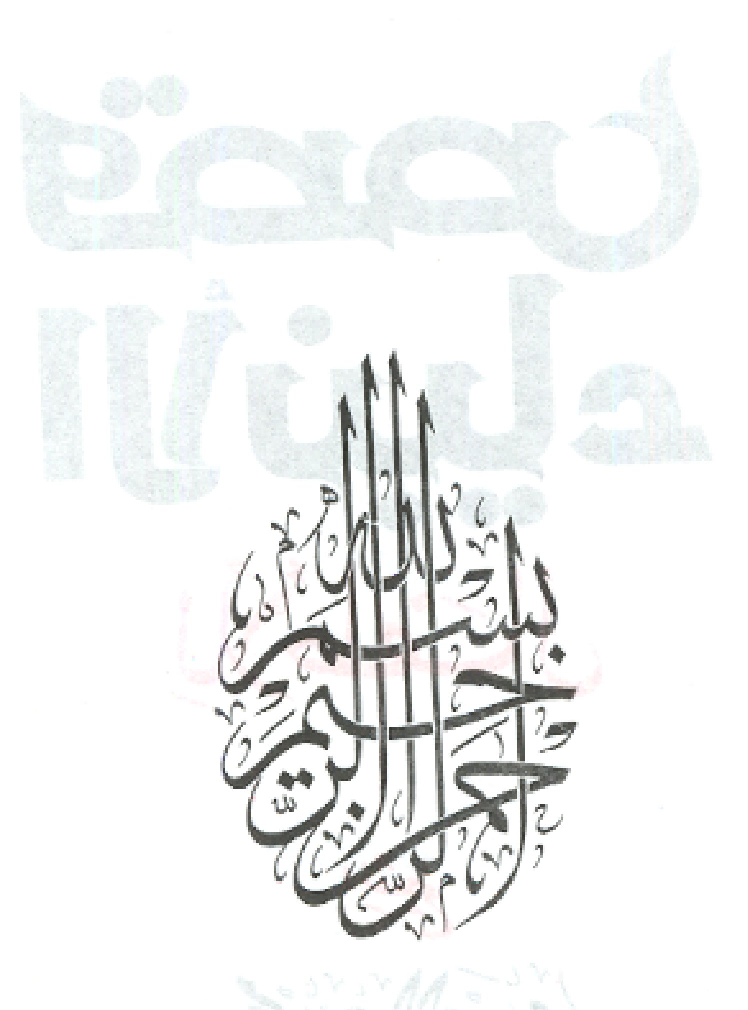
لِلأطفَال

الشيخ

محمود المصري

أبو عمار

مكتبة الصفا


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فالإسلام هو دين الهدى والنور، الذى لا سعادة للبشرية ولا أمن لها، ولا سعادة فى الدنيا والآخرة، إلا عندما تهتدى بهداه، وتستضىء بنوره، مخلصة فى عبوديتها لله الخالق، تأتمر بأمره، وتتبع منهجه، نابذة كل منهج من المناهج الأرضية المخالفة له.

والأولاد أمانة فى أعناق الوالدين، والوالدان مسؤولان عن تلك الأمانة، والتقصير فى تربية الأولاد خلل واضح، وخطأ فادح؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، والبيت هو اللبنة التى يتكون من أمثالها بناء المجتمع، وفى

الأسرة الكريمة الراشدة التى تقوم على حماية حدود الله وحفظ شريعته، وعلى دعائم المحبة والمودة والرحمة والإيثار والتعاون والتقوى - ينشأ رجال الأمة ونساؤها، وقادتها وعظماؤها.

والولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع - يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لأبويه فى سلوكه الاجتماعى المستقيم.

ومكتبة الصفا تقوم بدورها فى توعية المجتمع بواجباته الدينية والاجتماعية كما تعودت دائمًا، فبعد أن وفقها الله لطباعة ونشر القرآن الكريم، ونشر كتب التفسير والحديث.

ونشر كتب الداعية الكبير فضيلة الشيخ «محمود المصرى».

نقدم اليوم درة تضاف إلى مطبوعاتنا وهو كتاب «قصص الأنبياء للأطفال» لفضيلة الداعية محمود المصرى.

استطاع فيه - حفظه الله - أن يتحدث مع الأطفال بلغة عصرية جميلة.

يعلمهم فيه أصول دينهم، عن طريق القصص والحكايات.

وسترى أخي القارئ الكريم مدى السلاسة والسهولة التى تميزت بها عبارات هذا الكتاب حتى يناسب عقول رجال المستقبل.

ونعدكم أخي القارئ الكريم بمزيد من المطبوعات فى كافة المجالات، التى نرجو من الله عز وجل أن يتقبلها منا قبولاً حسنًا وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكتبة الصفا

جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين

قصص الأنبياء للأطفال

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان: (٧٠، ٧١).

أما بعد:

فإن من أعظم النعم التى أنعم الله بها على الإنسان (نعمة الأولاد) فهم منحة إلهية وهبة ربانية فهم زينة الحياة وزهرتها وهم أمانة فى نفس الوقت - يجب أن نحافظ عليها - فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

وقال ﷺ - كما فى الصحيحين -: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».

فالإحسان إلى الأولاد وتربيتهم أداء للأمانة... وإهمالهم والتقصير فى حقوقهم غش وخيانة.

* ومن المعلوم أن من أكثر الوسائل تأثيرًا فى الطفل المسلم: القصة - ولذا نجد كثيرًا من المُعلمين كانوا يلجأون فى الماضى والحاضر للأسلوب القصصى فى توصيل المعلومة للطفل المسلم.. ولكن بكل أسف كان أكثرهم يختارون القصص الغربية التى تدمر الأخلاق والفضيلة فى

(١) سورة التحريم: الآية: (٦).

نفس الطفل المسلم.

ونسى هؤلاء أن تاريخنا الإسلامى المجيد غنى بأحسن القصص الذى يعلم أطفالنا الأخلاق الحميدة والسلوكيات القويمة... وعلى رأس هذا القصص قصص الأنبياء والمرسلين ثم قصص الصحابة الأطهار ثم قصص التابعين الأخيار.

* ولو سأل سائل: لماذا ندرس قصص الأنبياء؟

أقول: نحن ندرس قصص الأنبياء لأسباب جليلة أهمها:

(١) لأن الله أمرنا أن نقتدى بهم ونتأسى بهديهم.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(١).

والأمر له ﷺ أمر لأمته... وذلك لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(٢).

(٢) لأن حياة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) هى

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (٩٠).

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (٢١).

الحياة المعصومة من الزيغ والخطأ خصوصًا فيما يتعلق بأمر العقيدة.

(٣) لأن في دراسة حياة الأنبياء أكبر العظات والعبر للدعاة إلى الله (عز وجل).. فهم أسوة في إيمانهم وأخلاقهم وسلوكهم وصبرهم على البلاء فإذا ابتُلى الداعية يعلم يقينًا بأنه قد ابتُلى مَن هم خير منه.

(٤) أن دراسة حياتهم تنفعنا في كل زمان وبخاصة في زمن الغربة الذي نعيشه الآن حتى نجد قدوة نسير على هديها لنفوز بنصر الله وتمكينه لنا كما نصرهم الله ومكّن لهم.

(٥) أن في قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيت للأفئدة، وتعميق لعقيدة أن العاقبة للمتقين، وأن النصر للمؤمنين: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

(٦) أن في دراسة قصص الأنبياء معرفة طبيعة الصراع بين الحق والباطل وأن الله يجعل النصر في نهاية الطريق لأهل الحق الذين آمنوا بالله واتبعوا رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة هود: الآية: (١٢٠).

(٧) أن دراسة قصص الأنبياء ومعرفة أخبارهم تجعلنا نزداد حبًا لهم ورغبة فى أن نكون فى صحبتهم باتباعنا لهم، وحبنا إياهم، وإن قصرت أعمالنا وأحوالنا عنهم كثيرًا كثيرًا.

* فعن أنس ﷺ: «أن رجلاً سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها؟» قال: لا شيء إلا أنى أحب الله ورسوله، فقال: «أنت مع من أحببت».

قال أنس: «فما فرحنا بعد الإسلام بشيء مثل فرحنا بهذا الحديث فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم، وإن لم أعمل أعمالهم»[١][٢].

* فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع قصص الأنبياء ولنسعد بسيرتهم العطرة عسى الله أن يجمعنا بهم فى جنته يوم القيامة إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى

(أبو عمار)

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) فبهداهم اقتده / عبد العزيز بن ناصر الجليل (ص: ١٣ - ٢٠) بتصرف.

قصة آدم (عليه السلام)

فى بداية هذا الكون كان الله وحده ولا شىء مع الله.. فهو الأول الذى ليس قبله شىء.

قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شىء غيره»[1].

* ثم أراد الله (جل وعلا) بحكمته وعظمته وفضله ورحمته أن يخلق هذا الكون الفسيح الذى لا يعلم سعته وعظمته إلا الله (جل وعلا).

* فخلق الله الأرض فى يومين وجعل فيها الجبال الرواسى من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواءً للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فسواهن سبع سماوات فى يومين، وأوحى فى كل سماء أمرها.. وزيَّن السماء بالنجوم لتُنيرها وتُزينها وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجلٍ مُسمى.

ثم خلق الملائكة من النور.. فهم الذين يسبحون بحمده ويقدسونه ويُخلصون فى عبادته.. لا يعصون الله

(١) صحيح: رواه البخارى (٣١٩٢).

ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وخلق الجن من النار.. فكان منهم الطيب ومنهم الفاسد.

* ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وكماله «سبحانه وتعالى».

خلق آدم (عليه السلام)

ثم شاء الله (عز وجل) أن يخلق آدم، وذريته، ليسكنوا الأرض، ويعمروها، فأنبأ ملائكته أنه سيُنشئ خلقًا آخر، يسعون في الأرض، ويمشون في مناكبها[1]، وينتشر نسلهم في أرجائها، فيأكلون من نبتها، ويستخرجون الخيرات من باطنها، ويخلف بعضهم بعضًا فيها.

* فلما أخبرهم الله (عز وجل) أنه سيخلق خلقًا غيرهم خافوا أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم، أو لمخالفة كانت من أحدهم فأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم، وقالوا: كيف تخلق غيرنا، ونحن دائبون على التسبيح بحمدك، وتقديس اسمك؟! على أن هؤلاء الذين تستخلفهم في الأرض لا بد

(١) مناكبها: جوانبها ونواحيها.

أن يختلفوا على ما فيها من منافع، ويتجاذبوا ما بها من خيرات، فيفسدوا فيها، ويسفكوا الدماء.

لقد قال الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1].

لأنهم رأوا ما فعله الجن - قبل أن يُخلق آدم - من الإفساد وسفك الدماء.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كانت الجن قبل آدم بألفي عام، فسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم جندًا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور.

* ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون[3].

خلق آدم (عليه السلام) من تراب

وكان بداية خلق آدم (عليه السلام) من التراب... ولقد أخبرنا الله (جل وعلا) بهذه الحقيقة في كتابه فقال: ﴿إِنَّ مَثَل

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٣٠).

(٣) قصص الأنبياء / الحافظ ابن كثير (ص: ٢٥).

عيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [١].

وقال ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك» [٢].

* أما عن تفاصيل خلق آدم (عليه السلام) من تراب فلقد أمر الله جبريل أن ينزل إلى الأرض ليأتيه من ترابها فلما نزل قالت له الأرض: أعوذ بالله منك أن تأخذ منى شيئًا فتركها وعاد إلى ربه فقال: يا رب إنها عاذت بك فأعذتها.. فأرسل الله ميكائيل ليأتيه من تراب الأرض فلما نزل قالت له الأرض: أعوذ بالله منك أن تأخذ منى شيئًا فتركها وعاد إلى ربه فقال: يا رب إنها عاذت بك فأعذتها.. فأرسل الله ملك الموت ليأتيه من ترابها فقالت له الأرض: أعوذ بالله منك أن تأخذ منى شيئًا فقال لها ملك الموت: وأنا أعوذ بالله أن أرجع دون أن أنفذ أمر الله (جل وعلا).. فأخذ ملك الموت من تراب الأرض كلها ولم يأخذ من مكان

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٥٩).

(٢) صحيح: رواه الترمذى (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٦٩٣)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله فى الصحيحة (١٦٣٠).

واحد بل أخذ من تربه حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج الناس مختلفين فى ألوانهم وطبائعهم وأخلاقهم ومشاعرهم وذلك لاختلاف طبيعة الأرض التى خُلق منها كل إنسان.

فقال الله لملك الموت: أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك؟

فقال ملك الموت: لقد رأيت أن تنفيذ أمرك أوجب من قولها.

فقال الله له: أنت تصلح لقبض أرواح بنى آدم.

ثم عُجنَت هذه القبضة من التراب بالماء فصارت طينًا، ثم جف ويبس حتى صار كالفخار، وكان آدم عليه السلام فى هذه المراحل جسدًا، مجرد جسد بلا روح ولا حياة فبعد أن خلقه الله من الطين، صوره وسوّاه وجعله تمثالاً كجسمه على صورة إنسان، وتركه فى الجنة مدة من الزمن لا يعلمها إلا الله،... قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(١).

❊ ❊ ❊

(١) سورة الإنسان: الآية: (١).

إبليس يطيف بآدم (عليه السلام)

* قال ﷺ: «لما خلق الله آدم تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك»(١).

ذلك لنعلم أن عداوة إبليس لنا قديمة ولن تنتهي حتى قيام الساعة فمنذ أول لحظة يولد فيها الإنسان وإذا بالشيطان يعلن عداوته له كما أخبر بذلك الصادق ﷺ حيث قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه»(٢).

- بل ويظل في حربه السافرة لبني آدم حتى الموت..

ويوم القيامة يخطب خطبته الشهيرة في النار ليملأ قلوب العصاة والكافرين حسرة فيزدادوا عذابًا فوق العذاب كما أخبر بذلك العزيز الوهاب: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦١١).

ومعنى: لا يتمالك، لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، - والمراد: كل بني آدم-.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٦٦).

أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

خلق آدم (عليه السلام) في يوم الجمعة

* وكان خلق آدم (عليه السلام) في يوم الجمعة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها»(٢).

* وعن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»(٣).

(١) سور إبراهيم الآية: (٢٢).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٥٤).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٩).

صفة آدم (عليه السلام)

وأما عن صفة آدم (عليه السلام) فلقد أخبر عنها النبى ﷺ فقال: «خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيّونك به فإنها تَحِيّتُكَ، وتحيةُ ذريتك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، قال: فزادوه: ورحمة الله. قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم عليه السلام، وطوله ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن»(1).

* وقال بعض العلماء فى قول النبى ﷺ عندما كان فى رحلة المعراج: «فمررت بيوسف عليه السلام فإذا هو قد أُعطى شطر الحُسن»(2). قالوا: معناه أن يوسف (عليه السلام) كان على النصف من جمال آدم (عليه السلام) وذلك لأن الله هو الذى خلق آدم بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه فكان أجمل مخلوق فى الكون.

---

(1) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).
(2) صحيح: رواه مسلم (١٦٢).

إبليس يرفض السجود لآدم (عليه السلام)

لما خلق الله آدم (عليه السلام) ونفخ فيه الروح عطس وتحرك جسده ودبَّت فيه الحياة وأصبح إنسانًا يتنفس ويرى ويسمع.

ففتح آدم (عليه السلام) عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له سجود تحية وليس سجود عبادة.... ماعدا واحدًا يقف بعيدًا ويرفض السجود لآدم (عليه السلام).. وهو إبليس اللعين.

* لقد حكى الله عز وجل قصة رفض إبليس السجود لآدم في أكثر من سورة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1][2].

وقال في سورة (ص): ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ

(١) سورة الأعراف: الآيات: (١٢- ١٦).

(٢) «الصاغرين»: الأذلاء المهانين، «أنظرني»: أخرني وأمهلني في الحياة. «أغويتني»: أضللتني، «لأقعدن لهم»: لأترصدنهم ولأجلسنّ لهم.

خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾[1]. . . قال تعالى: ﴿ فاخرج منها فإنك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾[2].

* وهكذا امتنع إبليس عن السجود، فطرده الله سبحانه، وأبعده، وأهبطه إلى الأرض طريدًا ملعونًا شيطانًا رجيمًا.

قال ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله! أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت فلي النار»[3].

لأقعدن لهم صراطك المستقيم

ولما طُرد إبليس من رحمة الله (جل وعلا) ولعنه الله إلى يوم الدين قام إبليس وأعلن عداءه لبني آدم وطلب من الله (عز وجل) الإنظار - التأجيل -: ﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون (١٤) قال إنك من المنظرين ﴾[4].

* ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦) ثم

(١) سورة ص: الآيتان: (٧٥، ٧٦).
(٢) سورة ص: الآيتان: (٧٧، ٧٨).
(٣) صحيح: رواه مسلم (٨١).
(٤) سورة الأعراف: الآيتان: (١٤، ١٥).

لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[1].

يخبر تعالى أنه لما أنظرَ إبليس، أخذ في المعاندة والتمرد فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: أقسم بإغوائك لي، لأقعدن لهم صراطك المستقيم، والصراط المستقيم هو كل طرق الخير التي تؤدي إلى رضاه تعالى، من إسلام وهجرة وجهاد وجميع الطاعات التي يرضى عنها سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: يأتيهم من كل وجه وجهة، ليزل أقدامهم عن طرق الطاعات، ويعدد لهم الغوايات أشكالاً وألوانًا، حتى يوقعهم في المعاصي.

* قال ﷺ: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[2].

* وكشف الشيطان عن حقده على آدم (عليه السلام)

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان: (١٦، ١٧).

(٢) حسن: رواه أحمد (١٠٨٥١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٥٠).

وذريته فقال: ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴿٨٢﴾ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[1].

فهو يقسم بعزة الله على إغواء كل بني آدم ماعدا عباد الله المخلصين فقال تعالى: ﴿ فالحق والحق أقول ﴿٨٤﴾ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[2].

* إنها معركة قديمة ولن تنتهي أبدًا بين الشيطان وبين بني آدم ولذلك يجب علينا أن نعتصم بالله وأن نعبده حق العبادة حتى يعصمنا جميعًا من كيد الشيطان.

وقفة لطيفة

ظن كثير من الناس أن إبليس كان من الملائكة لأنه كان يعيش معهم.. وهذا خطأ كبير لأنه يخالف النص القرآني.

قال تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾[3].

(١) سورة ص: الآيتان: (٨٢، ٨٣).
(٢) سورة ص: الآيتان: (٨٤، ٨٥).
(٣) سورة الكهف: الآية: (٥٠).

قال الحسن البصرى: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط.

* ومن المعلوم أن إبليس خُلق من النار وأن الملائكة خُلقت من النور كما قال ﷺ: «خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار وخُلق آدم مما وصف لكم»(١).

وعلَّم آدم الأسماء كلها

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢).

* لقد علَّم الله (سبحانه وتعالى) آدم (عليه السلام) الأسماء كلها فعرَّفه أسماء كل الكائنات التى خُلقت والتى لم تُخلق بعد.

ثم عرض تلك المخلوقات والكائنات على الملائكة.

﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: أنبئونى بأسماء من عرضتهم عليكم من المخلوقات.... وكانت الملائكة تظن أن الله لا يخلق خلقًا إلا ويكونون هم أعلم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٦).
(٢) سورة البقرة: الآية: (٣١).

منهم، . . . فإن كنتم صادقين بأنكم أعلم من كل خلقي الذي منهم آدم، فأنبئوني بأسماء الخلق الذين عرضتهم عليكم[1].

- ولما عجز الملائكة عن ذكر هذه الأسماء قالوا في أدب جم: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[2]. أي: العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك ما تشاء، ومنعك ما تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام.

يا آدم أنبئهم بأسمائهم

ولما كان آدم قد اغترف من فيض ربه، واقتبس من نور علمه، أمره الله أن ينبئهم بما عجزوا عن معرفته، بيانًا لفضله، وإظهارًا لحكمة استخلافه، فأخبرهم بما عجزوا عنه، فناداهم ربهم: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[3].

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٤١).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣٢).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٣).

حينئذ تبينوا فضله، وأدركوا سر خلقه، وظهرت لهم حكمة استخلافه.

※ وبذلك فاز آدم (عليه السلام) بتلك التشريفات والمناقب:

- خلقه الله (جل وعلا) بيده الشريفة.
- نفخ فيه من روحه (سبحانه وتعالى).
- أمر الملائكة بالسجود له.
- علّمه أسماء كل شيء.

※ وهكذا علم الملائكة قدر آدم (عليه السلام) وعظم شأنه في أعينهم وعلموا أنه يعلم ما لا يعلمون.

كيف خُلقت حواء؟

لما خلق الله آدم (عليه السلام) وأسكنه الجنة كان يمشي فيها وحيداً ليس فيها من يجالسه أو يكلمه فأحس بالوحدة والوحشة فأكرمه الله (عز وجل) فخلق له حواء من ضلع من أضلاعه لتكون جزءاً منه لا يستغني عنها.. وكانت من ضلعه الأيسر لتكون أقرب إلى قلبه وأحب إلى نفسه.

لكن كيف خُلقت؟

لقد نام آدم (عليه السلام) نومة ثم استيقظ فوجد امرأة عند رأسه خلقها الله لتسكن إليها نفسه تُسمى حواء... وسُميت بهذا الإسم لأنها خُلقت من حى وهو آدم (عليه السلام).

اسكن أنت وزوجك الجنة

وهنا جاء الأمر من الله (جل وعلا).

﴿ يا آدم اسْكُنْ أنت وَزَوْجُك الْجَنَّةَ وَكُلا منها رَغَدًا حَيْثُ شئْتُما ﴾(١).

فسعد آدم (عليه السلام) بأن زوجته سترافقه فى الجنة.

ومما زاد من سعادته أن الله (عز وجل) أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة وأن ينعما بكل نعيم فى الجنة فقال تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾(٢).

لكن الله (عز وجل) نهى آدم وحواء عن أن يأكلا من شجرة واحدة حددها لهما (سبحانه وتعالى) وحذرهما من الأكل منها أشد التحذير فقال تعالى: ﴿ اسكُنْ أنت وَزَوْجُك الْجَنَّةَ وَكُلا منها رَغَدًا حَيْثُ شئْتُما ولا تقربا هذه الشَّجَرَةَ فتكونا من الظَّالمين ﴾(٣).

(١)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٣٥).

(٢) سورة طه: الآيتان: (١١٨، ١١٩).

* سكن آدم وزوجه الجنة وصار يتمتع بكل ما فيها من النعيم الذى لا يخطر على قلب بشر... وكانت زوجته حواء تشاركه كل هذا النعيم.

فوسوس إليه الشيطان

وفى ظل هذا النعيم العظيم الذى كان يتمتع به آدم وزوجه حواء جاء التحذير من الله (عز وجل) لآدم.. فحذره من كيد هذا العدو اللدود الذى جهر بعدائه لآدم.. ألا وهو إبليس.

وعلى الرغم من أن الله (عز وجل) قد حذر آدم وحواء من عداوة إبليس إلا أنه استطاع أن يحتال عليهما ويوقعهما فى المعصية.

قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1]. هكذا جاء التحذير ولكن إبليس كان يتربص بآدم وحواء، فبسبب آدم طُرد من رحمة الله عز وجل، إذ عصى الله ولم يسجد لآدم

(١) سورة طه: الآيات: (١١٧- ١١٩).

كما أمره... علم إبليس بخبثه أن العصيان سبب طرده، فأخذ يفكر كيف يُطرد آدم وزوجه من ذلك النعيم المقيم الذى جعلهما الله فيه.

* راح إبليس يوسوس إلى آدم على جهة الإغواء والحسد والمكر، لم يقبل منه آدم ذلك.

كرر إبليس وسوسته يومًا بعد يوم، كما ذكر الله سبحانه فى محكم التنزيل: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[1].

* فكر إبليس فى طريقه أخرى، لعل آدم وزوجه حواء يسمعان إلى نصيحته المزعومة، لجأ إلى طريق الحيلة، أوهمهما أنه صادق الود لهما، وأنه لا يقصد ضررهما[2].

واستطاع إبليس بمكره وخبثه أن يخدع آدم وحواء وأقسم لهما بالله على أنه يريد الخير لهما: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[3] أى: حلف لهما بالله.

* ثم قال لآدم (عليه السلام): ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ

---

(١) سورة طه: الآية: (١٢٠).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ٢٩ - ٣٠) باختصار.

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٢١).

الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾(١) .

وقال أيضًا لهما: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾(٢) .

* وهنا نسى آدم (عليه السلام) أن الله (عز وجل) حذره من الاقتراب من هذه الشجرة.. بل نسى أن إبليس هو عدوه وعدو ذريته إلى يوم القيامة فأكل آدم وحواء من هذه الشجرة ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾(٣) .

* ولم يكد آدم ينتهي من الأكل من هذه الشجرة حتى أحس بالحزن والألم والخجل.. وهنا بدت له عورته لأول مرة وكان الله قد سترها عنه فلم يرها قبل ذلك.

وبدأ هو وحواء يقطعان من أوراق الشجر حتى يغطي كل واحد منهما عورته.

(١) سورة طه: الآية: (١٢٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٢٠).

(٣) سورة طه: الآية: (١٢١).

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾(١).

* أكل آدم - عليه السلام - ناسيًا، وعوتب على نسيانه الوصية، . . قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾(٢).

* خرج آدم وزوجه حواء عن أمر ربهما بمشيئة الله سبحانه، وناداهما ربهما مُذكرًا لهما وقائلاً: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(٣).

* سمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية، وعلى إغفال النصيحة، وأمام النداء العلوى، تذكر آدم وحواء الوصية، فأنابا إلى الله عز وجل، وندما على فعلتهما، وطلبا العون من الله والمغفرة، ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٤).

* نهض آدم من عثرته، وأدركته رحمة الله تعالى،

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٢٢).
(٢) سورة طه: الآية: (١١٥).
(٣) سورة الأعراف: الآية: (٢٢).
(٤) سورة الأعراف: الآية: (٢٣).

وتاب عليه، ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1][2].

الهبوط إلى الأرض

لما عصى آدم ربه وأكل هو وحواء من الشجرة المحرمة ثم تاب وندم على ما فعل وتاب الله عليه... وهنا جاء الأمر من الله (جل وعلا) بهبوط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض التي أعدها الله وهيأها ليعيش فيها آدم وذريته إلى يوم القيامة... فقد كانت فترة وجوده في الجنة كأنها فترة إعداد وتعليم وتربية وتدريب على طاعة الأمر واجتناب النهي ومقاومة الشهوات.

﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[3].

* لقد هبطوا جميعًا إلى الأرض.. آدم وزوجه.. وإبليس وقبيله.. هبطوا ليصارع بعضهم بعضًا.. وليعادي بعضهم بعضًا.. وكُتب على آدم وذريته أن يستقروا في

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٧).
(٢) نساء الأنبياء: (ص: ٣٣).
(٣) سورة البقرة: الآية: (٣٦).

الأرض، ويُمكنوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين.

* كتب عليهم ربهم أن يحيوا فيها ويموتوا. ثم يخرجوا منها فيُبعثوا، ليعودوا إلى ربهم فيُدخلهم جنته أو ناره، فى نهاية الرحلة الكبرى، رحلة الحياة الدنيا [١].

* عن أبى موسى الأشعرى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علّمه صنعة كل شيء وزوّده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير [٢].

* وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها» [٣].

يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان

وها هو التحذير يأتينا من اللطيف الخبير (جل وعلا) لنحذر من مكائد الشيطان الذى زين لأبينا آدم أن يأكل من

(١) نساء الأنبياء (ص: ٣٦).
(٢) رواه الحاكم (٢/ ٥٤٣) وصححه وأقره الذهبى.
(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٥٤).

تلك الشجرة التى نهاه الله عن أن يأكل منها.

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

- فياليتنا نتعظ بتلك القصة ونسلك طريق الطاعة والإيمان ونحذر من خطوات الشيطان لنفوز بالجنة والرضوان.

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن الله على كل شىء قدير.. فقد خلق السماوات والأرض والجبال والملائكة والجن وآدم وحواء.. وخلق كل شىء من العدم.

(٢) أن خير الأيام يوم الجمعة فهو عيدٌ لنا فى الدنيا وعيدٌ فى الآخرة وذلك لأن يوم المزيد فى الجنة سيكون يوم الجمعة.. وهو اليوم الذى نسعد فيه برؤية وجه الله (جل وعلا).

(٣) أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(٤) أن العلم شرف لكل إنسان... فقد رأينا كيف فضَّل الله آدم (عليه السلام) على الملائكة بالعلم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٢٧).

(٥) أن الكبر سبب هلاك الإنسان.. وقد رأينا أن إبليس لما استكبر عن السجود لآدم (عليه السلام) طُرد من الجنة وباء بلعنة الله إلى يوم الدين.

(٦) أن الخطأ والنسيان من طبيعة الإنسان... فلقد أخطأ آدم (عليه السلام) ونسي وأكل من الشجرة... ولكنه تاب بعد ذلك فتاب الله عليه وأنت إذا أخطأت فأسرع إلى التوبة ليتوب الله عليك.

(٧) احذر من مكائد إبليس فلقد أقسم بالله على أنه سيسعى فى كل لحظة لإغوائك ولإيقاعك فى معصية الله (جل وعلا).

(٨) أن الحسد من أخطر الأمراض التى توقع صاحبها فى المعاصى والسيئات.. فلا تحسد أحدًا ولكن سل الله من فضله.

(٩) أن المرأة سكنٌ لزوجها.. ولقد رأينا كيف أن آدم (عليه السلام) كان يشعر بالوحشة والغربة حتى خلق الله له حواء من ضلعه فملأت عليه حياته وكانت سكنًا له.

(١٠) أن الاعتراف بالذنب والندم على ما فات والمسارعة إلى التوبة من سمات الصالحين... فقد رأينا كيف أن آدم

(عليه السـلام) لما عصى ربه (جل وعلا) أسـرع إلى التوبة هو وزوجته حواء واعترفا بذنبهما فتاب الله عليهما.

(١١) لابد أن تعلم أن الخطأ والـنسيـان من طبـيـعـة الإنسان، والمَخرج فى التوبة والاستغفار.

(١٢) كـانت فتـرة وجود آدم عـليه السـلام فى الجنة للتدريب على الأمر والنهى: ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[١]. وللتعليم بالتحذير والإنذار: ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾[٢]، ولأن الإنسان من طبعه النسيان فقد جعل الله سبحانه وتعالى مـثل ذلك كل سنة فترة تدريب للإنسان؛ كى لا ينسى القـضـيـة التى خُلِق من أجلهـا، ولا يوالى عدوه فى معصـية مولاه، وهى فترة صيام شـهر رمضان، يحرم عليـه الحلال نهارًا ويباح له ليـلاً؛ لتقوية عزيمـته، وشحذ همته، وتذكيره بقضيّته؛ . . . فافهم[٣].

❋ ❋ ❋

(١) سورة البقرة: الآية: (٣٥).
(٢) سورة طه: الآية: (١١٧).
(٣) ابن الإسلام/ للشيخ محمد حسين يعقوب (ص: ٤١).

وبدأ الصراع على ظهر الأرض

لما أهبط آدم (عليه السلام) وزوجته حواء من الجنة إلى الأرض كان عليه أن يصبر على هذا الصراع الرهيب الذى يملأ الأرض.

فما ينتهى صراع إلا ويبدأ غيره... فقد كان عليه أن يبذل كل جهده من أجل أن يأكل ويشرب... ثم يأتى صراع آخر مع الوحوش والحيوانات التى تملأ الأرض والتى تُمثل خطرًا كبيرًا عليه وعلى زوجته وأولاده.

بل ولا ننسى منبع الشر الذى كان سببًا فى هبوط آدم وحواء من الجنة... إنه إبليس اللعين الذى يوسوس لآدم وزوجته وذريته لكى يُدخلهم النار معه يوم القيامة.

هكذا كان الصراع يحيط به من كل جانب لكن الله كان يحفظه بطاعته وقربه من الله (جل وعلا).



قصة ابنى آدم

* لما استقر آدم وزوجته حواء فى الأرض بدأت الحياة الزوجية تكتمل فكان لابد من وجود ذرية لتعمر الأرض وليستمر نسل آدم (عليه السلام) إلى يوم القيامة.

* لقد بدأت حواء تحمل وتلد لآدم أولادًا كثيرين .. فكانت تلد فى البطن الواحدة ولدًا وبنتًا.

وكبر أولاد آدم (عليه السلام) وتزوجوا وامتلأت الأرض بذرينه .. وكان دائمًا يدعوهم إلى الله ويحضهم على طاعته ويحذرهم من معصيته.

* وفى يوم من الأيام ولدت حواء ذكرًا وأنثى وبعد فترة وضعت ذكرًا وأنثى فسمى آدم أحدهما قابيل والآخر هابيل.

وكان فى شرع آدم (عليه السلام) لا يجوز للابن أن يتزوج أخته التى وُلدت معه فى بطن واحدة ولكن يجوز له أن يتزوج من أخته التى وُلدت قبله أو بعده .. المهم ألا تكون معه فى بطن واحدة.

* وفي يوم من الأيام جاء هابيل يريد أن يتزوج من أخت قابيل وكانت أجمل من أخت هابيل فوافق آدم (عليه السلام)؛ ولكن قابيل رفض بكل شدة وأراد أن يتزوج من توأمه لأنها كانت أجمل من توأم هابيل.

وأخذ إبليس يزرع الحقد والحسد في نفس قابيل على أخيه هابيل.

* فقام آدم (عليه السلام) وأمرهما أن يقدما قُربانًا إلى الله (جل وعلا) فمن تقبل الله قربانه يتزوج أخت قابيل.

* فخرج قابيل إلى زرعه وأخرج بعض الأعواد من أسوأ وأردأ أنواع الزروع وقدمها قُربانًا لله (جل وعلا).

* وأما هابيل فإنه أسرع إلى غنمه واختار كبشًا سمينًا من خيار ماشيته وقدمه قُربانًا لله (جل وعلا).

ووقف الاثنان ينتظران ماذا يحدث في شوق ولهفة.

فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش ولم تأكل قربان قابيل فلقد تقبل الله قربان هابيل.

* هنا غضب قابيل غضبًا شديدًا وذلك لأن الله تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانه .. وامتلأت نفسه بالحقد والحسد

وقرر فى لحظة - من نزغات الشيطان - أن يقتل أخاه هابيل .

* وكان هابيل قويًّا شديدًا يستطيع أن يدافع عن نفسه بل ويقتل قابيل ولكنه كان يخاف من الله ويعلم يقينًا أنه لو قتل أخاه فإن الله سيغضب عليه غضبًا شديدًا .

قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾(١) .

وأراد هابيل أن ينبه أخاه إلى أن جزاء من يقتل أخاه النار ، فقال له : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾(٢) .

* وفى هذا الكلام الذى قاله هابيل أكبر دليل على أن آدم (عليه السلام) كان يدعو أولاده إلى الله ويُعلمهم الحلال والحرام ويُعرفهم بالجنة والنار والجزاء والحساب ويحذرهم من الوقوع فى الظلم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة .

* ذكر أهل العلم أن آدم كان مباشرًا لتقريبهما القربان

(١) سورة المائدة : الآيتان : (٢٧ ، ٢٨) .
(٢) سورة المائدة : الآية : (٢٩) .

والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي،... وتوعَّد أخاه فيما بينه وبينه. فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذ هو به، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني.

فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين.

فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته.

وقيل: بل خنقه خنقًا شديدًا وعضه كما تفعل السباع، فمات.. والله أعلم[1].

قابيل يتعلم الدفن من الغراب

ولما قتل قابيل أخاه هابيل جلس أمامه عاجزًا لا يدري ماذا يصنع ولا يدري ماذا يقول لأبيه آدم (عليه السلام)..

(١) قصص الأنبياء/ للحافظ ابن كثير (ص: ٥١، ٥٢).

ولو أنكر أنه هو الذى قتل هابيل فأين يوارى جثته؟

وكانت هذه أول جريمة قتل تُرتكب على وجه الأرض.. ولم يكن أحدٌ على وجه الأرض يعلم شيئًا عن دفن الموتى لأن هذا كان أول ميت على الأرض.

* حمل قابيل جثة هابيل وأخذ يمشى بها فى الأرض لا يدرى أين يذهب، وفجأة أحس بالتعب فجلس يستريح قليلاً .. وبينما هو جالس إذ أرسل الله غرابين يقتتلان فقتل أحدهما الآخر ثم قام الغراب القاتل وأخذ يحفر فى الأرض حفرة كبيرة ثم وضع فيها الغراب المقتول ودفنه وغطاه بالتراب فعلم قابيل كيف يدفن أخاه هابيل وكان فى تلك اللحظة نادمًا أشد الندم على قتل أخيه هابيل.

فحفر حفرة فى الأرض ودفن أخاه هابيل وهو يبكى حزنًا عليه.

﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[1].

(١) سورة المائدة: الآية: (٣١).

قصة وفاة آدم (عليه السلام)

وظل آدم (عليه السلام) يعمل ويجتهد لإعمار الأرض.. وظل يُعلم أولاده وأحفاده ويدعوهم إلى الله (جل وعلا).

وعندما حضرته الوفاة، استدعى سيدنا آدم عليه السلام ابنه شيث، ولقنه العلوم والعبادات التى عرفها، حتى يواصل شيث رسالة آدم التى بدأها.

نام آدم (عليه السلام) على فراش الموت لتفيض روحه إلى بارئها (جل وعلا) بعدما ترك لذريته دروسًا لا تُنسى أبدًا وفوائد لا تبلى مع مرور الأيام والأعوام.

وها هى قصة موته (عليه السلام).

* فعن أبى بن كعب رضي الله عنه قال: (إن آدم عليه السلام، لما حضره الموت، قال لبنيه: أى بنى، إنى أشتهى من ثمار الجنة، فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة، ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحى، والمكاتل.. فقالوا لهم: يا بنى آدم ما تريدون وما تطلبون؟ أو ما تريدون؟ وأين تذهبون؟ قالوا: أبونا مريض، فاشتهى من ثمار الجنة، قالوا لهم ارجعوا فقد قُضى قضاء أبيكم.

فجاؤوا فلما رأتهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم، فقال: إليك إليك عنى، فإني إنما أُتيت من قِبَلك، خلّى بينى وبين ملائكة ربى تبارك وتعالى، فقبضوه، وغسَّلوه، وكفَّنوه، وحنطوه، وحفروا له، وألحدوا له، وصلُّوا عليه، ثم دخلوا قبره، فوضعوه فى قبره، ووضعوا عليه اللَّبِن، ثم خرجوا من القبر، ثم حثوا عليه التراب، ثم قالوا: يا بنى آدم هذه سنتكم)[1].

* يقص علينا هذا الحديث خبر أبينا آدم عليه السلام، عندما حضرته الوفاة، أنه اشتهى من ثمار الجنة، وهذا يدل على مدى حب آدم للجنة، وشوقه للعودة إليها.

وما له لا يشتاق إليها وهو قد عاش فيها، ورأى نعيمها، واستمتع به فترة من الزمن.

ولعله إذ اشتهى ذلك منها قد أحس بدنو أجله، وقد دلت بعض الأحاديث أنه كان يعلم عدد سنوات عمره، وكان يحسب ما مضى منها، فيبدو أنه علم أن سنوات عمره قد انقضت، وأن انتقاله إلى الدار الآخرة قد اقترب، ولا شك أن آدم عليه السلام كان يعلم أن بنيه لا

(١) روى هذا الحديث عبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائد المسند: (٥/١٣٦). قال ابن كثير بعد سياقه للحديث: «إسناد صحيح إليه». أى: إلى أبى بن كعب، البداية والنهاية (١/٩٨).

طاقة لهم بتلبية طلبه، فأنَّى لهم الوصول إلى الجنة، وقطف ثمارها، وهم كانوا يعلمون ذلك، ولكن برهم بأبيهم جعلهم ينطلقون للبحث عن مراده.

وما كادوا يبتعدون عن مقام أبيهم حتى قابلهم جمع من الملائكة متمثلين في صورة رجال، ومعهم كل ما يحتاج إليه لتجهيز الميت ودفنه، وهم يمثلون ما عليه المسلمون اليوم عندما يموت لهم ميت، فقد كانوا يحملون معهم أكفانًا وحنوطًا، ويحملون معهم الفؤوس والمساحي والمكاتل اللازمة لحفر القبر.

ولما أخبرهم أبناء آدم بمقصدهم وطلبهم، طلبوا منهم العودة إلى أبيهم، فإن أباهم قضى عمره، وانتهى أجله.

ولما جاءت ملائكة الموت آدم عرفتهم حواء، فلاذت بآدم، ويبدو أنها كانت تريد إغراءه بأن يختار الدنيا، فالرسل لا يُقبضون حتى يُخيَّروا، كما أعلمنا رسولنا ﷺ.. فلم يلتفت إليها آدم عليه السلام، وزجرها قائلاً لها: إليك عنى، فإنى إنما أُتيت من قِبلك، وهو يشير بذلك إلى ما كان منها فى إغوائه ليأكل من الشجرة.

قبض الملائكة روح آدم عليه السلام، وتولوا تجهيزه، ودفنه،

وأبناؤه ينظرون، فقد غسلوه، وكفنوه، وحنطوه، وحفروا له قبره، وألحدوا له فيه لحدًا، وصلوا عليه، ودخلوا في قبره، ووضعوه فيه، ووضعوا عليه اللَّبِن، ثم خرجوا من القبر، وحثوا عليه التراب، وقالوا لأبنائه معلمين لهم: يا بنى آدم هذه سُنتكم، أى: طريقتكم التى اختارها الله لكم فى موتاكم.

وبذلك تكون هذه الطريقة شريعة عامة لكل الرسل ولجميع المؤمنين فى الأرض على مدار العصور والأزمان، وكل طريقة تخالفها فهى مخالفة لهدى الله بمقدار ما فيها من المخالفة.

ومن يعرف هدى المسلمين فى موتاهم الذى علمهم إياه رسولهم ﷺ يجده موافقًا لما فعلته الملائكة بآدم عليه السلام.

وقد خالف هذا الهدى كثير من البشر على مدار التاريخ، فمنهم الذين يحرقون موتاهم، ومنهم الذين يبنون لهم البنايات الفخمة كالأهرامات ويدفنونهم فيها، بعد أن يضعوا عندهم الطعام والشراب والحلى والجواهر، ومنهم الذين يضعونهم فى توابيت من الحجر أو الخشب، وكل ذلك يكلف تكاليف باهظة الثمن، ويضع جهودهم فى غير موضعها، وهو قبل ذلك وبعده مخالف للهدى

الذى شرعه الله للموتى من بنى آدم(١).

* فلما مات آدم (عليه السلام) قام ولده شيث (عليه السلام) بأعباء الدعوة من بعده وكان نبيًا .. ومرت الأيام والسنون وتتابعت الأحداث الكثيرة بعد ذلك حتى بعث الله (جل وعلا) نبيه إدريس (عليه السلام) ... فيا تُرى ما الذى حدث فى عهده؟ هذا ما سنعرفه فى القصة القادمة.

النبى ﷺ يلتقى بآدم (عليه السلام) فى ليلة المعراج

ففى الحديث المتفق عليه أن النبى ﷺ قال: «فُرِج عن سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد ﷺ. فقال: أُرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ٢٦ : ٢٨) د. عمر الأشقر.

أسـودة، إذا نظر قِبل يمينه ضـحك، وإذا نظر قِبل يسـاره بكى، فقـال: مرحـبًا بالنبى الصـالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قـال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمـينه وشـماله نسم بنيـه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى..»[(١)] .

أهل الجنة يدخلونها على صورة آدم (عليه السلام)

وإكرامًـا لآدم (عليه السـلام) فإن أهل الجنة يدخلـونها على صورة أبيـهم آدم كما أخـبر بذلك الصـادق المصدوق ﷺ حيـث قال: -كمـا فى الصـحيحـين-: «أول زُمرة يدخلون الجنة على صـورة القمر ليلة البـدر. ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضـاءة: لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتـفلون، ولا يمتخـطون، أمشـاطهم الذهب، ورشـحـهم المسك، ومجامرهم الألوة - عود الطيب - أزواجهم الحـور العين، على خلق رجلٍ واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا فى السماء» .

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٩)، واللفظ له، ومسلم (١٦٣).

وفى رواية للبخارى ومسلم: «آنيتهم فيها الذهب، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض: قلوبهم قلب رجل واحد، يُسبحون الله بُكرة وعشيًا».

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن الحياة كلها تعب وكبد ومشقة ولا بد أن يعلم المسلم أنه لا راحة إلا فى جنة الرحمن (جل وعلا).

(٢) أن الحسد والأنانية تحمل الإنسان على إيذاء إخوانه والكيد لهم، وقد رأينا ماذا صنع الحسد الذى كان فى قلب قابيل تجاه أخيه .. لقد حمله على أن قتل أخاه.

فالواجب على المسلم أن يرضى بقضاء الله ولا يحسد أحدًا على حطام الدنيا الفانية بل يجب عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

(٣) أن الحكمة ضالة المؤمن .. فقد يتعلم الإنسان من إنسان آخر أقل منه فى العلم والفهم .. وقد رأينا كيف تعلم قابيل دفن أخيه من الغراب الذى دفن الغراب المقتول.

(٤) كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته .. فقد رأينا كيف أن آدم (عليه السلام) كان حريصًا على دعوة أولاده وأحفاده حتى آخر لحظة فى حياته.

قصة إدريس (عليه السلام)

حبايبي الحلوين... ما رأيكم في أن أقص عليكم قصة نبي الله إدريس (عليه السلام).

* هيا بنا نرجع إلى الوراء قليلاً.

فإنه لما اقترب أجل أبينا آدم (عليه السلام) وأوشك على الموت جاء بابنه (شيث) وعلّمه علمًا كثيرًا ثم مات آدم (عليه السلام).

* وأنزل الله (عز وجل) بعد ذلك على شيث خمسين صحيفة فيها تعاليم الله إلى أهل الأرض يدعوهم فيها لعبادته وحده لا شريك له ويحذرهم من الوقوع في الشرك والكفر.

وعاش (شيث) وسط أولاده يُعلمهم الإيمان، فلما أوشك على الموت، واقترب موعد وفاته، أوصى إلى ولده (أنوش) فقام بدعوة قومه كما كان يفعل أبوه.

ثم علم ولده (قينن) من بعده كيف يدعو الناس إلى الله.

وجاء الولد الرابع وهو (مهلاييل) فكان ملكًا مؤمنًا، حارب أهل الشرك من أبناء قابيل، ثم علم ولده (يرد)

الذى صار يدعو الناس للإيمان والعمل الصالح.

وحضرت الوفاة (يرد) فأحضر ولده (إدريس) وكان صالحًا، عابدًا، زاهدًا، عالمًا، ففهم من أبيه ما أراد.

* وكان إدريس يقرأ كل يوم فى الصحف التى أنزلها الله على شيث حتى لا ينساها .. وكان عابدًا لله لا ينقطع أبدًا عن عبادته وشكره لله (جل وعلا).

ولذلك أكرمه الله بالنبوة بعد آدم وشيث (عليهما السلام) فهو أحد الرسل الكرام الذين أخبر الله (عز وجل) عنهم فى كتابه العزيز... قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [(١)].

فقد كان صدِّيقًا نبيًّا وكان من الصابرين.. وهو أبو جد نوح (عليه السلام) أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة فكان يدعو الناس إلى وحدانية الله فآمن معه ألف إنسان.. ولقد أدرك إدريس من حياة آدم (عليه السلام) ثلاثمائة وثمان سنوات لأن آدم (عليه السلام) عاش طويلاً ما يقرب من ألف سنة.

* وُلد إدريس (عليه السلام) ببابل ولما تعلم العلم وكان

---

(١) سورة مريم: الآيتان: (٥٦، ٥٧).

فى بداية أمره يعلم الناس تلك الصحف التى أُنزلت على شيث (عليه السلام) فلما آتاه الله النبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة كان يدعو بها إلى وحدانية الله (جل وعلا).

وخرج يطوف البلدان ليدعو الناس جميعًا إلى توحيد الله (جل وعلا) حتى وصل إلى أرض مصر وأقام هناك بمصر هو ومن معه من المؤمنين وظل يدعو الناس إلى التوحيد وإلى مكارم الأخلاق.

* وكان (إدريس) عالمًا، فكان أول من كتب بالقلم، وهو أول من خيَّط الثياب وحاكها، وأول من تعلم مواقع النجوم وعلَّمها للناس، كما تعلم الفلك والحساب، والحكمة.

وكان (إدريس) يطوف الأرض، ويدخل فى البلاد كلها، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويُعلمهم العلوم النافعة التى تعلمها، كالفلك، والحساب، والخياطة، والكتابة.

* وكان إدريس (عليه السلام) لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله، فكان يُمسى حين يُمسى وليس فى الأرض أحدٌ أفضل منه عملاً.

وكان إذا نسى ذكر الله أثناء خياطته للثوب، يعود مرة

أخرى فيقطع ما قد خيَّطه ويُعيد خياطته مرة أخرى، ويذكر الله تعالى من جديد.

ولما كان (إدريس) على هذه الدرجة العالية من العلم والعبادة فقد أحبه الناس فى كل البلاد، وحاول كل شعب من الشعوب أن ينسبه إلى دولته.

فالمصريون يُسمون (إدريس) هُرمس الهرامسة، ويقولون: إنه ولد (بمنف) عاصمة مصر الفرعونية، ويقولون أيضًا: إنه طاف البلاد ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

واليهود يُسمون إدريس (أخنوخ) ويقولون أنه نبى من الأنبياء كان كثير العبادة، وكان الله تعالى يحبه، ولذلك رفعه إلى السماء.

وأهل اليونان يُسمون إدريس (أورين الثالث) ويجعلونه حكيمًا من الحكماء عندهم وهذا دليل على أن (إدريس) عليه السلام كان رجلاً محبوبًا من كل الناس فى الأرض، لأنه علمهم العلوم

النافعة، كما علَّمهم كيف يعبدون الله، ويُصلون له.

والمسلمون يُحبون إدريس عليه السلام، لأن الله تعالى أخبرنا أنه كان صِدِّيقًا نبيًّا، وقد رآه النبى ﷺ فى السماء الرابعة فى رحلة الإسراء والمعراج.

وقد كانت الملائكة تُحب (إدريس) عليه السلام، فقد كان كثير القراءة لكلام الله تعالى الذى أنزله فى صحف (شيث)[١].

* عانى فى سبيل دعوته وتحمل الأذى وصبر - كسائر الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليهم - ولذلك أثنى الله عليه فقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢].

* ولهذا كان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين.. فقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٣].

(١) قصص الأنبياء للأطفال / حامد أحمد (ص: ٧٧ - ٧٩).
(٢) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٥، ٨٦).
(٣) سورة مريم: الآيات: (٥٦ - ٥٨).

وكان إدريس فى مصر مُحببًا إلى أهلها فأطاعه ملك مصر وآمن به، فنظر إدريس فى أمور المصريين، فصعد إلى أول منابع النيل، وعلَّم المصريين كيف يقيسون الأراضى، وعلَّمهم ما يفعلون أيام زيادة الماء وهو الفيضان، وما يفعلون أيام نُقصان الماء، كما علَّمهم الزراعة الصحيحة، وعلمهم كيفية رى الأرض وسقيها.

وهذا معناه أن إدريس عليه السلام جمع بين الحُكم، والنبوة، والحكمة، والعلم.

* وهو أول من رسم قواعد إنشاء المدن فلقد أُنشئت فى زمانه مائة وثمان وثمانون مدينة.

* وهكذا عاش إدريس (عليه السلام) يطوف البلدان ويعلِّم الدنيا علوم الدين والدنيا، ويحضهم على عبادة الله ووحدانيته.

* وقبل موته أخذ يُعلم ابنه الإيمان والتوحيد والعبادة الصحيحة وعلَّمه كافة العلوم النافعة التى تعلمها من قبل.. ثم مات إدريس (عليه السلام) بعد أن رفعه الله مكانًا عليًا.

* فكيف رفعه الله مكانًا عليًا.. فتعالوا بنا لنعرف كيف كان ذلك.

* أوحى الله إلـى إدريس بأنه يرفع له كل يـوم مـثل جميع أعمال بنى آدم الذين يعيشون فى زمانه.

فجـاء إلى إدريس (عليه السـلام) خليل له من الملائكة فـقال له إدريس: إن الله أوحـى إلىَّ بكذا وكذا فـأريد أن أعيش طويلاً حتى تكثر أعمالى الصالحة التى تُرفع إلى الله فأخذه الملك وحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء.

فلما كـان فى السماء الرابعة قـابله ملك الموت وكان نازلاً إلى الأرض فكلم هذا الملك المقرب إلى إدريس ملك الموت فى أن إدريس يريد أن يعيش أكثر من ذلك ليزداد عمله الصالح.

فقال له ملك الموت: وأين إدريس؟

فقال الملك: ها هو الآن على ظهرى.

فقال ملك الموت: يا للعجب .. لقد أمرنى الله الآن بقبض روح إدريس فى السـماء الرابعة فجـعلت أقول فى نفسى: كـيف أقبض روحـه الآن فى السمـاء الرابعة وهو الآن فى الأرض .. فقـام ملك الموت وقبض روح إدريس (عليه السـلام) فى السماء الـرابعة فذاك هو قـوله تعالى: ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾[1].

---

(١) سورة مريم: الآية: (٥٧).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن الآباء لا بد أن يحرصوا على غرس العقيدة والأخلاق فى نفوس أبنائهم فقد رأينا كيف أن آدم (عليه السلام) كان حريصًا على تعليم أبنائه علوم الدين والدنيا . . . وكذلك فعل أبناؤه بأبنائهم . . وهكذا فعل إدريس (عليه السلام) .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١].

وقال ﷺ : «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته»[٢].

(٢) أن المسلم لا ينشغل بعلوم الدين فقط بل عليه أن يكون حريصًا على أن يتعلم علوم الدين والدنيا لينفع المسلمين من حوله . . كما فعل إدريس (عليه السلام) فقد كان يطوف البلدان يعلمهم علوم الدين والدنيا .

(٣) أن المسلم لا بد أن يحرص على صحبة أهل العلم ليتعلم منهم الخير كله فى دينه ودنياه .

(٤) أن المسلم لا بد أن يحب الخير لكل من حوله

---

(١) سورة التحريم: الآية: (٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

فلقد رأينا كيف أن إدريس (عليه السلام) كان حريصًا على تعليم الناس كل ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم ليعيشوا فى سعادة فى دنياهم وآخرتهم.

(٥) أن المكانة العالية لا تكون إلا لأهل الإيمان والتقوى .. فقد رأينا كيف رفع الله إدريس إلى السماء الرابعة ليقبض روحه هناك.

- ولذلك فمن أراد المنزلة العُليا من الجنة فعليه أن يكون فى المنزلة العليا فى العبادة والدعوة إلى الله.

(٦) أن الإنسان لا يستطيع أن يفر من الموت ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1].

فقد صعد الملك بإدريس ليكلم ملك الموت فى أن إدريس يريد أن يعيش أكثر وإذا بملك الموت يخبره بأن الله قد أمره أن يقبض روحه الآن فى السماء الرابعة.

- ولذلك فالمسلم لا بد أن يكون على استعداد دائم للقاء الله (جل وعلا) وذلك بأن يُكثر من الأعمال الصالحة ويبتعد عن الذنوب والمعاصى .. فإذا وقع فى أى معصية فعليه أن يُسرع إلى التوبة ليتوب الله عليه.

(١) سورة النساء: الآية: (٧٨).

قصة نوح (عليه السلام)

لقد كان بين آدم ونوح (عليهما السلام) عشرة قرون كلها على التوحيد فلم يكن فى هذا الوقت على وجه الأرض مشرك واحد ولم يظهر الشرك إلا فى قوم نوح (عليه السلام).

فعن ابن عباس أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[1].

فكان أول من عبد الأصنام على هذه الأرض قوم نوح، وكان الناسُ قبلهم على عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار، لا يعرفون وثنية، ولا يعبدون أصنامًا.

ويشيرُ إلى صحة هذا قول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[2].

(١) رواه الحاكم (٣/ ٤٣٧)، وقال هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه.

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢١٣).

كيف بدأت قصة الشرك

كان هناك خمسة من الرجال الصالحين من أجداد قوم نوح (عليه السلام) وكانوا يُعلمون الناس الدين الحق ويدعونهم إلى عبادة الله (جل وعلا) ويساعدون الفقراء ويعطفون على اليتامى حتى أحبهم الناس وكانت لهم مكانة عالية بين قومهم فى ذلك الزمان.

وكانت أسماء هؤلاء الرجال الخمسة الصالحين هى:
(ودٌّ، سواع، يغوث، يعوق، نسرٌ).

* ومرت الأيام ومات هؤلاء الخمسة الصالحون فحزن الناس عليهم حزنًا شديدًا وقام بعضهم وأشار على من حوله فى أن يصنعوا تماثيل لهؤلاء الخمسة الصالحين على سبيل التكريم والذكرى ولينظروا إليهم فتكون عونًا لهم على طاعة الله.

* ومرت السنوات .. ومات هؤلاء الناس الذين نحتوا تلك التماثيل وجاء أبناؤهم ثم أحفادهم ونسجوا القصص والأساطير والحكايات حول هذه التماثيل وأصحابها وزيَّن لهم الشيطان ذلك وأوهم الناس أن هذه التماثيل آلهة تملك النفع والضر فبدأ الناس يعبدون تلك التماثيل فكان لابد فى هذه الفترة من إرسال رسول كريم يدعو الناس إلى التوحيد

وإلى ترك عبادة الأصنام .. فأرسل الله (عز وجل) إليهم رسولاً كريمًا هو نوح (عليه السلام).

طوق النجاة

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وَعمَّ البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه.

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

فلما بعث الله نوحًا عليه السلام، دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالاً وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.

لقد دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه، وتنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم

والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم[1].

فصبر جميل

* لقد عانى نوح (عليه السلام) من قومه أشد المعاناة فبينما هو يدعوهم إلى عبادة الله (جل وعلا) وإلى جنته التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وإذا بهم يصبون عليه الإيذاء صبًّا فلقد كانوا يدخلون عليه فى داره فيخنقونه حتى يُترك قعيدًا مُجْهدًا.. وكان يُضرب فى المجالس ويُطرد .. إلا أنَّ نوحًا كان لا يدع، على ما يُصنع به، أن يدعوهم ويقول: يا رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون[2].

* أما قومه فكانت دعوته لا تزيدهم إلا فرارًا منه، حتى إنه يكلم الرجل ويدعوه إلى الله، فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصابعه فى أذنيه لكيلا يسمع شيئًا من كلامه، فذلك قول الله تعالى: ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا

(١) قصص الأنبياء (ص: ٩٧، ٩٨).
(٢) فتح البارى (٦/ ٦٠١).

ثِيَابَهُمْ﴾[1]؛ ثم يقومون من المجلس، ويسرعون المشى يقولون: امضوا؛ فإنه كذاب .. اتركوه فإنه مجنون.

* اشتد البلاء على نوح -عليه السلام- وصبر صبرًا جميلاً، كان ينتظر القرن بعد القرن، والجيل بعد الجيل، فلا يأتى إلا وهو أخبث من الأول، وأعتى من سابقه، بل أشد وأسوأ، وأظلم وأطغى.

* **كان الرجل منهم يقول:** قد كان نوحٌ هذا مع آبائنا، ومع أجدادنا قبل آبائنا، فلم يزل هكذا مجنونًا - بزعمهم - ... ذكر الله تعالى ذلك فقال: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾[2].

* كان الرجل من قوم نوح إذا دنا أجله وحضرته الوفاة، أوصى أولاده وذويه وقال لهم: احذروا هذا المجنون .. فإنه قد حدثنى آبائى أن هلاك الناس على يدى هذا.

* كانوا كذلك يتوارثون هذه الوصية الخاوية بينهم، حتى إن الرجل منهم يحمل ولده على عاتقه، ثم يقف به على نوح فيقول: يا بنى، إن عشت ومُتُّ أنا فاحذر هذا

---

(١) سورة نوح: الآية: (٧).

(٢) سورة القمر: الآية: (٩).

الشيخ فإنه مجنون، ويكون هلاك الناس على يديه.

* وانضم إلى فريق المعاندين والمكذبين لنوح امرأته، وأخذت تسير في ركب الكافرين، وتدلى في دلوهم، وتكيل في ميزانهم[1].

حرصه على هداية قومه

لقد كان نوح حريصًا كل الحرص على هداية قومه وعلى نجاتهم من الهلاك وكان يرجو لهم كل الخير ولا ينتظر على ذلك أجرًا ولا ثناءً وإنما كان يبتغي الأجر من الله (جل وعلا).

وتأمل معي كيف كانت شفقته على قومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وفي الآية الأخرى: ﴿...إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[3].

فهي دعوة ممزوجة بالرحمة والشفقة.

ولقد حدد لهم غايته وهدفه من أول لحظة وهو أنه يريد أن

(١) نساء الأنبياء (ص٥٤، ٥٥) بتصرف.

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٥٩).

(٣) سورة هود: الآية: (٢٦).

يأخذ بأيديهم إلى عبودية الله ليكونوا عبادًا لله (جل وعلا).

إن أجرى إلا على الله

وكان نوح (عليه السلام) يضع الأمور في مواضعها الصحيحة فلا يعدهم بمالٍ أو جاهٍ وإنما يعدهم بالفوز بمغفرة الله ورضوانه.

قال لهم ذلك بكل وضوح: ﴿ولا أقولُ لكُمْ عندى خَزَائنُ اللَّهِ وَلا أعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أقولُ إنِّي مَلَكٌ وَلا أقُولُ للَّذين تَزْدَرِى أعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خيرًا اللَّهُ أعْلَمُ بمَا فِي أنفُسِهِمْ إنِّي إذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

* بل كان يُذكرهم دائمًا أنه لا يريد شيئًا من حُطام الدنيا الزائل حتى لا يظن واحد منهم أن نوحًا (عليه السلام) يريد الدنيا من وراء دعوته .. فكان يقول لهم: ﴿فإن تولَّيْتُمْ فما سألْتُكُم مِّنْ أجْرٍ إنْ أجْرِى إلاَّ عَلَى اللَّهِ وأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢)، وقال: ﴿ويا قومِ لا أسألكُمْ عليه مالاً إنْ أجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ وما أنا بطَارِدِ الَّذِينَ آمنوا إنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ولَكِنِّي أرَاكُمْ قومًا تَجْهَلُونَ﴾(٣).

(١) سورة هود: الآية: (٣١).
(٢) سورة يونس: الآية: (٧٢).
(٣) سورة هود: الآية: (٢٩).

دعوة للتأمل

وكان يدعوهم لأن يتأملوا آيات الله فى الكون ليؤمنوا بالله بل ويزدادوا إيمانًا كلما تأملوا أكثر وأكثر .. قال لهم : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[1].

وفى الحقيقة إن التأمل فى آيات الله فى الكون وفى الإنسان نفسه تجعل الإنسان يعرف قدر عظمة الله، ويقر له بالوحدانية ويعلم أنه أمام رب عظيم جليل يستحق أن نفرده بالعبادة وأن نعلم يقينًا أن مقاليد الكون كله فى يديه، وأنه لا نافع ولا ضار إلا هو (جل وعلا) فعندها نجد قلوبنا وأجسادنا تنقاد طوعًا لمحبته وعبادته ولسان حال كل واحد منا : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[2].

---

(١) سورة نوح : الآيات : (١٣ - ٢٠).

(٢) سورة طه : الآية : (٨٤).

لا يأس ولا قنوط

وراح نوح - عليه السلام- يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه، بلا مصلحة له، ولا منفعة؛ ويحتمل فى سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء .. ألف سنة إلا خمسين عامًا.. وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد، ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد! ثم عاد فى نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذى كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل! عاد يصف ما صنع وما لاقى.. وربه يعلم. وهو يعرف أن ربه يعلم ولكنها شكوى القلب المُتعَب فى نهاية المطاف، إلى الجهة الوحيدة التى يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان.. إلى الله[1]..

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[2].

(١) الظلال (٦/ ٣٧١٢).
(٢) سورة نوح: الآيات: (٥ - ٩).

ألف سنة إلا خمسين عامًا قضاها نوح عليه السلام فى الدعوة إلى الله دون كلل ولا ملل، وكلما أعرض قومه غيَّر وبدَّل في أسلوبه، وهذا يعنى أنه كان يحاسب نفسه، فإذا أعرض قومه عن الدعوة العلنية عاد يبلغهم الدعوة بصورة سرية، وفى جميع الحالات كان رحيمًا بهم خائفًا عليهم عذاب يوم أليم.

لقد كان نوح قمة فى الصبر، وآية من آيات الله فى الحلم والأناة وسعة الصدر، وفوق ذلك كله ما كان يرجو منهم أجرًا أو مكافأة، ولا كان يتخذ من الدعوة وسيلة لجمع المال وإحراز المكاسب.

فقلت استغفروا ربكم

* أخذ نوحٌ - عليه السلام - بعد هذا كله يدعو قومه ليلاً ونهارًا سرًا وعلانيةً، بدأ معهم طريق الدعوة بالنظر فى ملكوت الله، وفى إظهار آيات الله فى الكون .. دلهم على طريق النجاة .. وهو طريقٌ سهلٌ واضحٌ ينجو من سلكه من التهلكة، ويفوز مع الفائزين .. هذا الطريق عنوانه وبدايته الاستغفار .. هذا الطريق ثماره دانية القطوف فى الدنيا وفى

الآخرة.. فبالاستغفار يُرسل الله بركات من السماء إلى الأرض.. ويمدُّ المستغفرين بالأموال.. بالذرية.. وبالاستغفار يجعل الله لهم الجنّات.. ويجعل لهم الأنهار التي تروى تلك الجنات.. وتمدُّ الأرض بالحياة.

قال تعالى حاكيًا عن نوح: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾[١].

فهو يعدهم على الإيمان والتوحيد رزقًا حسنًا وحياة طيبة وكثرة فى المال والولد، وهذا منه ترغيب فى التوبة، أى: سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان، وستجدون الله توابًا رحيمًا ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[٢].

شكا رجلٌ إلى الحسن الجدوبة، فقال له: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر، فقال له: استغفر الله، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقنى ولدًا، فقال له: استغفر الله، وشكا له آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله، فقلنا

---

(١) سورة نوح: الآيات: (١٠ -١٢).

(٢) سورة النحل: الآية: (٩٧).

له في ذلك، فقال: ما قلت من عندي شيئًا إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ الآية[1][2].

موقف الملأ من قومه

لقد بذل نوح (عليه السلام) كل طاقاته من أجل هداية قومه فلامست دعوته الرحيمة قلوب الفقراء والضعفاء وداوت جراحهم وآلامهم وأحزانهم .. أما الأغنياء والكبراء والأقوياء فقد وقفوا من دعوته موقف عداء غريب بل وبدأوا يعلنون الحرب ضد نوح (عليه السلام)... ففي البداية اتهموه بأنه بشرٌ مثلهم: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾[3].

مع أن نوحًا (عليه السلام) لم يقل أنه من الملائكة...

(١) سورة نوح الآيات: (١٠، ١٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٦٧٨١) باختصار.
(٣) سورة هود: الآية: (٢٧).

لكنهم يبحثون عن أى حجة حتى لا يستجيبوا لدعوته وهى حيلة ماكرة للهروب من الحق.

* وكان الملأ والأكابر يظنون فى بداية الأمر أن دعوة نوح (عليه السلام) لن تستمر طويلاً بل سرعان ما تنطفئ وينصرف الناس عنه.

لكن كانت المفاجأة التى أذهلتهم أن دعوة نوح (عليه السلام) جذبت الضعفاء والفقراء - وهم دائمًا أتباع الأنبياء - فبدأوا بالهجوم على نوح (عليه السلام) وقالوا له: لم يتبعك إلا الفقراء والضعفاء والأراذل.

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[1].

مساومة مرفوضة

هنا ... لجأ الملأ والأكابر إلى مساومة عجيبة فقالوا لنوح (عليه السلام): إن أردت أن نؤمن لك وأن نتبعك فاطرد هؤلاء الفقراء والضعفاء الذين آمنوا معك فإننا لن نقبل أن نكون نحن وهم فى مكانة واحدة ونحن السادة والشرفاء والأكابر.

(١) سورة هود: الآية: (٢٧).

* وعلى الرغم من كل هذا العناد والكبر إلا أن نوحًا (عليه السلام) رد عليهم بكل رحمة وحنان ووضح لهم أنه على الحق وأنه يعرض عليهم هذا الحق بدون إكراه ولا يريد منه مالاً ولا جاهًا .. ولكنه في نفس الوقت لا يستطيع أن يطرد المؤمنين .. قال لهم: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾[1].

يا قوم إن الذين تقولون أنهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا، وليس لي عند الناس إلا أن يؤمنوا. إنني لا أطلب مالاً على الدعوة، حتى أكون حفيًّا بالأثرياء غير حفي بالفقراء، فالناس كلهم عندي سواء .. ومن يستغني عن مال الناس يتساوى عنده الفقراء والأغنياء.

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ﴾ عليه وحده دون سواه[2].

﴿ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[3] ..

فهناك الله. رب الفقراء والأغنياء. رب الضعفاء

---

(١) سورة هود: الآية: (٢٩).

(٢) الظلال (٤/ ١٨٧٣ ، ١٨٧٤) باختصار.

(٣) سورة هود: الآية: (٣٠).

والأقوياء. هناك الله يُقوِّم الناس بقيم أخرى.

ويزنهم بميزان واحد. هو الإيمان. فهؤلاء المؤمنون فى حماية الله ورعايته.

* ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

فها هو نوح (عليه السلام) يخبرهم أنه رسول من عند الله تعالى يدعو إلى عبادته سبحانه وحده لا شريك له ولا يسألهم أجرًا، وأنه يدعو من لقيه من شريف ووضيع فمن استجاب نجا، كما ليس له التصرف فى خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك بل هو بشر مرسل، ولا أقول عمن تحتقرونهم بأنهم لا ثواب لهم على أعمالهم .. الله أعلم بما فى أنفسهم فإن كانوا مؤمنين وباطنهم كظاهرهم فلهم جزاء الحسنى[2].

* * *

(١) سورة هود: الآية: (٣١).
(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤١).

وها هم يستعجلون العذاب

* وهنا بدأ الملأ من الأكابر يسأمون من دعوة نوح (عليه السلام): ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

* وكأنهم يقولون: يا نوح لقد سئمنا من مناقشتك وكلامك فأرسل علينا العذاب إن كنت من الصادقين.

فقال لهم نوح (عليه السلام): أنا لا أستطيع أن أعذبكم إنما أنا وظيفتى ومهمتى أن أدعوكم إلى الله (جل وعلا) فإن أبيتم إلا الكفر فالله وحده هو الذى يستطيع أن يذيقكم عذابه فى أى وقت شاء.

اتهموه بالضلال

فلما يئس هؤلاء الأكابر وانتهت حُجتهم لجأوا إلى سوء الأدب مع نبى الله نوح (عليه السلام).

(١) سورة هود: الآيات: (٣٢- ٣٤).

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(١) .

فرد عليه نوح (عليه السلام) ردًا بليغًا تفوح منه رائحة الأدب العظيم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) .

* قال لهم: أنا أعلم بمصلحتكم وأعلم بما يكفل لكم السعادة فى الدنيا والآخرة وأنا حريص كل الحرص على أن أنفعكم فأطيعونى لتسعدوا فى الدنيا والآخرة.

ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح

قد يبتلى الداعية بقومه وأصدقائه فيعانى منهم ما يعانى، لكنه إذا عاد إلى بيته وجد الراحة وطمأنينة النفس، وهذا الذى كان يلقاه خاتم الأنبياء ﷺ فى كنف خديجة رضي الله عنها.

أما نوح عليه السلام فقد ابتلاه الله بقومه وبأهل بيته.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا

(١) سورة الأعراف: الآية: (٦٠).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان: (٦١ ، ٦٢).

من الله شيئًا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾[1].

وكانت خيانة امرأة نوح لزوجها أنها كانت تنقل أخباره وأسراره لأعدائه، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، . . فهى خيانة فى الدين، وليس فى العرض لأن نساء الأنبياء معصومات من الزنى.

* كان من الطبيعى أن تكون امرأته من فصيلة المؤمنين به، ومن الذين يشدون أزره، ويساعدونه على المضى فى إبلاغ ما أمره الله به، لكنها كفرت وغلبت عليها شقوتها، وأغوت ابنها وجعلته يسلك سبيل المجرمين . . ويخالف والده نوحًا فى النية والعمل والدين.

* بدأت هذه المرأة الشقية رحلة السُّخرية بزوجها نوح الذى اختاره الله عز وجل رسولاً ونبيًا للناس، بل هو أول رسول أُرسل من عند الله سبحانه، وهو كذلك من أولى العزم من الرسل، ومع هذا كله كانت تناقش نوحًا وتحاوره فى أمور دينه بأسلوب يطفح بالاستهزاء والسخرية والانتقاص، وذلك أمام قومه الذين انبعثوا يقولون له: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا . .﴾[2].

(١) سورة التحريم: الآية: (١٠).
(٢) سورة هود: الآية: (٣٢).

صور من عصيانها

* كانت امرأةُ نوح تقول للناس عن زوجها نوح - عليه السلام - إنه مجنون، لا يعقل، يهذى بكلام لا يفهمه أحد .. ويتكلم عن أشياء غير ممكنة الحدوث وغير متوقعة، ويزعم أن الأصنام لا تضر ولا تنفع.

* كان إذا آمن أحد من قوم نوح وانضم إلى موكب الإيمان والنور، وسار مع ركب المؤمنين، انطلقت امرأة نوح وأخبرت به الجبابرة من قومها، وأصحاب الشر منهم، ليقوموا بتعذيبه وزجره، ثم يفتنونه عن دينه إن استطاعوا .. أو يقومون بغوايته وإضلاله فى سبل وطرق متنوعة[1].

رب لا تذر على الأرض من الكافرين دَيَّارًا

* لبث نوح - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله فى كل وقت، يمضى قرنٌ بعد قرن، فلا يستجيبون له، حتى مضى قرون ثلاثة على ذلك من حاله وحالهم، وتمادوا فى المعصية، وعظمت فى

(١) نساء الأنبياء (ص: ٥٥ ، ٥٦).

الأرض منهم الخطيئة، واشتد على نوح منهم البلاء، فلا يأتي زمنٌ إلا كان أخبث من الذي قبله، وظل نوح - عليه السلام - صابراً يتحمل أذاهم في سبيل الله عز وجل عسى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عمّا هم عليه من العناد والضلال والفساد والإفساد.

* وانطلق الكافرون يزيدون من عذابهم لنوح . . صاروا يضايقونه أكثر من قبل . . أعرضوا إعراضًا كاملاً . . ضربوه وهو يناجي ربه وهو ساجد في يوم من الأيام . .

بل ذكروا أن نوحًا - عليه السلام - بينما هو ساجد يومًا من الأيام، إذ مر به رجل من كفار قومه وعلى عنقه حفيد له، فقال الجد للحفيد محذراً وموصيًا:

يا بني هذا هو الشيخ الكذاب الذي دعانا إلى عبادة ربٍ لا نعرفه، وأوعدنا وعيداً بلا أمد، فاحذر منه حتى لا يضلك.

فقال الحفيد له: إذا كان على هذه الحالة فلِمَ تركتموه حيًا إلى الآن؟

فقال له الجد: وما كنا نصنع به؟

فقال الحفيد: أنزلني حتى ترى ما أصنع به . .

فأنزله جده، فأخذ صخرة وأهوى بها إلى رأس نوح فشجَّه[(١)].

فلما سمع نوح - عليه السلام - قول الحفيد، وحواره مع جده، ورأى فعلته التي فعل، علم إذ ذاك أن الحفيد أطغى وأخبث من الجد، فدعا في تلك السجدة، وتوجه إلى الله عز وجل فقال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[(٢)].

وها هو يصنع سفينة النجاة

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[(٣)].

لقد حزن نوح على استسلامهم للكفر وانقيادهم للشيطان بعد كل هذا الجهاد، وبعد كل هذا العناء، وبعد كل هذا التوجيه، والتنوير، والإنذار، والإطماع، والوعد بالمال والبنين والرخاء، بعد هذا كله كان العصيان، وأوحى

---

(١) تفسير القرطبي (٩/٤٦)، و(١٨/٣١٢) بشيء من التصرف.

(٢) سورة نوح: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٣) سورة هود: الآية: (٣٦).

الله إلى نبيه نوح ما قصَّه فى كتابه : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[(١)] .

فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه. هكذا أوحى الله إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممتنع، فلم يبق مجال للمضى فى دعوة لا تفيد. ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحدٍّ واستهزاء.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى: لا تحس بالبؤس والقلق، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذى كان منهم ... دع أمرهم فقد انتهى..

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[(٢)] برعايتنا وتعليمنا.

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[(٣)] .. فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم. فلا تخاطبنى فيهم .. لا دعاء بهدايتهم، ولا دعاء عليهم.

* ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

---

(١) سورة هود: الآية: (٣٦).

(٢)، (٣) سورة هود: الآية: (٣٧).

مَن يأتيه عَذابٌ يُخزيه ويَحِلُّ عَلَيْه عَذابٌ مُّقيمٌ ﴾ (١).

* بدأ نوح - عليه السلام - بتنفيذ أمر ربه فى اتخاذ الفلك - السفينة - ولم يكن لنوح ولا لغيره معرفة بصنع السفينة، لذا فقد أوحى الله إليه بطريقة صُنعها، وعلمه كيف ينبغى أن تكون، . . قال تعالى: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (٢).

* وشرع نوح - عليه السلام - يصنع الفلك تحت أمر الله ووحيه، وأعد العدة لذلك، وأخذ فى تنفيذ المهمة الربانية ويبدو أن امرأته كانت تراه وهو ينقل الأخشاب، ومن ثم يبدأ العمل فى صناعتها على شكل سفينة . . ولكن ليس قرب البحر، أو قرب نهر كبير، مما أثار دهشة امرأته واستغرابها، وراحت تسأله فى تهكم: ماذا تصنع بهذه الأخشاب يا نوح؟!

فقال نوح - عليه السلام -: سفينة أنجو بها ومن معى من المؤمنين إذا جاء أمرُ الله.

فقالت فى سخرية شديدة: وأين الماء الذى تجرى عليه سفينتك؟

* ويشارك ملأ الكفار فى السخرية بنوح كلما رأوه ينجزُ

---

(١) سورة هود: الآيتان: (٣٨، ٣٩).

(٢) سورة هود: الآية: (٣٧).

قسمًا من السفينة، كانوا يقولون له ساخرين متسافهين ضاحكين: يا نوح، صرت بعد النبوة نجارًا، إن هذا لشيء عُجاب!

ثم أسرفوا في استحضار السخرية، وفي التمادي والازدراء والهزء فقالوا: يا نوح، لو كنت صادقًا في دعواك لكان إلهك الذي تصفه لنا وتدعونا إليه يساعدك في هذا العمل، أو يغنيك عن هذا العمل الشاق، ألا ترى يا نوح أن هذا قمة الجهل؟!

ظل نوح - عليه السلام - يتابع عمله، ولا يعبأ بسخرية الساخرين، فلما أغرقوا في سخريتهم ورميهم إياه بالجهل قال لهم مُذكرًا: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[1][2].

قال: إن تسخروا منا لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص من العذاب، فإنا نسخر منكم لما أنتم فيه من الإعراض.

إن تسخروا منا في الدنيا، فإنا نسخر منكم في الدنيا والآخرة، في الدنيا عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق.

اليوم لكم فرح وغدًا ترح، اليوم حبرة وغدًا عبرة، اليوم لطف وغدًا أسف، اليوم لقاء وغدًا بكاء، يوم ينكشف المستور عن المحذور!

---

(١) سورة هود: الآية: (٣٨).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ٦٩ ، ٧٠) بتصرف.

لما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا، وأصبحوا لا يلدون إلا فاجرًا كفارًا، فلزم تطهير الأرض منهم، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان[١].

انتهى صنع السفينة، وجلس نوح عليه السلام، ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى، أوحى الله جل جلاله إلى نوح أنه إذا فار التنور فهذه علامة على بدء الطوفان، - التنور: الفرن الذى يُخبز فيه الخبز -. ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾[٢].

وجاء اليوم الرهيب، فار التنور، وأسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به، وهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض، وأمر الله نوحًا عليه السلام أن يأخذ معه فى السفينة ذكرًا وأنثى من كل كائن حى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾[٣].

فحمل نوح إلى السفينة من كل حيوان وطير ووحش



(١) أضواء البيان (٨/ ٤٤٢).

(٢)، (٣) سورة هود: الآية: (٤٠).

زوجين اثنين، بقرةً وثوراً، فيلاً وفيلة، عصفوراً وعصفورة، نمراً ونمرة، إلى آخر المخلوقات، لضمان بقاء نوع الحيوان والطير على الأرض، وبدأ صعود السفينة، فوضع نوح فى الدور الأسفل من السفينة الحيوانات والوحوش، واستقر هو والمؤمنون فى الدور الأوسط، أما الطيور فقد استقرت فى الدور الثالث، وكان عدد المؤمنين قليلاً. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[(١)].

لم تكن زوجة نوح مؤمنة بالله فلم تصعد معه إلى السفينة، وكان أحد أبنائه يُخفى كفره ويُبدى الإيمان أمام أبيه نوح عليه السلام، فلم يصعد هو الآخر، وكانت أغلبية الناس غير مؤمنة هى الأخرى، فلم تصعد، وصعد المؤمنون... قال ابن عباس رضي الله عنهما: آمن من قوم نوح ثمانون إنسانًا[(٢)].

فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر

ويصور الله (عز وجل) لنا هذا المشهد المهيب عندما قام نوح (عليه السلام) يرفع أكُفَّ الضراعة إلى الله (عز وجل).

(١) سورة هود: الآية: (٤٠).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٥٦، ٥٧).

* ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[1].

وكأنه يقول لربه (عز وجل) بلسان الحال: انتهت طاقتى . . . انتهى جهدى، انتهت قوتى، وغُلبت على أمرى ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ انتصر أنت يا ربى. انتصر لدعوتك، انتصر لحقك انتصر لمنهجك انتصر أنت فالأمر أمرك، والدعوة دعوتك، وقد انتهى دورى!

وما تكاد هذه الكلمة تُقال، وما يكاد الرسول يسلم الأمر للواحد القهار، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة . . فتدور دورتها المدوية المجلجلة: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[2] . . والتقى الماء المنهمر بالماء المتفجر من الأرض . . ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ . . التقيا على أمر مقدر.

ارتفعت المياه من فتحات الأرض، انهمرت من السماء أمطار غزيرة

(١) سورة القمر: الآية: (١٠).

(٢) سورة القمر: الآيتان: (١١، ١٢).

بكميات لم تَر مثلها الأرض، فالتقت أمطار السماء بمياه الأرض، وصارت ترتفع ساعة بعد ساعة، فقدت البحار هدوءها، وانفجرت أمواجها تجور على اليابسة، وتكتسح الأرض، وغرقت الكرة الأرضية للمرة الأولى فى المياه.

وكتب الله النجاة للمؤمنين

* نجا المؤمنون جميعهم عندما صعدوا السفينة، ووقاهم الله شر ذلك الطوفان، وجعل لهم ودًا، وغرق الكافرون الساخرون وأهلكهم الله عز وجل .. فإذا الصمت يخيم.. لا حس ولا حركة، ولا صوت للكافرين.

لم يبق إلا صوت هدير الماء، وتوحيد المؤمنين من على السفينة، يُسبحون بحمد ربهم .. فقد انتصر طوفان الإيمان على طغيان الكفر وعلى طوفان الفسق والسخرية.

* ارتفعت السفينة فوق الماء، وعلا الموج، وغطى الأرض، فغدت كرة من الماء، لم تعد كرة أرضية طيلة فترة الطوفان، لقد تجاوز الماء وطغى على كل شيء حتى رؤوس الجبال الشاهقات.

* غرقت امرأة نوح، لم تركب مع المؤمنين فى السفينة ظنت أن بيتها يمنعها من الماء ويحميها من هديره، لكن لا عاصم اليوم من أمر الله.

* وأصبحت قصة امرأة نوح مثلاً . . اقرأ معى قول البارى جل وعلا: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[1].

يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين

وأما نوح (عليه السلام) فإنه لما ركب السفينة وأدخل فيها المؤمنين وأهله - كما أمره الله - وإذا به يرى ابنه (يام) (ويقال له: كنعان) فى جهة خارج السفينة فأخذ يناديه لعله يلحق بقافلة المؤمنين.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ

(1) سورة التحريم: الآية: (10).

مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[١] .

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ : أنهى الموج حوارهما فجأة، نظر نوح فلم يجد ابنه، لم يجد غير جبال الموت التى ترتفع وترفع معها السفينة، وتفقدها رؤية كل شيء غير المياه، وشاء الله أن يغرق الابن بعيداً عن عين الأب، رحمة منه بالأب، واعتقد نوح أن ابنه مؤمن، وتصور ابنه أن الجبل سيعصمه من الماء، فغرق ولم يعلم أنه من الكافرين.

واستمر الطوفان، استمر يحمل سفينة نوح، وبعد ساعات من بدايته، كانت كل عين تطرف على الأرض قد هلكت غرقًا، لم يعد باقيًا من الحياة والأحياء غير هذا الجزء الخشبى من سفينة نوح، وهو ينطوى على الخلاصة المؤمنة من أهل الأرض، وأنواع الحيوانات والطيور التى اختيرت بعناية[٢] .



(١) سورة هود: الآيتان: (٤٢، ٤٣).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٥٨).

بُعدًا للقوم الظالمين

لقد استمر هذا الطوفان مدة من الزمان لا نعرفها ثم أمر الله (جل وعلا) السماء أن تكف عن المطر وأمر الأرض أن تستقر وتبتلع الماء ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾[1].

ثم أوحى الحق (جل وعلا) إلى أخشاب سفينة نوح (عليه السلام) أن ترسو على جبل الجودى.

﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أى: ابتلعته الأرض فى جوفها وغار من سطحها.

وقيل: إن نوحًا عليه السلام ومن معه ركبوا السفينة فى عاشر شهر رجب، فساروا فيها مائة وخمسين يومًا واستقرت بهم على الجودى شهرًا وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم[2].

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بُعدًا لهم من الحياة فقد ذهبوا.. وبعدًا لهم من رحمة الله فقد لعنهم الله.. وبُعدًا لهم من الذاكرة فقد انتهوا بعد ما طهر الطوفان الأرض منهم وغسلها.

---

(١) سورة هود: الآية: (٤٤).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦، ٤٤٧).

يا نوح إنه ليس من أهلك

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده وسؤاله عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾(١).

أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي وإن وعدك الحق الذي لا يُخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾(٢) أي: ليس من أهلك الذين وعدتُ إنجاءهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾(٣) فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه عليه الصلاة والسلام(٤).

* ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(٥) أي: إن عمله شيء غير صالح وقد انقطعت العروة والصلة التي بينك وبينه فلا رابطة بعد ذلك ولا صلة.

---

(١) سورة هود: الآية: (٤٥).
(٢) سورة هود: الآية: (٤٦).
(٣) سورة المؤمنون: الآية: (٢٧).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦).
(٥) سورة هود: الآية: (٤٦).

﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[(١)(٢)].

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زلَّ فى حق ربه، فيلجأ إليه، يعوذ به، ويطلب غفرانه ورحمته: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[(٣)].

وأدركت رحمة الله نوحًا، تطمئن قلبه، وتباركه هو والصالح من نسله، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم[(٤)].

يا نوح اهبط بسلام

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٥)].

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودى من السلام عليه وعلى من معه من

---

(١) سورة هود: الآية: (٤٦).

(٢) قال فى التسهيل (٢/١٠٦): وليس فى ذلك وصفٌ له بالجهل بل فيه ملاطفة وإكرام.

(٣) سورة هود: الآية: (٤٧).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦).

(٥) سورة هود: الآية: (٤٨).

المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة.

دخل فى هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك فى العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة(١).

وصية نوح (عليه السلام)

وهبط نوح عليه السلام من سفينته، وأطلق سراح الطيور والوحوش فتفرقت فى الأرض، نزل المؤمنون بعد ذلك، لتبدأ حياة جديدة فوق أرض جديدة، بعد زوال الكفر والطغيان، حياة يملؤها النور ويملؤها الإيمان.

ولا ندرى كيف استكمل نوح عليه السلام حياته على الأرض، ولكنه عاش نبيًا رسولاً، يُعلِّم من نجا معه من المؤمنين ويربيهم ويعظهم، حتى أتاه الموت، وكانت وصيته الخاتمة.... قال رسول الله ﷺ: «إن نبى الله نوحًا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاصٌّ عليك وصية: آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وُضعت فى كفة ووُضعت

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٤٤٦).

لا إله إلا الله فى كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُن حلقة مُبهمة ضمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شيء، وبها يُرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر»[1].

* وهكذا عاش نوح (عليه السلام) على التوحيد.. ودعا قومه إلى التوحيد.. ومات وهو يوصى ابنه أن يعيش وأن يموت على التوحيد.

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن الغلو فى الصالحين قد يقود الناس إلى الوقوع فى الشرك بالله (جل وعلا).

(٢) أن الداعية لابد أن يدعو قومه باللين والرحمة وأن يصبر معهم صبرًا طويلاً ولا يمل.

(٣) الدعوة إلى التوحيد هى أساس كل دعوة جاء بها الرسل والأنبياء.

(٤) على الداعية أن يُذكر الناس بنعم الله عليهم حتى

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٦٥٤٧)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٣٤).

يستميل قلوبهم إلى الإيمان بالله.

(٥) أن الداعية لابد أن يجعل دعوته خالصة لوجه الله لا يريد من ورائها مالاً ولا شهرة ولا جاهًا.

(٦) أن الاستغفار يفتح لك أبواب الخير فى الدنيا والآخرة - بإذن الله-.

(٧) أن أتباع الأنبياء دائمًا هم القلة المؤمنة الضعيفة الصابرة لكنهم عند الله أعلى الخلق قدرًا ومقامًا.

(٨) أن رابطة الإيمان هى التى تجمع الناس .. ولذا فقد رأينا كيف أن امرأة نوح وابنه لم يركبا مع نوح (عليه السلام) فى السفينة لكفرهما.

(٩) أن الصبر مفتاح الفرج.

(١٠) أن المؤمن يجب أن ينفذ أمر الله حتى ولو لم يعرف الحكمة من وراء ذلك ... فقد رأينا كيف أن نوحًا (عليه السلام) بنى السفينة فى الصحراء ونفذ أمر الله ولم يسأل عن الحكمة من وراء ذلك فنصره الله ونجاه.

(١١) أن المسلم لا بد أن يحرص على أن يوصى أولاده بأن يتمسكوا بدينهم وأن يثبتوا على الإيمان والتوحيد.

قصة هود (عليه السلام)

عندما نجَّى الله (جل وعلا) نوحًا (عليه السلام) ومن آمن معه من المؤمنين عاشوا زمانًا على التوحيد والإيمان ولم يكن بينهم كافر واحد.

لقد شاهدوا كيف نجاهم الله من الطوفان فازدادوا شكرًا لله وعاشوا على طاعته بل كانوا يُعلمون أولادهم الإيمان والتوحيد حتى ينشأوا فى طاعة الله (جل وعلا).

* ولكن بعد مرور السنوات الطويلة وموت الآباء والأجداد نسى الأحفاد وصايا الآباء والأجداد ونسوا وصايا نبى الله نوح (عليه السلام).

فكثرت المعاصى وازداد الأمر سوءًا فلقد عاد الناس مرة أخرى إلى الشرك وعبادة الأصنام بعد أن زيَّن لهم الشيطان فعل ذلك.

* فلقد قال أحفاد قوم نوح (عليه السلام): لا نريد أن ننسى آباءنا الذين نجاهم الله من الطوفان وتعالوا نصنع لهم تماثيل لنذكرهم بها.

* ولم يعبدوها فى بداية الأمـر ولكن ظل الأمر يتطور يومًا بعد يوم حتى وقعوا فى عـبادة الأصنام والتماثيل مرة أخرى وعاد الظلام والشرك إلى الأرض مرة أخرى.

* فأرسل الله (جل وعلا) إلى هؤلاء القوم نبيه هودًا (عليه السلام) ليأخذ بأيديهم إلى الإيمان والتوحيد مرة أخرى.

من هو هود (عليه السلام)؟

كان هود (عليه السلام) من قبيلة يقال لها (عاد) وكانوا عُربًا يسكنون الأحـقاف - وهى: جبـال الرمل - وكانت باليمن بين عـمان وحضـرموت بأرض مُطلة على البـحر وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام.

حياة الرغد والرفاهية

أقامت عاد بالأحـقاف - ما بين اليمن وعُمَـان - فترة من الزمن فى رغدٍ مـن الحياة. حـباهم الله نعمًـا وافرة، وخـيرات جليلة، فـفـجروا العـيون، وزرعـوا الأرض، وأنشأوا البسـاتين، وشادوا القصور، ومنـحهم فوق ذلك

بسطة في أجسامهم، وقوة في أبدانهم، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين، ولكنهم لم يُفكروا في مبدإ هذا الخلق ولم يحاولوا التعرف على مصدر هذه النعم. وغاية ما وصلت إليه عقولهم، وارتاحت إليه طباعهم أن اتخذوا أصنامًا لهم آلهةً، يتوجهون إليها بالشكر كلما وقعوا على خير، ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضُر.

ثم إنهم بعد ذلك عثوا[1] في الأرض، فأذل القوى منهم الضعيف، وبطش الكبير بالصغير، فأراد الله هداية للأقوياء، وتمكينًا للضعفاء، وتهذيبًا للنفوس مما ران[2] عليها من الجهل، أن يرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، يحدثهم بلغتهم، ويخاطبهم بأسلوبهم، ويرشدهم إلى خالقهم، ويُبين لهم سفاهة عبادتهم، رحمة منه، وكرمًا[3].

---

(١) عثوا: عثا: أفسد، وبالغ في الفساد أو الكبر، أو الكفر.

(٢) ران: الران: الدَّنس، والغطاء، والحجاب الكثيف. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، أي: غلب عليهم حُبُّ المعاصي، وقست قلوبهم لاقتراف الذنب بعد الذنب، وصار صدأ على قلوبهم، فعمَّى عليهم معرفة الحق من الباطل.

(٣) قصص القرآن/ مجموعة من العلماء (ص: ٥٠، ٥١).

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره

ولما ملأ ركام الجاهلية أرجاء الأرض أراد الحق (جل وعلا) أن يطهر الأرض من دنس الشرك والكفران وأن يرد الناس إلى أنوار التوحيد والإيمان فأرسل إلى قوم عاد هودًا (عليه السلام) وكان رجلاً منهم من أوسطهم نسبًا وأكرمهم خُلقًا وأرجحهم عقلاً وأرحبهم صدرًا فاختاره الله (عز وجل) ليكون أمين رسالته وصاحب دعوته عسى أن تهتدى به العقول الضالة وأن تستقيم به القلوب الحائرة.

فجاءهم هود (عليه السلام) يصدع بكلمة التوحيد ويدعوهم إلى عبادة الله الملك الحق المستحق بأن تُفرده بالعبادة فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١).

يا قوم! ما هذه الأحجارُ التى تنحتونها، ثم تعبدونها، وتلجؤون إليها؟! ما خطرها؟ وما نفعها؟ وما ضررها؟ إنها لا تجلب لكم نفعًا، ولا تدفع عنكم شرًا، إن هذا إلا احتقار لعقولكم، وامتهان لكرامتكم، ولكن هناك إلهًا واحدًا حقيقًا بأن تعبدوه، وربًا جديرًا بأن تتوجهوا إليه، هو الذى خلقكم

(١) سورة الأعراف: الآية: (٦٥).

ورزقكم، وهو الذى أحياكم، وهو الذى يميتكم.

مكَّن لكم فى الأرض، وأنبت الزرع، وبسط لكم فى الأجسام، وبارك لكم فى الأنعام، فآمنوا به، واحذروا أن تعموا عن الحق، أو تُكابروا فى الله، فيصيبكم ما أصاب قوم نوح، وما عهدهم منكم ببعيد.

قال ذلك هود؛ وهو يرجو أن تصل كلماته إلى أعماق نفوسهم فيؤمنوا، أو تنفذ إلى عقولهم فيفكروا ويهتدوا[1].

عنادٌ واستكبار

ومع كل ما بذله هود (عليه السلام) من أجل هداية قومه إلا أنهم استكبروا ورفضوا أن يدعوهم واحد منهم واتهموه بالسفاهة والكذب.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[2].



(١) قصص القرآن/ مجموعة من العلماء (ص: ٥١، ٥٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٦٦).

هكذا جُزافًا بلا تدبر ولا دليل!

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[١].

لقد نفى عن نفسه السفاهة في بساطة وصدق - كما نفى عن نفسه الضلالة - وقد كشف لهم - كما كشف نوح من قبل - عن مصدر رسالته وهدفها، وعن نصحه لهم فيها وأمانته في تبليغها. وقال لهم ذلك كله في مودة الناصح وفي صدق الأمين.

ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا - كما عجب قوم نوح من قبل - من هذا الاختيار، ومن تلك الرسالة، فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل، كأنما كلاهما روح واحدة في شخصين: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[٢][٣].

إنها دعوة خالصة

ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة، فليس له من ورائها هدف، وما يطلب على النصح والهداية أجرًا.

(١) سورة الأعراف: الآيتان: (٦٧، ٦٨).
(٢) سورة الأعراف: الآية: (٦٩).
(٣) الظلال (٣/ ١٣١٠، ١٣١١).

إنما أجره على الله الذى خلقه فهو به كفيل: ﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

* وهنا تشعر أن قوله: ﴿ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنه يبتغى أجرًا أو كسب مال من وراء الدعوة التى يدعوها. وكان التعقيب: ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ للتعجب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولاً من عند الله يطلب رزقًا من البشر، .. والله الذى أرسله هو الرزاق الذى يرزق هؤلاء الفقراء![2].

* وهذا هو شأن الرسل والأنبياء جميعًا فهم لا يريدون دنيا ولا جاهًا ولا وزارة وإنما هدفهم الأوحد والأسمى هو أن يأخذوا بأيدى الناس جميعًا إلى عبادة الله (عز وجل).

وها هو يُذكرهم بنعم الله (جل وعلا)

وبدأ هود (عليه السلام) يخاطب عقولهم وقلوبهم ويُذكرهم بنعم الله عليهم .. تلك النعم التى لا تُعد ولا تُحصى فقال لهم: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ

---

(١) سورة هود: الآية: (٥١).

(٢) الظلال (٤/ ١٨٩٦، ١٨٩٧).

وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[1] ، فلقد كان من حق هذا الاستخلاف ، وهذه القوة والبسطة ، أن تستوجب شكر النعمة ، والحذر من البطر والكفر .

* وها هو يُذكرهم مرة أخرى بنعم الله كما أخبر بذلك الحق (جل وعلا) : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون (١٢٨) وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١٢٩) وإذا بطشتم بطشتم جبارين (١٣٠) فاتقوا الله وأطيعون (١٣١) واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون (١٣٢) أمدكم بأنعام وبنين (١٣٣) وجنات وعيون (١٣٤) إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[2] .

* ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنيانًا محكمًا هائلاً باهرًا لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع للزمان ، وإتعاب للأبدان ، واشتغال بما لا يُجدي في الدنيا ولا في الآخرة[3] ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم

(١) سورة الأعراف : الآية : (٦٩) .
(٢) سورة الشعراء : الآيات : (١٢٨ - ١٣٥) .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥٣) .

تَخْلُدُونَ﴾ أى وتتخذون قصوراً مشيدة محكمة ترجون الخلود فى الدنيا كأنكم لا تموتون؟ ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أى: وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رأفة أو رحمة، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أى: خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمرى[(١)].

وأخذ يُذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتطاولون ويتجبرون، وكان الأجدر بهم أن يتذكروا فيشكروا، ويخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم، وأن يعاقبهم على ما أسرفوا فى العبث والبطش والبطر الذميم!

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)].

* ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهى النعم المعهودة فى ذلك العهد، وهى نعمة فى كل عهد .. ثم يخوفهم عذاب يوم عظيم. فى صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب. فهو أخوهم، وهو واحد منهم، وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذى لا شك فيه[(٣)].

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٣٨٩).

(٢) سورة الشعراء: الآيات: (١٣٢ - ١٣٥).

(٣) الظلال (٥/ ٢٦١٠).

وها هو يحضهم على التوبة والاستغفار

* بل وأخذ هود (عليه السلام) يُطمعهم في المزيد من نعم الله فأخذ يحضهم على التوبة من عبادة الأصنام وعلى التوجه إلى عبادة الرحمن (جل وعلا) وظل يُرغبهم في الاستغفار ليتوب الله عليهم ويُديم عليهم النعم التي يعيشون في ظلها بل ويزيدهم عليها أضعافًا كثيرة فقال لهم: ﴿ويَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[1].

﴿ويَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يرسل عليكم المطر غزيرًا متتابعًا.

روى أن عادًا كان حُبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون، فأمرهم هودٌ بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر، . . . في الآية دليل على أن التوبة والاستغفار، سببٌ للرحمة ونزول الأمطار ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي: ويزدكم عزًا وفخارًا فوق عزكم وفخاركم،

(١) سورة هود: الآية: (٥٢).

وشدة إلى شدتكم، ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أى: لا تُعرضوا عما أدعوكم إليه مُصرين على الإجرام، وارتكاب الآثام (١).

لم ينتفعوا بأى موعظة

وعلى الرغم من كل هذا فإنهم لم ينتفعوا بأىِّ موعظة لأن الله ختم على قلوبهم فلم تعد تشعر بقيمة الحق الذى جاء به هود من عند الحق (جل وعلا).

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٢).

أى: يستوى عندنا تذكيرك لنا وعدمه، فلا نبالى بما تقول ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٣).

---

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٢٠).
(٢) سورة الشعراء: الآيات: (١٣٦ - ١٣٨).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٢).

* بل إنهم ذكروا العلة فى عدم استجابتهم لهود (عليه السلام) فى أنه بشرٌ مثلهم وهم يريدون من الله أن يُرسل إليهم ملكًا رسولاً.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾[١].

وها هم ينكرون البعث

وظلوا راسخين فى غيهم وضلالهم حتى وصل بهم الأمر إلى إنكار البعث والحساب والجزاء فقالوا: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

هكذا كذب قوم هود نبيهم، قالوا له: هيهات، هيهات، واستغربوا أن يبعث الله مَن فى القبور، استغربوا

(١) سورة المؤمنون: الآيتان: (٣٣، ٣٤).
(٢) سورة المؤمنون: الآيات: (٣٥-٣٨).

أن يعيد الله خلق الإنسان بعد تحوله إلى التراب، رغم أنه خلقه من قبل من التراب.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه

لم تكن دعوة هود (عليه السلام) مصحوبة بمعجزة ليراها قومه فبدأ هؤلاء العُتاة مرحلة جديدة من الجدال والاستكبار فطلبوا من هود (عليه السلام) أن يأتيهم بمعجزة ليصدقوه وإلا فهم لن يتركوا آلهتهم لمجرد كلمات يسمعونها منه (عليه السلام).

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: ما جئتنا بحجة واضحة تدل على صدقك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك، .. ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا: ﴿إن

(١) سورة هود: الآية: (٥٣).

نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[1] أي: ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لما سببتها ونهيتنا عن عبادتها.

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أي: قال هود إني أُشـهدُ الله على نفسي ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ﴾[2] أي: وأشهدكم أيضًا أيها القـوم بأنني بريءٌ مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ أي: فاحتالوا في هلاكي أنتم وآلهتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾[3] أي: إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾[4] أي: ما من نسمـة تدبُّ على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره (جل وعلا).

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5] أي: إن ربي عادل، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإسـاءته، لا يظلم أحدًا شيئًا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾[6] أي: فإن تعـرضوا عن

---

(١) سورة هود: الآية: (٥٤).
(٢) سورة هود: الآيتان: (٥٤، ٥٥).
(٣)، (٤)، (٥) سورة هود: الآية: (٥٦).
(٦) سورة هود: الآية: (٥٧).

قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[1] أي: فسوف يهلككم الله ويستخلف قومًا آخرين غيركم، . . . وهذا وعيدٌ شديد ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾[2] أي: لا تضرون الله شيئًا بإشراككم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[3] أي: إنه سبحانه رقيبٌ على كل شيء، وهو يحفظني من شركم ومكركم[4].

وها هم يستعجلون العذاب

وظل هود (عليه السلام) يدعوهم إلى الله (عز وجل) بلا يأس ولا قنوط وظل ينصحهم ويحدوهم إلى التوبة مما هم فيه من الشرك والكفران ليدخلوا إلى جنة التوحيد والإيمان.

ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر.. وهكذا أخذت الملأ العزة بالإثم، واستعجلوا العذاب: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[5].

---

(١)، (٢)، (٣) سورة هود: الآية: (٥٧).

(٤) صفوة التفاسير (٢/٢١).

(٥) سورة الأعراف: الآية: (٧٠).

* بل ويخبر الحق (جل وعلا) - فى آية أخرى - عن عتوهم وتكبرهم واستعجالهم العذاب فيقول: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(١).

- وهنا وصل هود (عليه السلام) مع هؤلاء العُتاة إلى طريقٍ مسدود فلقد حق عليهم العذاب وآن الأوان لكى يعرف الكون كله عاقبة هؤلاء الكافرين المكذبين.

وحان وقت الهلاك

وجاءت اللحظة الحاسمة لإهلاك أمة من الأمم التى عتت عن أمر ربها واستكبرت وأبت أن تقبل الحق الذى جاء به نبيها من عند الحق (جل وعلا).

* قام هود يدعو ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(٢).

(١) سورة فصلت: الآية: (١٥).

(٢) سورة المؤمنون: الآيات: (٣٩ - ٤١).

* وقال تعالى فى موضع آخر: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ (١).

وفي كلمتين اثنتين ينتهي الأمر؛ ويُطوى قوم عاد الجبارون؛ وتُطوى مصانعهم التى يتخذون، ويُطوى ما كانوا فيه من نعيم، من أنعام وبنين وجنات وعيون!

تفاصيل هلاكهم

لما رفض قوم عاد أن يتركوا عبادة الأصنام وأن يعبدوا الله (جل وعلا) بل وسخروا من نبي الله هود (عليه السلام) واستعجلوا نزول العذاب أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين وبدأ الجفاف ينتشر فى الأرض فلم تعد السماء تُمطر قطرة واحدة.

فأسرع قوم عاد إلى هود (عليه السلام) ليسألوه: ما هذا الجفاف؟! فأخبرهم أن الله قد غضب عليهم وسيُنزل عليهم العذاب إلا إذا تابوا وعادوا إلى الله وتركوا عبادة الأصنام ..

فسخروا من هود (عليه السلام) وازدادوا عنادًا وسخرية وكفرًا.

* وكان الجفاف يزداد يومًا بعد يوم حتى اصفرت الأشجار

---

(١) سورة الشعراء: الآية: (١٣٩).

الخضراء ومات الزرع وكاد الناس أن يهلكوا جميعًا.

* وكان الناس قد تعودوا أنهم إذا حدث عندهم قحط وجدب فإنهم يذهبون إلى الحرم - بمكة - فيطلبوا الفرج من الله (جل وعلا)- فأرسلت عادٌ وفدًا من سبعين رجلاً ليذهبوا إلى الحرم ويسألوا الله أن يرسل عليهم المطر حتى تعود الحياة مرة أخرى.

* وذهب الوفد إلى الحرم وكان العماليق مقيمين هناك وكان سيدهم اسمه معاوية بن بكر فنزلوا عنده شهرًا كاملاً يشربون الخمر ويستمعون الغناء من جاريتين عند معاوية بن بكر.. فلما طالت مدة إقامتهم عند معاوية أراد أن يخبر القوم بأنهم لابد أن يعودوا إلى قومهم حتى لا يموتوا من شدة الجدب.. فكتب أبياتًا من الشعر ليفهموا من خلالها أنهم لا بد أن يرجعوا إلى قومهم وجعل الجاريتين تغنيان بعض الأبيات الشعرية.

* فعند ذلك تذكر الوفد أنهم لا بد أن يذهبوا الآن إلى الحرم ليسألوا الله أن يرسل عليهم المطر.

فقام واحد منهم اسمه (قيل بن عنز) فدعا فجاءت ثلاث سحابات: سحابة بيضاء وأخرى حمراء والثالثة سوداء.

ثم ناداه منادٍ من السماء: اختر لنفسك ولقومك سحابة من هذا السحابِ، فاختار السحابة السوداء ظنًا منه أنها

أكثر السحاب ماءً.

فناداه هذا المنادي وقال: لقد اخترت الدمار لقومك فلن يبقى منهم أحد أبدًا.

وسارت السحابة السوداء إلى قوم عاد فلما رأوها استبشروا أن يكون فيها الماء ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[1]، فلم تترك شيئًا أمامها إلا دمرته.. وكانت أول من رأت هذا الدمار امرأة اسمها فهد فلما رأت هذا الدمار صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا لها: ماذا رأيت، قالت: رأيت ريحًا فيها شُهب النار.

فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعات فلم تدع أحدًا من قوم عاد إلا أهلكته.

تغير الجو فجأة، من الجفاف الشديد والحر إلى البرد الشديد القارس، بدأت الرياح



(١) سورة الأحقاف: الآيتان: (٢٤، ٢٥).

تهب، اهتز كل شيء، اهتزت وتزلزلت الأشجار والنباتات والرجال والنساء والخيام، واستمرت الريح، ليلة بعد ليلة، ويومًا بعد يوم، كل ساعة كانت برودتها تزداد، وبدأ قوم هود يفرون، أسرعوا إلى الخيام واختبؤوا داخلها، اشتد هبوب الرياح واقتلعت الخيام واختبؤوا تحت الأغطية، فاشتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية، كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ من فتحات الجسم وتدمره، لا تكاد الريح تمس شيئًا إلا قتلته ودمرته، وجعلته كالرميم.

استمرت الرياح مُسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام لم تر الدنيا مثلها قط، ثم توقفت الريح بإذن ربها.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا



عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(١).

وقال عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾(٢).

لم يعد باقيًا من قوم هود إلا ما يبقى من النخل الميت، مجرد غلاف خارجي لا تكاد تضع يدك عليه حتى يتطاير ذرات في الهواء(٣).

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾(٤).

نجاة هود (عليه السلام) والمؤمنين

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

(١) سورة الأحقاف: الآيتان: (٢٤، ٢٥).
(٢) سورة القمر: الآيات: (١٨ - ٢٠).
(٣) ابن الإسلام (ص: ٦٩، ٧٠).
(٤) سورة الحاقة: الآيات: (٦ - ٨).

بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[1].

لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد، وإهلاك قوم هود، نجينا هودًا والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم، واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء. وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حلَّ بالمكذبين.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[2].

* وهكذا تكون العاقبة الطيبة دومًا للمؤمنين... ويكون الدمار والهلاك للمجرمين والكافرين الذين يكفرون برب العالمين (جل وعلا).

* وهكذا طُويت صفحة من صفحات الأمم الكافرة فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ونصر عباده المؤمنين ونجاهم من العذاب الذى سلطه على تلك الأمة العاتية ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[3].

(١) سورة هود: الآية: (٥٨).
(٢) سورة هود: الآيتان: (٥٩، ٦٠).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٢١).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن الناس قد يستغنوا عن الطعام والشراب لمدة أيام لكن الواحد منهم لا يستغنى عن الله طرفة عين ولذلك أرسل الله الرسل والأنبياء للناس ليأخذوا بأيديهم إلى الله (جل وعلا) . . ولما كان النبى محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء فقد جعل الله ورثة الأنبياء من الدعاة والعلماء هم الذين يحملون مشعل الهداية إلى الناس بعد موت النبى محمد ﷺ .

(٢) أن الإنسان قد يصيبه الكبر والغرور بسبب الترف والثروة والصحة . . وهى كلها من نعم الله عليه فكان ينبغى أن يقابلها بالشكر وليس بالكبر والبطر.

(٣) أن ميزان الرجولة الحقيقية هو الإيمان والتقوى والعلم والفهم وليس ميزان الرجولة بالقوة والثروة والمكانة الاجتماعية.

(٤) أن المسلم لا ينبغى أن يغضب لنفسه وإنما يغضب لله (جل وعلا) فقد رأينا كيف أن قوم عاد لما قالوا لهود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[1] قال لهم: ﴿يَا

(١) سورة الأعراف: الآية: (٦٦)

قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] ولم يرد عليهم بكلمة بذيئة لأنه نبى كريم (عليه السلام).

(٥) التوحيد هو القضية الأولى التى جاء بها كل الرسل والأنبياء.

(٦) أن الاستغفار له ثمرات عظيمة فهو سبب مغفرة الذنوب وسبب لفتح أبواب البركة فى السماء والأرض ولذلك دعا هود قومه لأن يتوبوا ويستغفروا.

(٧) الداعية لا ييأس إذا لم تنجح دعوته من أول جولة بل عليه أن يعيد الدعوة مرة بعد مرة عسى الله أن يفتح بكلامه قلوبًا مغلقة فتعود إلى خالقها وبارئها (جل وعلا).

(٨) أن من توكل على الله فهو حسبُه وهو ناصره .. فقد رأينا كيف أن نبى الله هود (عليه السلام) وقف وحده أمام أمة عاتية متجبرة ولم يخف منهم لأنه توكل على الله (جل وعلا) وهو على يقين من أن الله سينصره عليهم لا محالة.

(١) سورة الأعراف: الآية: (٦٧).

(٩) أن الإنسان قد يقول كلمة تجلب له غضب الله وسخطه وعذابه.

وقد رأينا كيف أن قوم عاد هم الذين طلبوا العذاب واستعجلوه فجاءهم فلم يُبق منهم أحدًا.

(١٠) عاقبة الذنوب وخيمة، وآثارها مؤلمة عظيمة، والله يُمهل ولا يهمل، فإذا عذب فإنه عزيز ذو انتقام، سريع الحساب، شديد العقاب، وإذا رحم كانت رحمته خيرًا من كل شيء.

(١١) أن الله ينجي أولياءه ويحفظهم من كل مكروه ولا يكلهم أبدًا لأعدائهم.

(١٢) أن من كفر برسول واحد فقد كفر بكل الرسل.. فقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾[1] مع أنهم عصوا نبي الله هود (عليه السلام) ولكن من كفر برسول فقد كفر بكل الرسل لأن رسالتهم واحدة.

❋ ❋ ❋

(١) سورة هود: الآية: (٥٩).

قصة صالح (عليه السلام)

* لقد أهلك الله (عز وجل) قوم عاد لما كفروا بربهم ثم جاءت أمة أخرى من بعد (عاد) - وهم قوم ثمود - ولكنهم ما جاءوا ليعتبروا بهلاك الأمم من قبلهم فيؤمنوا بالله (عز وجل) وإنما جاءوا ليستكملوا مسيرة الكفر والشرك التي بدأها قوم نوح (عليه السلام) ووقع فيها قوم عاد فأهلكهم الله بذنوبهم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

* وقوم ثمود هم قوم نبي الله صالح (عليه السلام).

* وكانوا يسكنون في منطقة تُسمى (الحجر) في شمال الجزيرة العربية بين الحجاز وتبوك.

* وكان قوم ثمود قد أنعم الله عليهم بالخيرات والنعم الكثيرة فكانوا يعيشون في مكان يظلله النخيل والأشجار وتنتشر فيه الكثير من العيون والمياه العذبة فكانوا في سعادة ونعيم حتى أنهم كانوا يقيمون القصور الفخمة في السهول.. ولم يكتفوا بذلك بل نحتوا البيوت الفارهة في الجبال.

وكانوا يستطيعون أن يعيشوا في سعادة غامرة ونعيم لا

---
(١) سورة الكهف: الآية: (٤٩).

يزول لولا أنهم كفروا بنعمة الله (جل وعلا) وضلوا الطريق وعبدوا الأصنام من دون الله (جل وعلا).

نبى الله صالح (عليه السلام) يدعوهم إلى التوحيد

لقد كان قوم ثمود يعيشون فى رخاء ونعيم لا يعلمه إلا الله (جل وعلا) فها أنت وكأنك تراهم قد فجَّروا العيون، وغرسوا الحدائق والبساتين، وشادوا القصور، ونحتوا من الجبال بيوتًا، وكانوا فى سعة من العيش ورغد، ونعمة وترف، ولكنهم لم يشكروا الله، ولم يحمدوا له فضله؛ بل زادوا عُتوًّا فى الأرض وفسادًا، وبُعدًا عن الحق واستكبارًا، وعبدوا الأوثان من دون الله، وأشركوا به، وأعرضوا عن آياته، وظنوا أنهم فى هذا النعيم خالدون، وفى تلك السعة متروكون.

بعث الله إليهم صالحًا من أشرفهم نسبًا، وأوسعهم حلمًا، وأصفاهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله، وحضَّهم على توحيده،... فهو الذى خلقهم من تراب؛ وعمَّر

بهم الأرض، واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نعمه[١]، ظاهرةً وباطنةً، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام فهي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا، ولا تغني عنهم من الله شيئًا[٢].

* وبدأ يُذكرهم بأن هذا النعيم لا يدوم لأحدٍ فإن الدنيا قنطرة يعبر عليها العبد إلى آخرته ولذلك قال لهم صالح (عليه السلام): ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[٣].

فلما قام صالح (عليه السلام) وذكَّرهم بنعم الله (عز وجل) عليهم وأمرهم أن يتوجهوا بالعبادة لفاطر السماوات والأرض كانت النتيجة أنهم تعجبوا أن يأتيهم رجل فيطلب منهم أن يتركوا دين الآباء والأجداد.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[٤].

---

(١) أسبغ عليهم نعمه: أتمها، وأكملها.

(٢) قصص القرآن / مجموعة من العلماء (ص: ٥٦، ٥٧) بتصرف.

(٣) سورة الشعراء: الآيات: (١٤٦ - ١٥٢).

(٤) سورة هود: الآية: (٦٢).

لقد كان لنا رجاء فيك. كنت مرجواً فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك.

* أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟!.. كل شيء نقبله منك إلا هذا يا صالح.. ما كنا نتوقع أبدًا أن تعيب آلهتنا التي كان يعبدها الآباء والأجداد.

إن أهل الباطل يبغضون من يدعوهم إلى الحق ويحاول أن يحملهم عليه، فصالح عليه السلام كان محبوبًا عندهم قبل أن يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك... كما قال تعالى - حكاية عنهم: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ﴾[1]

ثم تغير الحال بعد دعوته إياهم حتى صار من أبغض الناس إليهم مع أنه تلطَّف معهم فى الدعوة وصبر عليهم.

صالح (عليه السلام) يستمر فى دعوتهم

واستمر نبى الله صالح (عليه السلام) فى دعوة قوم ثمود ولم ييأس من هدايتهم.. وبالفعل آمن معه عدد قليل من الضعفاء ولكن أكثر الناس أصروا على كفرهم بالله (جل

(١) سورة هود: الآية: (٦٢).

وعلا) ولم يكتفوا بذلك بل اتهموا نبى الله صالحًا (عليه السلام) بالسحر والجنون ومع ذلك لم يلتفت لتلك الاتهامات بل استمر فى دعوته رجاء أن يهديهم الله على يديه.

وها هم يطلبون الآيات

فلما وجدوا أنفسهم لا يملكون أى حُجة أمام الحُجج الساطعة والكلمات الناصعة التى تخرج من فم صالح (عليه السلام) والتى تدعوهم إلى توحيد البارى (جل وعلا) .. وإذا بهم يطلبون منه الآيات ظنًا منهم أنه سيعجز عن أن يأتيهم بآية من عند ربه (عز وجل).

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1].

وإذا به يجيبهم إجابة الواثق فى موعود ربه (عز وجل) ويقول لهم: ﴿ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[2].

* وإذا بالحق (جل وعلا) يجيب دعاء صالح (عليه السلام)

(١) سورة الشعراء: الآيتان: (١٥٣، ١٥٤).

(٢) سورة الشعراء: الآيتان: (١٥٥، ١٥٦).

ويقول: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾(١).

* لقد كان في إجابة الحق (جل وعلا) لطلبهم هذا اختبار لهم حتى لا يكون لهم أى عذر أمام الله يوم القيامة.

معجزة تبهر العقول

* وقد ذكر المفسرون: أن ثمودًا اجتمعوا يومًا فى ناديهم(٢) فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكَّرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقةً، من صفتها كيت وكيت.

وذكروا أوصافًا سموها ووصفوها وأن تكون عُشراء طويلة(٣)، ومن صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبى صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أُرسلت

(١) سورة القمر: الآيتان: (٢٧، ٢٨).

(٢) ناديهم: مكان اجتماعهم وسُمى بذلك لنداء الناس فيه على بعض... انظر لسان العرب جـ ٦/ ٤٣٨٩ «ندى» دار المعارف.

(٣) يعنى: حامل فى الشهر العاشر وعلى وشك الولادة.

به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهدهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مُصلاه فصلى لله عز وجل ما قُدِّرَ له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا. فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشراء، على الوجه المطلوب الذى طلبوا، أو على الصفة التى نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلاً، وقدرة باهرة ودليلاً قاطعًا وبرهانًا ساطعًا، فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم[1].

ناقة مباركة

وظلت هذه الناقة تعيش بينهم زمانًا فى أمان وذلك لأن صالحًا (عليه السلام) حذرهم من أن يمسوها بسوء فيحل عليهم عذاب الله وسخطه.

(١) تفسير الطبرى (٨/١٥٨، ١٥٩).

وأخبـرهم بأن هذه الناقة ستشـرب من الماء يومًا وهم يشربون يومًا .. فـفى اليوم الذى يشربون فيـه تمتنع الناقة عن الماء وفى اليوم الذى تشرب فيه الناقة يمتنعون عن الماء ويحلبون لبن الناقة الذى كان يكفيهم أجمعين.

قـال صالح (عليـه السـلام): ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] فـحذرهـم نقـمـة الله عليهـم إن أصابوا الناقـة بسوء.. فـمكثت الناقة بينهم حيـنًا من الدهر تشرب من الماء هى وفصـيلها (ابنها) وتأكل الورق والمرعى وينتـفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم.

وعقروا الناقة

فلمـا طال عليهم هذا الحـال اجتـمع علماؤهم، واتفق رأيهم على أن يعـقـروا هذه الناقـة، ليستـريحوا منها ويتوافـر عليهم



(١) سورة الشعراء: الآيتان: (١٥٥، ١٥٦).

ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم..

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم: قَدَّار بن سالف.

* وها هى قصة قتل الناقة:

كان صُنيم بن هراوة قد تزوج بامرأة غنية اسمها صَدوق، فلما آمن كان يستخدم ماله فى الإنفاق على نبى الله صالح والمؤمنين، فعاتبته صدوق لأنها كانت كافرة.

ثم أخذت أولادها فخبأتهم عند أبناء عمها، فقال صنيم: رُدى علىَّ أولادى. فرفضت، فتحاكما إلى أبناء عمه وكانوا مؤمنين فردوا عليه أولاده.

فازدادت صدوق كراهية لصالح عليه السلام الذى أنفق زوجها المال عليه، وآمن به، وفرق بينها وبين أولادها.

وكان لها صديقة اسمها عُنيزة بنت غُنيم، وكانت كافرة هى الأخرى وكان لها غنمٌ تخرج لترعى، فإذا رأت الغنم ناقة صالح هربت من أمامها، ولا تجد الأغنام ماءً تشربه، فاغتاظت عُنيزة.

وجمع بينها وبين صدوق كراهية صالح والمؤمنين معه

(1) سورة الأعراف: الآية: (٧٧).

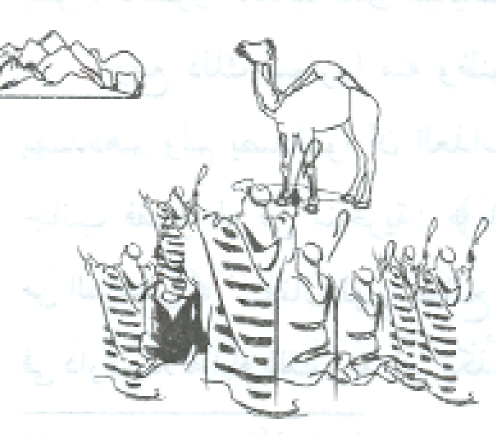
واتفقتا على قتل الناقة.

وكُلما عرضتا المال على رجل ليقتل الناقة يرفُض لأنه رأى أن في هذا عمل فظيع فهي ليست ناقة عادية، وإنما هي آيةٌ من عند الله.

ولكن رجلاً واحدًا هو مُصرعُ بن مهرج كان يحب صدوقًا ويريدها لنفسه، فوافق على قتل هذه الناقة، ثم خرج يبحث له عن أعوان لارتكاب هذه الجريمة الفظيعة، فوافقه صديقه قدار بن سالف وكان عزيزًا في قومه.

ثم انطلقا حتى صار عدد عصابتهم تسعة رجال يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون، وتزعَّمهم قدار بن سالف أشقى القوم[1].

* انطلق هؤلاء الرجال التسعة الأشرار في تلك المهمة التي ستجلب عليهم غضب الله وسخطه وعذابه.. ذهبوا ليقتلوا الناقة.



(١) قصص الأنبياء للأطفال/ حامد أحمد (ص: ١٣٩ - ١٤٢) باختصار.

بحثوا عنها حتى وجدوها قادمة من البئر فقام أحدهم وهو قدار بن سالف فـرماها بسهم فأصـاب ساقها فـخرت ساقطة على الأرض وأصدرت صوتًا لولدها لتحذره ليهرب من هؤلاء المجرمـين .. ثم قام الرجل وطعنهـا ثم ذبحها وسـالت دماء الناقة على الأرض فلما رآها ولدها هرب إلى أعلى الجبل.

وحان وقت الهلاك

ولما علم نبي الله صـالح (عليـه السـلام) بما حدث خـرج غاضـبًا على قومـه وقال لهم: ألم أحذركم من أن تمسـوا الناقة بسوء؟ فانتظروا العذاب الذى سيأتيكم من عند الله (جل وعلا).

* ومع ذلك سخروا منه وظنوا أنه يستهزئ بهم أو أنه يهـددهـم ولـم يصدقـوا أن العذاب سـيحـيط بهم من كل جانب فقالوا له فى سخرية: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] فقال لهم صالح (عليه السلام): ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[2].

(١) سورة الأعراف: الآية: (٧٧).

(٢) سورة هود: الآية: (٦٥).

كيف نزل العذاب على الكافرين

* لقد وعدهم صالح (عليه السلام) أن ينزل بهم العذاب بعد ثلاثة أيام.. وكانوا قد قتلوا الناقة يوم الأربعاء وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام المُهلة - ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح - عليه السلام - وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة، وأصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة. فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذًا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، ... وأشرقت الشمس.

فجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت الأنفس فى ساعة واحدة ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾[1] صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى إلا جارية كانت مُقعدة - واسمها: كلبة ابنة السِّلَق. ويقال

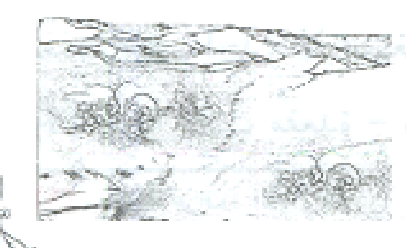
(١) سورة الأعراف: الآية: (٧٨).

لها: الزريقة. وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالح - عليه السلام - فلما رأت ما رأت من العذاب أُطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيًّا من الأحياء، فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها، ثم طلبت منهم شربة ماء فلما شربت ماتت(1).

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾(3).

* أما الذين آمنوا بسيدنا صالح، فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم ونجوا،... قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (67) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾(4).



(1) قصص الأنبياء (ص: 154).
(2) سورة الأعراف: الآية: (78).
(3) سورة القمر: الآيات: (29 - 31).
(4) سورة هود: الآيات: (66 - 68).

وها هو (عليه السلام) يخاطبهم بعد هلاكهم

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[1].

فها هو صالح (عليه السلام) يخاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

أي: جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي.

﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم.

النبي ﷺ يمر بديار ثمود

عن ابن عمر قال: لما نزل الرسول ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس

(١) سورة الأعراف: الآية: (٧٩).

من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»[1].

* وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحِجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[2].

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن المسلم لا بد أن يعتبر بما حدث لمن قبله فيكون ذلك سببًا لاستقامته على أمر الله (جل وعلا) . . . فقد رأينا كيف أن قوم ثمود لم يعتبروا بما حدث لقوم عاد فهلكوا كما هلكت قوم عاد.

(٢) أن الشكر يجلب المزيد . . فلو شكر قوم ثمود

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٣، ٤٧٠٢)، ومسلم (٢٩٨٠).

(٢) صحيح: انظر السابق.

ربهم (جل وعلا) على نعمه التى أنعم بها عليهم لكان ذلك سببًا لسعادتهم ولكنهم كفروا بالله وجحدوا نعمه فاستحقوا العذاب.

(٣) أن أكثر الأمم الكافرة رفضت قبول الحق لأنهم كانوا يتمسكون بدين الآباء والأجداد ولو كانوا على الشرك والكفر... أما المسلم فلا يتبع إلا رجلاً واحدًا وهو رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ.

(٤) أن أعداء الدين إذا لم يجدوا عندهم حُجة يردون بها على أهل الحق لجأوا إلى الاتهامات الساذجة الكاذبة.

(٥) أن الله (عز وجل) يؤيد رسله بالمعجزات ليثبتهم ويكبت أعداءهم.

(٦) أن الدالَّ على الخير كفاعله.. وكذلك الدال على الشر كفاعله، فمن دلهم على قتل الناقة ومن رضى بقتلها مشارك لهم فى الجريمة.

(٧) أن العاقبة دائمًا تكون لأهل الإيمان والتقوى.. فقد نجى الله أهل الإيمان وأهلك أهل الشرك والكفران.

❊ ❊ ❊

قصة إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)

لقد وُلد سيدنا إبراهيم خليل الرحمن (عليه السلام) فى بلد اسمها بابل بين دجلة والفرات بالعراق.. وكان يحكم هذا البلد ملك ظالم متكبر اسمه النمرود بن كنعان.. وكان أهل هذا البلد ينحتون الأصنام ويعبدونها من دون الله (جل وعلا).

ومع أن هؤلاء الناس كانوا يعبدون الأصنام إلا أن الأعجب من ذلك أن ملكهم النمرود بن كنعان كان يدَّعى أنه إله وكان يطلب من قومه أن يعبدوه من دون الله.

* فى هذه البيئة الفاسدة وُلد خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام).

* وكان والد سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يعمل نجاراً وكان ممن يصنعون الأصنام ويعبدونها من دون الله (جل وعلا).. وكان اسمه آزر.

* ومع أن والد سيدنا إبراهيم كان يصنع الأصنام ويعبدها هو وقومه إلا أن إبراهيم (عليه السلام) كان لا يشاركهم فى

هذا الضلال بل كان يرفض ذلك بشدة لأنه على يقين من أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تُحيى ولا تُميت ولا ترزق ولا تمنع الرزق .. إنما هى حجارة لا قيمة لها.

خليل الرحمن .. صاحب الفطرة النقية

ومرت الأيام .. وما زال إبراهيم (عليه السلام) ينظر إلى أبيه وقومه وهم يعبدون الأصنام ويتعجب ويقول فى نفسه: كيف يمكن لإنسان عاقل أن يصنع تلك التماثيل والأصنام بيديه ثم يذهب ويعبدها من دون الله (جل وعلا).. إنها تماثيل لا تنفع ولا تضر ولا تأكل ولا تشرب ولو أراد أحد أن يكسرها لم تستطع أن تدافع عن نفسها.

* وبدأت نبوة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) وهو فى بابل .. وكان قد تزوج قبلها بامرأة تُسمى سارة وكانت عقيمًا لا تلد.

المهم أن الله ابتعثه بالرسالة وهو فى بابل، فقام بالواجب الذى أمره الله به خير قيام، وصبر على الأذى والابتلاء، وقابل التهديد والوعيد بعزيمة أشد رسوخًا من الجبال .. وعندما تأكد من إعراض قومه عن دعوته هاجر

فى أرض الله الواسعة يبذر بذور الإيمان فى كل أرض تطأها قدماه، فاستحق بصبره ودأبه أن يكون أبًا للأنبياء، وإمامًا للأتقياء، وقدوة للموحدين الأمناء.

ونظرًا لأهمية الدور الذى قام به إبراهيم عليه السلام فقد ذُكرت قصته فى خمسٍ وعشرين سورة وفى ثلاث وستين آية من القرآن الكريم، كما ارتبطت سيرته عليه السلام بسيرة ابن أخيه لوط عليه السلام، وبسيرة ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، بل ارتبطت سيرته بسيرة كل من جاء بعده من الأنبياء لأنهم من نسله وذريته، وكان مسك الختام سيد ولد آدم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام[1].

دعوة إبراهيم ﷺ لأبيه

كان آزر يعبد الأصنام، بل كان ينحتها ويبيعها، . . . وشر الأمور أن يعتقد الإنسان عقيدة باطلة، ثم تكون - هذه العقيدة - مورد رزقه، ومحطّ أمله وغاية سعيه.

وبديهى أن يكون والد إبراهيم أول المدعوين لأنه أقرب الناس إليه، وأولاهم بالهداية، وقد أمر الله تعالى

(١) منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله (ص: ٩١ ، ٩٢) باختصار.

المصطفى ﷺ أن يبدأ بعشيرته الأقربين، وكذلك كان منهج أنبياء الله جميعًا فى الدعوة.

* لم يبدأ الدعوة مع أبيه بتسفيه معبوداته، أو تحقير آلهته، لئلا ينفر منه، أو يُصم آذانه عنه، أو يرميه بالعقوق والجحود، بل رتب الكلام معه على أحسن اتساق، وخاطبه بالقول اللين، والأدب الجميل، وابتدأ حديثه معه بذكر بنوته، ليستثير عطفه، ويمس شغاف قلبه.

* والحديث عن دعوة إبراهيم لأبيه آزر جاء فى آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم. تنكر ابتداءً أن تكون هذه الأصنام التى يعبدها قومه آلهة، فالإله الذى يُعبد، والذى يتوجه إليه العباد فى السراء والضراء، والذى خلق الناس والأحياء.. هذا الإله فى فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنمًا من حجر، أو وثنًا من خشب[2].

(١) سورة الأنعام: الآية: (٧٤).

(٢) الظلال (٢/ ١١٣٨).

دعوة كلها رحمة

وإنى لأرجو من كل قارئ أن يقرأ الآيات الكريمة التى يحكى الله فيها نصح الخليل إبراهيم عليه السلام لأبيه بأسلوب عذب رقيق تبدأ كل جملة فيه بكلمة «يا أبت» المشعرة بالتلطف والرقة وغاية الاحترام، حتى إذا أخذت أباه عزة الكفر وحميته وهدد إبراهيم بالرجم إن عاد إلى النصيحة مرة أخرى وطلب منه أن يهجره، ما كان من الخليل (عليه السلام) إلا أن رد رداً جميلاً غاية فى العذوبة والرقة والرحمة ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾[1] هكذا الأدب الذى لا يسمو إليه غير المخلصين[2].

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ

(١) سورة مريم: الآية: (٤٧).

(٢) السلوك الاجتماعى فى الإسلام / الشيخ حسن أيوب (ص ٢٢٦، ٢٢٧).

عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[١] .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾[٢] .

يأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر خليل الرحمن إبراهيم الذى استحق من فرط صدقه أن يسميه الله ﴿ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ ، ووصفه بالصدق سبق وصفه بالنبوة .

لقد كان إبراهيم صادقًا مع قومه قبل النبوة ، كما كان صادقًا أمينًا فى تبليغ الرسالة وفى استسلامه وانقياده لأوامر ربه .

- ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ : استهل خليل الرحمن حواره مع أبيه بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ : وهى من أقوى الروابط وأوثقها .

« . . . ومن ناحية أخرى يحاول إبراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب حدة أبيه ، حتى يستطيع أن يبلغه رسالة الله ، ويقيم عليه حجته وهو هادئ غير ثائر ، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف » .

قال له فى أدب: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾[٣] .

---

(١) سورة مريم : الآيات : (٤١ - ٤٧) .

(٢) سورة مريم : الآية : (٤١) .

(٣) سورة مريم : الآية : (٤٢) .

كيف تعبد يا أبت إلهًا لا يسمعك إذا ناديته، ولا يبصرك إذا اقتربت منه أو أدبرت عنه، ولا يجلب لك نفعًا أو يدفع عنك مكروهًا؟ . . وهذه صورة من صور كثيرة كان إبراهيم عليه السلام يبين لأبيه من خلالها عجز الأصنام التى يعبدها، ويدعوه إلى التفكير والاستفادة من نعمة العقل.

* هذه هى اللمسة الأولى التى يبدأ بها إبراهيم دعوته لأبيه. ثم يُتبعها بأنه لا يقول هذا من نفسه، إنما هو العلم الذى جاءه من الله فهداه. ولو أنه أصغر من أبيه سنًا وأقل تجربة، ولكن المدد العلوى جعله يفقه ويعرف الحق، فهو ينصح أباه الذى لم يتلقَّ هذا العلم، ليتبعه فى الطريق الذى هُدِى إليه: ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا** ﴾[1] . .

فليست هناك غضاضة فى أن يتبع الوالد ولده، إذا كان

(١) سورة مريم: الآية: (٤٣).

الولد على اتصال بمصدر أعلى. فإنما يتبع ذلك المصدر، ويسير في الطريق إلى الهدى[1].

* لم يبدأ إبراهيم حواره مع أبيه بالحديث عن غزارة علمه، وقوة حجته، وشدة ذكائه، كما أنه لم يصف أباه بالجهل، ولو قال هذا وذاك لكان صادقًا، وإنما قال له - وهو الصادق الأمين عنده - يا أبت لقد خصَّني الله بفضلٍ منه فاستمع لهذا الأمر الجديد واستجب لدعوة الحق تكن من الفائزين في الدارين وحذار يا أبت أن تستمر على ما أنت عليه فتكن بذلك عبدًا للشيطان، ولن تجتمع عبادة الرحمن وعبادة الشيطان في قلب مؤمن[2].

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾[3] أي: لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾[4] أي: إن الشيطان عاصٍ للرحمن، مستكبر على عبادة ربه، فمن أطاعه أغواه.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣١١).
(٢) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (ص: ٩٥).
(٣)، (٤) سورة مريم: الآية: (٤٤).

للشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[1] تحذير من سوء العاقبة.... والمعنى: أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قرينًا للشيطان بالخلود فى النيران.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[2].

أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم، وكاره لعبادتها ومُعرض عنها؟ أوَ بلغ بك الأمر إلى هذا الحد من الجراءة؟! فهذا إنذار لك بالموت الفظيع إن أنت أصررت على هذا الموقف الشنيع: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾! فاغرب عن وجهى وابعد عنى طويلاً. استبقاءٌ لحياتك إن كنت تريد النجاة: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾..

بهذه الجهالة تلقَّى الرجل الدعوة إلى الهدى، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب. وذلك شأن الإيمان مع الكفر، وشأن القلب الذى هذبه الإيمان والقلب الذى أفسده الكفر.

ولم يغضب إبراهيم الحليم. ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه:

---

(1) سورة مريم: الآية: (٤٥).

(2) سورة مريم: الآية: (٤٦).

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[1].

* سلام عليك.. فلا جدال ولا أذى ولا رد للتهديد والوعيد. سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولي الشيطان، بل يرحمك فيرزقك الهدى. وقد عودني ربي أن يكرمني فيجيب دعائي. وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة. وأدعو ربي وحده، راجيًا - بسبب دعائي لله - ألا يجعلني شقيًّا[2].

الاعتزال وثمرته

اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، كما اعتزل ما يدعون من دون الله من أصنام وأوثان، فكان لا يشاطرهم في أفراحهم القومية، ولا يبتهج في أعيادهم وندواتهم،

(١) سورة مريم: الآيتان: (٤٧، ٤٨).
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣١٢).

ولا يذكر آلهتهم إلا بالنقد والتجريح .. ومع ذلك كان بارًا بأبيه حريصًا على هدايته.

إبراهيم (عليه السلام) يتبرأ من أبيه وقومه

لقد بذل إبراهيم (عليه السلام) كل ما يستطيع من أجل هداية أبيه وقومه .. ولكنه لما تيقن من أنه لا يريد الهداية تبرأ منه في التو واللحظة.

أما استغفار إبراهيم لأبيه فكان في بداية دعوته له، وكان لا ينتظر منه الإصرار على الشرك، وإنما كان يرجو له الهداية. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[١].

دعوة إبراهيم (عليه السلام) لقومه عبَّاد الأصنام

* فها هو يدعو قومه لنبذ عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا

(١) سورة التوبة: الآية: (١١٤).

تضر . . وها هو يدعوهم لإقامة التوحيد لفاطر السماوات والأرض الذى يملك النفع والضر وبيده مقاليد الأمور.

* قال تعالى: ﴿واتْلُ عليْهِمْ نبأ إبْراهِيم﴾[1] هذه بداية قصة إبراهيم أى: اقصص عليهم يا محمد خبر (إبراهيم) ﴿إذْ قَالَ لأبيهِ وقَوْمِهِ ما تَعْبُدُون﴾[2] أى: حين قال لأبيه وعشيرته أى شيء تعبدون؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبين لهم سفاهة عقولهم فى عبادة ما لا ينفع، ويقيم عليهم الحجة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أصْنامًا فنَظَلُّ لها عاكِفِين﴾[3] أى: نعبد أصنامًا فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار، ﴿قَالَ هلْ يَسْمعُونكُمْ إذْ تدْعُونَ﴾[4] أى: قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ: هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء: ﴿أوْ ينفعُونكُمْ أوْ يضُرُّون﴾[5] أى: وهل يبذلون لكم

(١) سورة الشعراء: الآية: (٦٩).
(٢) سورة الشعراء: الآية: (٧٠).
(٣) سورة الشعراء: الآية: (٧١).
(٤) سورة الشعراء: الآية: (٧٢).
(٥) سورة الشعراء: الآية: (٧٣).

منفعة، أو يدفعون عنكم مضرة؟ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1] أي: وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾[2]

أي: قال إبراهيم: أفرأيتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأولون؟ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[3] أي: فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم، ولكن أعبد الله رب العالمين فهو وليي في الدنيا والآخرة، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[4] أي: الذي خلقني هو الذي يهديني إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[5] أي: هو تعالى الذي يرزقني الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذي أنزل المطر، وأخرج به أنواع الثمرات رزقًا للعباد ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[6] أي: وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره.

(١) سورة الشعراء: الآية: (٧٤).
(٢) سورة الشعراء: الآيتان: (٧٥، ٧٦).
(٣) سورة الشعراء: الآية: (٧٧).
(٤) سورة الشعراء: الآية: (٧٨).
(٥) سورة الشعراء: الآية: (٧٩).
(٦) سورة الشعراء: الآية: (٨٠).

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾[1] أي: وهو تعالى المحيى المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾[2] أي: أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء حيث يُجازى العباد بأعمالهم.

وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقروا بخطاياهم.

* ولا يظن أحد أن إبراهيم (عليه السلام) دعا قومه مرة واحدة بل استمر في دعوتهم ومحاورتهم مرات ومرات ومع ذلك لم يستجيبوا.

فلما يئس منهم توعدهم بأن يكسر أصنامهم فقال:

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾[3].

- أي: سأكسر تلك الأصنام التي تزعمون أنها آلهة لأريكم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها.

(١) سورة الشعراء: الآية: (٨١).
(٢) سورة الشعراء: الآية: (٨٢).
(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٥٩)

وها هو (عليه السلام) يحطم أصنامهم

كان من عادة هؤلاء القوم أن يقيموا احتفالاً سنويًا ضخمًا بمناسبة أحد أعيادهم.. يقضون أيامه خارج المدينة.

وكان كل أهل المدينة يخرجون إليه بعد أن يضعوا طعامًا كثيرًا في المعبد الذي فيه الأصنام التي يعبدونها حتى إذا رجعوا أكلوا هذا الطعام فقد باركته الآلهة - كما زعموا - !!!

ولما أرادوا الذهاب إلى عيدهم طلبوا من سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أن يذهب معهم ليشاركهم في هذا العيد فرفض أن يذهب معهم وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1] أي: مريض.. حتى لا يذهب معهم.

وذهب أهل المدينة لهذا الاحتفال وأصبحت المدينة خالية، واستقر هو في بلدهم ﴿رَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾[2] أي: ذهب إليها مسرعًا مستخفيًا، فوجدها في مكان كبير، وقد وضعوا بين أيديهم أنواعًا من الأطعمة قربانًا إليها. فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا

---

(١) سورة الصافات: الآية: (٨٩).

(٢) سورة الصافات: الآية: (٩١).

تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[1] لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدوم في يده كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾[2] أي: حطامًا، كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[3] قيل: إنه وضع القدوم في يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تُعبد معه هذه الصغار[4].

* لقد كان هذا الصنم هو أكبر أصنامهم حجمًا وأعظمهم قدرًا عند هؤلاء المشركين .. فوضع إبراهيم (عليه السلام) القَدوم في يده ثم انصرف وهو يتمنى أن يرى أهل المدينة هذا المشهد ليعلموا يقينًا أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر بل ولا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها.

عادوا فرأوا المفاجأة

وبعد يوم طويل من الاحتفال بيوم عيدهم .. عاد هؤلاء القوم وأسرعوا إلى



(١) سورة الصافات: الآيات: (٩١، ٩٣).

(٢)، (٣) سورة الأنبياء: الآية: (٥٨).

(٤) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ١٦٩).

المعبد ليأكلوا الطعام الذى باركته الآلهة - كما زعموا - وإذا بهم يرون المفاجأة التى لم تخطر على بالهم.

لقد وجدوا الأصنام مُحطمة قطعًا صغيرة ومع ذلك لم يفهموا أن هذه الأصنام لا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها فكيف تصلح أن تكون آلهة!!

* قاموا فقالوا وهم فى شدة الغضب: ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

ثم تذكروا أن إبراهيم (عليه السلام) هو الذى توعَّد أصنامهم فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(٢) أى: سمعناه يتكلم عن هذه الأصنام ويعيبها ويتوعدها.

* وفى التو واللحظة صدر الأمر بإحضار إبراهيم (عليه السلام) فقالوا للجنود: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾(٣).

* * *

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٥٩).
(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٦٠).
(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٦١).

فرصة عظيمة لإقامة الحجة عليهم

* لقد صدر الأمر بإحضار إبراهيم (عليه السلام):

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[١].

وكانت هذه فرصة ذهبية لإبراهيم (عليه السلام) .. وذلك بأن يجتمع الناس جميعًا ليقيم عليهم الحجة ويوضح لهم ضلالهم فى عبادة تلك الأصنام التى لا تنفع ولا تضر.

* وأحضر الجنود سيدنا إبراهيم (عليه السلام) إلى المعبد وقالوا له فى غضب وانفعال: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[٢].

يا الله .. إنهم ما زالوا يصرون أن تلك الأصنام آلهة .. حتى وهم يرونها محطمة أمام أعينهم.

* فأشار إبراهيم (عليه السلام) إلى الصنم الكبير الذى تركه ولم يحطمه بل وضع عليه الفأس .. وقال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[٣]، وهنا

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٦٢).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٦٣).

أخذوا يفكرون: لقد تحطمت الآلهة ومع ذلك لم يستطع كبيرهم هذا أن يدافع عنهم ولا حتى عن نفسه .. إذًا فهي حجارة لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر .. فكيف يعبدونها؟ .. لقد ظلموا أنفسهم بعبادة هذه الأصنام ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1] لقد اعترفوا فيما بينهم لما ألقى إبراهيم (عليه السلام) عليهم الحجة والبرهان ولكنهم سرعان ما ارتدوا إلى الضلال مرة أخرى واستكبروا أن يكون إبراهيم صادقًا فيما يقول ويرى الناس أنهم قد أخطأوا فعادوا مرة أخرى يتكلمون بكل إصرار وعناد وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾[2] أي: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟!

فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3][4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٤).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٦٥).

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان: (٦٦، ٦٧).

(٤) قصص الأنبياء/ للحافظ ابن كثير (ص: ١٧٠).

ذهبت حُجتهم
لجأوا إلى القوة والسلطان

لما انقطعت حُجتهم وأحسوا بعجزهم وضعفهم عن مواجهة سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لجؤوا إلى العنف واستعمال القوة والبطش لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم.

اعترف قوم إبراهيم فى ذلك اليوم العصيب بأنهم ظالمون، لأنهم يعبدون آلهة لا تنطق ولا تسمع، وهذه أول مرة يفكرون فيها بعجز أصنامهم وضعفها، غير أن صحوة ضمائرهم لم تستمر إلا لحظات، ثم انتصر صوت الشيطان فى نفوسهم، وأصروا على كفرهم، وأصدروا قرارهم الجائر .. ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1].

وهذا هو سلاح أهل الباطل الذى يلجؤون إليه فى مواجهة أنبياء الله ورسله وحملة الإسلام فى كل عصر.

خليل الرحمن يُلقى فى النيران

أجمع قوم إبراهيم على قتل نبيهم انتصارًا لآلهتهم،

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٨).

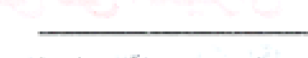
واختاروا له أفظع قتلة، وهي: الإحراق في النار، وليس في أي نار، بل بنوا بنيانًا شاهقًا، ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم كلهم في جمعها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[1][2].

* لقد انتشر هذا الخبر في المملكة كلها وجاء الناس من المدن والقرى والجبال ليشاهدوا مشهد إلقاء خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) في النار.

* وبدأ القوم في جمع الحطب من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم، ثم حفروا حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار، فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم يُر مثله قط.

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق[3]



(١) سورة الصافات: الآية: (٩٧).
(٢) فتح الباري (٦/٧-٢).
(٣) منجنيق: آلة تُرمى بها الحجارة في الحرب.

صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له «هيزن» وكان أول من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[1] .. وهكذا كان جزاؤه من جنس عمله: أراد وضع إبراهيم عليه السلام فى المنجنيق، ليرفعه إلى أعلى ويهوى به إلى أسفل فخُسف به إلى أسفل جزاءً وفاقًا.

ومن يتوكل على الله فهو حسبُه

فى تلك اللحظات كان إيمان إبراهيم بربه أشد رسوخًا من الجبال وكان ثقته بنصر الله وتأييده أقوى من الأرض ومن عليها ولهذا لم يهتم بتلك الحشود والجماهير ولم يخف من نيرانهم الملتهبة.

* لقد وضعوا إبراهيم (عليه السلام) فى المنجنيق بعد أن قيدوا يديه ورجليه واشتعلت النار فى الحفرة وتصاعد اللهب إلى السماء .. وكان الناس فى هذه اللحظة يقفون بعيدًا عن تلك الحفرة لشدة اللهب الذى يخرج منها.

* وهنا أصدر كبير الكهنة أمره بإطلاق إبراهيم فى

(١) قصص الأنبياء (ص: ١٧١).

النار، فجاء جبريل (عليه السلام) ووقف عند رأس إبراهيم (عليه السلام) وقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟

فقال إبراهيم (عليه السلام): أما إليك فلا..

وأما إلى ربى فحسبى الله ونعم الوكيل.

قلنا يا نار كونى
بردًا وسلامًا على إبراهيم

وانطلق المنجنيق ليلقى إبراهيم (عليه السلام) فى حفرة النار.

ووقع إبراهيم (عليه السلام) فى النار.. وفى تلك اللحظة كان خازن المطر يقول: متى يأمرنى الله بأن أرسل المطر ليطفئ تلك النار فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[1].

فقد جاء الأمر من الله (عز وجل) لتلك النار ألا تحرق خليله إبراهيم وأن تكون عليه بردًا وسلامًا.

فأطاعت النار أمر ربها فكانت بردًا وسلامًا على

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٩).

إبراهيم (عليه السلام) فأحرقت القيود فقط .. وجلس إبراهيم (عليه السلام) فى وسط النار وكأنه يجلس فى حديقة تُطل على مياه النيل.

لقد كان قلبه مشغولاً بالله فكان فى وسط النار يحمد الله ويُسبحه ولذلك لم يشعر بأى خوف أو رهبة لأنه على يقين من أن الله سينصره.

❊ وظلت النار مشتعلة لفترة طويلة حتى ظن الناس أنها لن تنطفئ أبدًا فلما انطفأت النار كانت المفاجأة التى لا تخطر على قلب بشر فى انتظارهم... فها هو إبراهيم (عليه السلام) يخرج من الحفرة سليمًا لم يُصبه أى مكروه فقد خرج من النار ووجهه يتلألأ من النور .. وهم قد اسودت وجوههم من دخان الحريق.

ثيابه لم تحترق .. وثيابهم احترق نصفها لتساقط الأخشاب الملتهبة عليها، فنصره الله عليهم .. وأخزاهم فى الدنيا والآخرة.



مناظرته (عليه السلام) مع النمرود

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

لقد كان هناك ملك يحكم أرض بابل بالعراق اسمه النمرود بن كنعان وكان فى قمة الظلم والطغيان حتى أنه كان يدَّعى أنه إله هذا الكون.

ولما سمع عن إبراهيم (عليه السلام) وأنه يدعو إلى عبادة الله (جل وعلا) خاف النمرود على مُلكه وأراد أن يعقد مناظرة مع إبراهيم (عليه السلام) ليثبت له أنه هو إله هذا الكون.

ووقف إبراهيم (عليه السلام) ليناظره .. وقف إبراهيم (عليه السلام) وكله يقين وثقة فى الله (جل وعلا) أنه سينصره على هذا الكافر الذى يدعى أنه إله هذا الكون.

قال النمرود: يا إبراهيم أنا إله هذا الكون فهل يستطيع إلهك أن يفعل شيئًا لا أستطيع القيام به.

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٨).

قال إبراهيم (عليه السلام): ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[1].

فنظر إليه النمرود بكل كبر وغطرسة وقال له: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾[2] فأصدر النمرود أوامره وجيئ برجلين قد حكم عليهما بالإعدام فأمر بإعدام أحدهما وعفا عن الثانى وقال: ها أنا قد أحييت هذا الرجل الذى كان سيموت!!

- لم يعلم النمرود ما يقصده إبراهيم (عليه السلام).

فلما رأى إبراهيم (عليه السلام) غباء النمرود وتحايله قال له كلمة أذهلته فقال له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾[3] فبُهت الذى كفر وأحس بالضعف والعجز والمهانة.

* لقد أحس النمرود لأول مرة بعجزه وضعفه.. وبذلك انتصر خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) لأن الحق معه.. والله يؤيده وينصره.

وهكذا كان هلاك النمرود

وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار، ملكًا يأمره بالإيمان

(١)، (٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٨).

بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية، فأبى عليه، ثم دعاه الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك، وأجمع جموعي.

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذبابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظامًا بادية، ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخره أربعمائة سنة عذّبه الله تعالى بها. فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها [1].

قصة إحياء الطير

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [2].

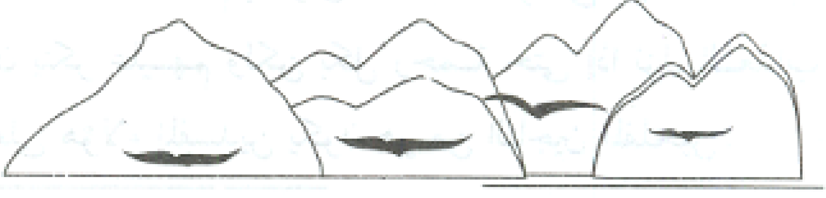
ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسبابًا منها أنه لما

(١) قصص الأنبياء/ للحافظ ابن كثير: (ص: ١٧٧، ١٧٨).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٢٦٠).

قال للنمرود: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[1] أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2].

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾[3] أي: أوثقهن واذبحهن وقطعهن. فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءًا، بعد أن قطعهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن. وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعيًا، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل



(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٨).

(٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٢٦٠).

طائر يجيء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه أباه، فإذا قدم إليه رأسه تركَّب مع بقية جسده بحول الله وقوته. ولهذا قال: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] أى: عزيز لا يغلبه شىء ولا يمتنع من شىء وما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شىء، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره[2].

* الدروس المستفادة:

(١) قد ينشأ الإنسان فى بيئة فاسدة ومع ذلك فإنه إذا اعتصم بربه (جل وعلا) فإنه يصبح رجلاً صالحًا.. فقد رأينا كيف أن خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) نشأ فى بيئة أهلها يعبدون الأصنام ومع ذلك أصبح هو خليل الرحمن (جل وعلا).

(٢) أن المسلم إذا رأى الفساد منتشرًا فى مجتمعه فلا بد أن ينكر عليهم ولكن بكل رحمة حتى إذا نزل العذاب على هؤلاء المفسدين يكون هو من الناجين المفلحين.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٦٠).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٣) أنه لا بد من الأدب مع الوالدين حتى ولو كانا كافرين بالله (جل وعلا)، ولكن لا بد من الحرص على دعوتهما وهدايتهما .. فقد رأينا كيف كان إبراهيم (عليه السلام) يدعو أباه بكل أدب ورحمة وحنان.

(٤) أن كل من دعا الناس وكان حريصًا على هدايتهم فلا بد أن يحاربه أهل الزيغ والفساد الذين يريدون نشر الفساد في الكون كله ولا يريدون أن يروا أناسًا صالحين ولا مصلحين .. ولكن العاقبة الطيبة لا بد أن تكون لأهل الإيمان.

(٥) لا بد من طول النَّفَس في الدعوة إلى الله .. فإن إبراهيم لم يكسر أصنامهم إلا بعد أن دعاهم سنوات طويلة فلما يئس منهم أراد فقط أن يُعرفهم أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها.

(٦) أن من توكل على الله فإن الله يحفظه وينصره.. ولقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) لما توكل على الله جعل الله له النار بردًا وسلامًا.

(٧) أن صاحب الحق لا يخشى أن يواجه أحدًا لأن الله سينصره ويثبته . . ولقد رأينا كيف وقف إبراهيم (عليه السلام) أمام هذا الحاكم الظالم النمرود بن كنعان وناظره وانتصر عليه بفضل الله (جل وعلا).

(٨) أن الله يجعل هلاك الجبارين المتكبرين بأيسر الأسباب . . ولقد رأينا كيف جعل الله هلاك النمرود بن كنعان الذى كان يزعم أنه إله من دون الله . . جعل الله هلاكه فى بعوضة دخلت من منخره ومكثت فيه أربعمائة سنة فكانت تنخر فى رأسه فلا تسكت إلا إذا ضربوه على رأسه . . . حتى أهلكه الله (جل وعلا).

(٩) أن إبراهيم (عليه السلام) لما سأل الله (عز وجل) أن يُريه كيف يحيى الموتى لم يكن عنده شك ولكن أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين فيرى ذلك مشاهدة أمام عينيه.

❊ ❊ ❊

هجرة إبراهيم (عليه السلام) إلى بلاد الشام

لقد استمر إبراهيم (عليه السلام) فى دعوته إلى الله.. ومرت سنوات وسنوات ومع ذلك لم يستجب له سوى زوجته سارة وابن أخيه لوط (عليه السلام).. وهنا أيقن إبراهيم (عليه السلام) أن جذور الشر فى قلوب هؤلاء القوم عميقة جدًا وأنهم يصرون على الباطل ولن يستجيبوا للحق أبدًا.. فجاءه الأمر من الله (جل وعلا) بأن يهاجر إلى أرض الكنعانيين وهى بلاد بيت المقدس فى فلسطين.. وكان أهلها يعبدون الكواكب.

مناظرته (عليه السلام) مع عُبّاد الكواكب

وهكذا هاجر إبراهيم (عليه السلام) إلى بلاد الشام واستقر فى مدينة تُسمى (حاران) وكان كل هدفه دعوة الناس من حوله إلى الله (جل وعلا).

علم إبراهيم (عليه السلام) أن أهل هذا البلد يعبدون

الكواكب فأراد أن يثبت لهم أن تلك الكواكب من مخلوقات الله (جل وعلا) وذهب يحاورهم بطريقة جديدة حتى يثبت لهم أن الله وحده هو الإله الحق وأن ما دونه من الآلهة المزعومة لا تنفع ولا تضر.

* وقف إبراهيم (عليه السلام) مع هؤلاء القوم ليحاورهم، وعندما غربت الشمس وأظلمت الأرض نظر إبراهيم (عليه السلام) إلى السماء فرأى كوكبًا مضيئًا فقال لهم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[(١)].

فرح أهل المدينة وظنوا أن إبراهيم (عليه السلام) سيعبد الكواكب معهم ولكن لما أصبح الصباح واختفى ذلك الكوكب وانطفأ نوره قال إبراهيم (عليه السلام): ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[(٢)] أي: لا أحب الإله الذى يغيب ويختفى فأنا أريد إلهًا لا يغيب عنى أبدًا، حتى أستطيع أن أعبده وأطلب منه كل ما أحتاج إليه.

وفى الليلة الثانية وقف معهم فلما ظهر القمر وبزغ

(١) سورة الأنعام: الآية: (٧٦).
(٢) سورة الأنعام: الآية: (٧٦).

نوره وكان نوره أقوى من نور الكوكب قال إبراهيم (عليه السلام) : ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾(١) .

ولكن القمر اختفى فى الصباح فقال إبراهيم (عليه السلام) .

﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(٢) .

وأخذ يوضح لهؤلاء القوم أنه لن يعبد إلهًا يظهر ويختفى ويضىء ثم ينطفئ . . فهذا لا يستحق أن يكون إلهًا .

* وفى الصباح نظر فرأى الشمس ساطعة فأشار إليها قائلاً : ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾(٣) .

- ولم يفهم هؤلاء القوم أن إبراهيم (عليه السلام) يفعل كل هذا من أجل أن يثبت لهم أن كل الكواكب والأقمار والشموس من مخلوقات الله وأنه لا يستحق العبادة إلا الله (جل وعلا) .

- فلما غربت الشمس قال لهم إبراهيم (عليه السلام) : ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ

(١)، (٢) سورة الأنعام : الآية : (٧٧) .
(٣) سورة الأنعام : الآية : (٧٨) .

للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾(١).

* فلما وضح لهم أن هذه الكواكب لا تصلح أن تكون آلهة دعاهم إلى عبادة الإله الحق (سبحانه وتعالى) .. وإذا بهؤلاء القوم الذين يعبدون الكواكب والنجوم يقولون لإبراهيم (عليه السلام): إن الآلهة ستنتقم منه وستؤذيه لأنه لم يعبدها ولم يسجد لها.

ولكن إبراهيم (عليه السلام) يعلم أنه على الحق فقال لهم: ﴿ أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون (٨٠) وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾(٢).

أنتم الذين يجب أن تخافوا، لأنكم أشركتم بالله، أما أنا فلن يصيبنى شىء إلا بأمر الله عز وجل.

* * *

(١) سورة الأنعام: الآيتان: (٧٨، ٧٩).

(٢) سورة الأنعام: الآيتان: (٨٠، ٨١).

هجرته (عليه السلام) إلى أرض مصر

لقد استمر إبراهيم (عليه السلام) فى دعوته المباركة.. فلما وجد قلوب القوم مغلقة لا تستقبل الخير ولا تريد أن تُقبل على الله (جل وعلا) قرر إبراهيم (عليه السلام) الهجرة إلى أرض مصر لعله يجد قلوبًا تستجيب لدعوته وترجع إلى الخالق (جل وعلا).

خرج إبراهيم (عليه السلام) ومعه زوجته سارة وكانت من أجمل نساء الأرض فلما وصلا إلى مصر وصلت الأخبار إلى ملك مصر أن رجلاً وصل إلى مصر ومعه امرأة هى أجمل نساء أهل الأرض فطمع الملك أن يفوز بها لنفسه وكان هذا الملك الظالم قد وضع قانونًا لنفسه وهو أنه يجوز له أن يأخذ المرأة من زوجها ويقتل زوجها ولكن لا يجوز له أن يأخذ المرأة من أخيها أو أبيها.

فجاء الوحى إلى إبراهيم (عليه السلام) يخبره بذلك.. فقال لسارة: إن سألك الملك فقولى له أنك أختى فما على هذه الأرض مؤمن غيرى وغيرك.

وأرسل الملك جنوده ليأتوا إليه بسارة وأمرهم أن يسألوا

إبراهيم (عليه السلام) عنها فإن كان زوجها فاقتلوه..

فلما سألوا إبراهيم فقال لهم: إنها أختي... وكان يقصد بذلك أنها أخته في الإسلام لأنه لم يكن هناك أزواج على الإسلام في الأرض كلها إلا إبراهيم وسارة.

قال لرسول ذلك الملك إنها أخته عندما سأله عنها، لينجو من بطشه، وقد أرسل إبراهيم بزوجته إلى ذلك الطاغية كما طلب منه، ثقة منه برعاية الله وحفظه، بعد أن أوصاها أن لا تخبر الملك بصلتها الحقيقية به، وقد بيَّن لها إبراهيم وجهة نظره في ذلك، فهي أخته في الإسلام إذ لم يكن على وجه الأرض مؤمن غيرهما.

أرسل إبراهيم بزوجته إلى الطاغية، وفزع إلى الصلاة، يدعو ربه، ويلتجئ إليه، وقد حفظ الله خليله في زوجه سارة، كما حفظ سارة في نفسها.

لما عرفت السيدة سارة أن ملك مصر فاجر ويريدها له أخذت تدعو الله قائلة: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلطْ عليَّ الكافر.

* فلما أدخلها الجنود عليه وانصرفوا قام هذا الملك الظالم يريد أن يلمسها فأصيبت يده بالشلل وتجمدت في

مكانها فأخذ يصرخ وسمع الجنود صوت صُراخه وجاءوا لينقذوه لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أى شيء.

هنا خافت سارة من الجنود أن يقتلوها بسبب ما فعلته بالملك فقالت: يا رب أذهب عنه الشلل حتى لا يقتلونى بسببه .. فاستجاب الله لدعائها.

لكن مع ذلك لم يتب هذا الملك الظالم ويعتبر بما حدث له فقام وهجم عليها مرة أخرى فأُصيبت يده بالشلل .. فقال لها الملك: فُكينى ولن أقترب منك .. فدعت له ففكّه الله (جل وعلا).

ولكن الملك عاد للمرة الثالثة فأُصيبت يده بالشلل فقال لها الملك: فُكينى وسوف أُطلق سراحك وأكرمك.

فدعت الله (عز وجل) ففكه.

فصرخ الملك فى جنوده وأعوانه وقال لهم: أبعدوها عنى فإنكم لم تأتونى بإنسان بل أتيتمونى بشيطان.

فأطلقها وأعطاها أمة اسمها هاجر .. فعادت سارة إلى زوجها إبراهيم (عليه السلام) سالمة غانمة.

❊ ❊ ❊

الله يكشف الحجاب لإبراهيم (عليه السلام)

وجاء فى بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهدًا لها وهى عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبًّا شديدًا، لدينها، وقرابتها منه، وحسنها الباهر، فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها رضي الله عنها (١).

العودة إلى أرض فلسطين

وعاد إبراهيم (عليه السلام) وزوجه سارة - ومعهما هاجر - إلى أرض فلسطين واستقروا جميعًا فى بيت المقدس .. تلك الأرض التى بارك الله حولها.

ولحق به ابن أخيه لوط (عليه السلام) فأمره إبراهيم (عليه السلام) أن يذهب إلى أرض (سدوم) ليدعوهم إلى الله عز

(١) قصص الأنبياء (ص: ١٣٤).

وجل فذهب لوط إلى أهل تلك المنطقة وكانوا أهل فسق وفجور فقد كانوا أصحاب فطرة منتكسة فهم يأتون الذُكران من دون الإناث فدعاهم لوط إلى ترك تلك الفاحشة التى تتنافى مع الفطرة النقية التى فطر الله الناس عليها فلم يستجيبوا.

زواجه (عليه السلام) من هاجر

وتعالوا بنا لنرى ما الذى حدث مع خليل الرحمن (عليه السلام).

لقد استقر إبراهيم - كما أسلفنا - فى أرض فلسطين واشتاق بعد هذا العمر الطويل إلى أن يرزقه الله ولدًا صالحًا.

* عاد إبراهيم - عليه السلام - من مصر إلى فلسطين، وعادت معه سارة فى صحبتها هاجر المصرية تخدمها، وتخدم زوجها خليل الرحمن.

* واستقروا جميعًا فى بيت المقدس، تلك الأرض التى بارك الله حولها.. وتمضى الأيام والسنون.. وتتقدم سارة فى العمر.

* كانت سارة تنظر إلى نفسها وإلى زوجها نظرة إشفاق.. كانت تُحدث نفسها قائلة: ليت لنا ولدًا تقرُّ به أعيننا.

وكانت سارة لا تلد، فلما رأت سارة ذلك أحبت أن تعرض هاجر على إبراهيم، فكان يمنعها غيرتها.

* ويبدو أن سارة في لحظة من لحظات الصفاء الروحي آثرت زوجها على نفسها، وتمنت أن يكون له ولد، فهي تدرك أنها عاقر لا تنجب.. تلك مشيئة الله، إنه عليٌّ حكيم..

* وفي سبُحات روحية تذكرت هاجر.. هاجر تلك المرأة المصرية التي تعيش معهما، وقد آمنت بدعوة إبراهيم، وأسلمت وجهها لله فاطر السموات والأرض.

* راقبت سارةُ هاجر، ها هي تصل العبادة بالصلاة، وتصل العمل بالصلاح، وتقوم على عملها كأفضل ما يمكن..

* كانت الأيام تسير.. وهاجر لا تدري بماذا تفكر به سارة، بينما تابعت هاجر عبادتها وعملها حتى غدت نقية النفس موصولة القلب بالله عز وجل.

* كانت تعبد الله سبحانه طاعة له تعالى، ليرضى عنها، ويوفقها للاستزادة من حلاوة العبادة، ويثبت إيمانها في قلبها.

* أراد الله سبحانه أن يجزيها جزاء الشاكرين.. وأن

يرفع قدرها عاليًا فوق نساء عصرها .. وأن يكون ذكرها عَطِرًا إلى يوم القيامة.

* وفي لحظة صفاء إيماني، قالت سارة لإبراهيم وقد شرح الله صدرها لتلك الفكرة: يا خليل الرحمن، هذه هاجر، أهبها لك عسى أن يرزقنا الله منها ذرية.

ولادة إسماعيل عليه السلام

* تذكر إبراهيم - عليه السلام - ما وعده ربه أن يهب له ذرية طيبة، وكان وعد الله مأتيًّا ..

وافق إبراهيم - عليه السلام - على الزواج من هاجر.. تحقق الوعد الإلهي الحق .. وحملت هاجر ..

* اقترب موعد ولادتها .. فولدت غلامًا سويًّا زكيًّا.. أسموه إسماعيل[1].

* قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله -:

إن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبه

(١) نساء الأنبياء / أحمد خليل جمعة (ص: ٢١٤، ٢١٥) بتصرف.

أبوه اشتدت غيرة سارة، فأمره الله سبحانه أن يُبعد عنها هاجر وابنها ويُسكنها فى أرض مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته ورأفته تعالى[1].

* وعرفت هاجر ذلك .. أسلمت وجهها لله رب العالمين، كان إيمانها بذلك معقودًا بكمال العبادة، رأت بعين بصيرتها أن الله لن يضيعها إذ اختارها زوجة لخليله.. وكأن القائل عناها بقوله:

قلوب العارفين لها عيون
ترى ما لا يراه الناظرون

أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم - عليه السلام - أن خُذ هاجر وابنها إسماعيل، واخرج إلى الأرض المباركة، تلك البقعة التى أراد الله أن يبارك فيها للعالمين (مكة)، أم القرى ..

أمره الله تعالى بالوحى أن ينقلها إلى مكة، وأتى لها بالبُراق، فركب عليه هو وهاجر والطفل[2].

* نزل خليل الرحمن وهاجر وإسماعيل بوادٍ غير ذى زرع، ... لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا حياة.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧٤، ٧٥).

(٢) حاشية الصاوى على الجلالين (٢/ ٢٤٢).

* نظر إبراهيم - عليه السلام - إلى زوجه هاجر وابنه إسماعيل نظرة فيها معانى الرأفة كلها .. ولكنه راجع من حيث أتى، إنه أمر الله فلا راد لحكمه.

الهجرة إلى مكة المكرمة

لقد رحل إبراهيم بزوجه هاجر وابنه إسماعيل إلى مكة المكرمة وكانت وقتها صحراء جرداء لا أنيس فيها ولا جليس فتركهما فى هذا المكان الموحش وترك معهما جرابًا فيه تمر وسقاءٌ فيه ماء.

* قد يبدو الأمر صعبًا وقاسيًا على نفس الشيخ الكبير الذى رُزق بإسماعيل على كِبَر، ويزداد الأمر صعوبة عندما يضع إبراهيم فلذة كبده وأمه فى مكان موحش لا ماء فيه، ولا طعام، ولا سكان.

ولكن الله له حكمة بالغة، والأمر وإن كان فى ظاهره المشقة إلا أن فى باطنه كثيرًا من الرحمات والخيرات، نقل إبراهيم الطفل الصغير وأمه من الأرض المباركة ذات الهواء العليل والرياض الخضرة، والمياه الجارية، إلى ذلك الوادى،

ووضعهما تحت تلك الشجرة، ومضى راجعًا، من غير أن يشغل نفسه ببناء بيت يأويان إليه، ومن غير أن يبحث لهما عمن يسكن بجوارهما ليحميهما من غارات قُطَّاع الطرق، ومن هجمات الوحوش الضارية .. لقد أمر الله إبراهيم بإسكانهما فى ذلك الوادى، فأسكنهما فيه كما أمر الله، وترك أمرهما لله تعالى، فالذى أمره بهذا قادر على حمايتهما وإطعامهما وإسقائهما، وإيناس وحشتهما[1].

ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل ونادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟

قال: إلى الله.

قالت: رضيت بالله.

* وهكذا كان قلبها قد امتلأ ثقة ويقينًا وتوكلاً على الله (عز وجل) فهى تعلم أن الله لا يُضيع من استجاب لأمره وعاش على طاعته.

* * *

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ٤٣).

دعوة مباركة

. . . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1].

امتثال لقضاء الله (جل وعلا)

لقد امتثلت هاجر للقضاء المحتوم، وتحلَّت بالصبر الجميل، ومكثت تأكل من الزاد، وتشرب من الماء، حتى نفدا؛ فخوى بطنها، واحتملت ذلك صابرة، ولم تلبث أن جفَّ ضرعها، وأصبحت لا تجد لبنًا تُرضعه الطفل، وثقلت عليه وطأة الجوع والعطش، فبكى وانتحب، وصرخ وأمه تتقطع نفسها حسرات، ودموعها تنهمر بغزارة، وودت لو استطاعت أن تروى ظمأه بدموعها، حاولت أن تجد لها من مأزقها مخرجًا، فتركته مكانه، وسارت هائمة على وجهها، تعدو وتُهرول، وقد أحزنها بكاؤه ونحيبه،

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٣٧).

وأخذت تبحث عن الماء، وتفتش له عن غذاء.

* لقد مكثت أم إسماعيل أيامًا تشرب من تلك القربة التى تركها لها إبراهيم، وتأكل من ذلك التمر، وتسقى وليدها من لبنها، ولكن سرعان ما نفد التمر والماء، فعطشت وجاعت، وعطش صغيرها بعطشها، وجاع بجوعها، وأخذ يتلوى من العطش، فلم تطق النظر إليه، ودفعها ما رأت من أمره إلى أن تبحث له عما يروى ظمأه، ويُحيى نفسه.

وجدت الصفا أقرب مرتفع من الأرض إليها، والمرء عندما يريد أن يستكشف ما حوله، يرقى على مرتفع عالٍ، ليرى أكبر مساحة يمكنه البحث فيها والنظر إليها.

رقت الصفا ونظرت بإمعان، فلم تجد أحدًا، فانحدرت إلى الوادى مُيممة وجهها نحو الجبل الآخر القريب، وهو المروة فصعدت عليه، ونظرت كما نظرت من الصفا فلم تجد من ينجدها، ولا من يغيثها، وهكذا بقيت تتردد بين الصفا والمروة حتى أتمت سبعًا، وكانت فى أثناء ترددها بينهما تمر بطفلها تطمئن عليه، وتستطلع أحواله، ثم تعود لتتابع التردد والنظر، وكان هذا السعى أول سعى بين الصفا والمروة، وقد أصبح هذا السعى الذى ابتدأته هاجر

مَعْلمًا من معالم الحج والعمرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾(١).

عادت هاجر بعد المرة السابعة وهى مُجهدة متعبة تلهث، وجلست بجوار ابنها الذى كان صوته قد بُحَّ من البكاء والعطش، أصابها الإعياء من الجهد، وأصاب ولدها مثله من البكاء.

وهنا . . . وفى هذه اللحظة اليائسة أدركتها رحمة الله عز وجل الرحيم بكل شىء، وأرسل لها جبريل عليه السلام فبحث بعقبه أو بجناحه عند موضع قدم إسماعيل فانفجرت بئر زمزم، وفار الماء من البئر، أنقذت حياة الطفل والأم، . . . راحت الأم تغرف بيدها وتشرب وهى تشكر الله، وشربت وسقت طفلها، بحثت عن الماء من فوق الربوات المشرفة، فأخرج الله لها الماء من تحت أقدام الوليد الصغير، ولا شك أن فرحة أم إسماعيل كانت عظيمة غامرة، فالحرمان من الماء يعنى موتها وموت صغيرها، وانبثاق الماء فيه حياتها وحياة



(١) سورة البقرة: الآية: (١٥٨).

صغيرها، وحياة الوادى الذى حلت فيه.

ويترجح لدىَّ أن جبريل عليه السلام تمثَّل فى صورة رجل حتى رأته هاجر وكلمها وكلمته، كما كان يتمثل فى عهد الرسول ﷺ فيراه الصحابة، ويسمعونه .. يدلك على هذا أن الرسول ﷺ لم يره إلا مرتين على صورته التى خلقه الله عليها، وعندما رآه أول مرة خاف خوفًا شديدًا.

وقد سارعت أم إسماعيل بدافع الغريزة الحريصة على جمع الماء وإحراز أكبر قدر منه إلى صنع حوض يجمع الماء ويرفعه، وأخذت تملأ منه قربتها، ولو قُدر لها أن تتركه يجرى ويسيل، لأصبح عينًا جارية، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ : «**يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم لكانت زمزم عينًا معينًا**»(1).

جاء الله أم إسماعيل بالماء الذى روى عطشها، وحرك الحليب فى ثديها، فسقت طفلها، وطمأنها الملك قائلاً: (لا تخافوا الضيعة) وبشرها بأن هذا الغلام سيبنى مع والده بيت الله، وأن الله لا يُضيع أهله.

(1) صحيح: رواه البخارى (٢٣٦٨).

وأتم الله النعمة على إسماعيل وأمه

* لقد أتم الله على إسماعيل وأمه النعمة، فساق إليهم من يساكنهم في ديارهم، فيأنسون به، وتزول بذلك عنهم الوحشة، فقد مر قريبًا منهم رفقة من قبيلة جُرهم، فنزلوا أسفل مكة، فرأوا طيورًا تحوم في الفضاء، وكانوا يعلمون أن مثل هذا الحومان لا يكون من الطير إلا حيث يوجد ماء فإن الطائر العابر يمضي في طريقه لا يتوقف، أما الطيور التي تحوم في الفضاء على النحو الذي شاهدوه، فهي الطيور التي ترد الماء، وتدور حوله، إلا أنهم تشككوا في صدق حدسهم، لأنهم خبراء بهذه النواحي، وهم يعلمون أن هذا الوادي لا ماء فيه ولا سكان، ولقد قطعوا الشك باليقين فأرسلوا من يأتيهم بالخبر، فعاد إليهم الرسول يخبرهم بما رأى، فانطلقوا إلى حيث أم إسماعيل، ورأوا بأعينهم الخير المتدفق من الصخر، فأعجبهم ذلك، واستأذنوا أم إسماعيل في الإقامة معها، فأذنت لهم، واشترطت عليهم أنه لا حق لهم في الماء، ... ولكن أصل العين لها ولابنها،

فأرسلوا إلى أهليهم، وسكنوا بجوارها[1].

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن الداعية إذا وجد أن دعوته لا تُثمر في هذا المكان الذى يدعو فيه إلى الله .. فعليه أن يرحل ليغرس بذرة التوحيد فى مكان آخر .. ولقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) كلما وجد الناس لا يستجيبون لدعوته كان يترك هذا المكان بعد ما يبذل أقصى ما عنده ويذهب لمكان آخر عسى الله أن ينفع بدعوته هناك.

(٢) أن الداعية الذكى لابد أن يبتكر أساليب جديدة للدعوة إلى الله ... فلقد رأينا كيف كانت الطريقة الفريدة التى قام بها إبراهيم (عليه السلام) مع الذين كانوا يعبدون الكواكب والنجوم.

(٣) أن الداعية لا ينظر إلى راحته هو بل لا بد أن يفعل كل ما هو أصلح لنجاح الدعوة حتى ولو ضحى من أجل ذلك بكل شيء فى سبيل نجاح دعوته وفوزه برضوان الله (جل وعلا).

---

(١) صحيح القصص النبوى (ص٤٤، ٤٦).

(٤) أنه يجوز التعريض بالكلام من أجل النجاة من ظلم الظالمين .. فلقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) لما دخل مصر وعلم أن هذا الحاكم الظالم يريد أن يأخذ زوجته قال لها: قولى له أنك أختى لأن هذا الملك كان لا يأخذ الأخوات وإنما يأخذ الزوجات .. وكان إبراهيم (عليه السلام) يقصد أنها أخته فى الله.

(٥) أن الدعاء هو أعظم سلاح للمؤمن.. وكلما ازداد تضرع وإخلاص العبد لله كلما كانت الإجابة سريعة.. فلقد رأينا كيف أن سارة لما دخلت على هذا الملك الجبار ظل إبراهيم (عليه السلام) يدعو حتى عادت إليه سالمة غانمة.

(٦) أن الزوجة الصالحة قد تفعل شيئًا لا تريده بل تكرهه .. ولكنها تفعله من أجل إرضاء وإسعاد زوجها.. فلقد رأينا كيف أن سارة قدمت هاجر لتكون زوجة لزوجها إبراهيم (عليه السلام) وذلك لأنها كانت لا تُنجب فأرادت أن تُدخل السعادة على زوجها بأن يكرمه الله بالولد من هاجر.

قصة الذبيح

شب إسماعيل - عليه السلام - وصار يسعى في مصالحه كأبيه إبراهيم - عليهما السلام - وسُرَّ إبراهيم بإسماعيل الذى يرافقه الآن فى الحياة، ها هو ذا يأنس بابنه الوحيد إسماعيل.. لقد بلغ من العمر بضعة عشر عامًا.

* وذات يوم نام إبراهيم - عليه السلام - فرأى فى المنام أنه يذبح إسماعيل.. و«**رؤيا الأنبياء وحى**»(١).

* أدرك إبراهيم - عليه السلام أنها إشارة من ربه للتضحية.. فماذا؟ إنه لا يتردد.. ولا يخطر له إلا خاطر الإيمان والتسليم..

* **لم يسأل:** لماذا يأمرنى ربى بذبح ابنى الوحيد؟! ولم تراوده الظنون.. لقد تغلب - بفضل الله - على جميع الوساوس.

* **عرض إبراهيم رؤياه على إسماعيل...:** ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾(٢).

* إن إبراهيم - عليه السلام - عرض على ابنه أمر الله ليأخذ ذلك طاعة وإسلامًا لينال أجر الطاعة.. وليسلم

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٨٥٩).

(٢) سورة الصافات: الآية: (١٠٢).

هو الآخر، ويتذوق حلاوة التسليم[1].

ستجدنى إن شاء الله من الصابرين

فماذا يكون من أمر الغلام، الذى يُعرض عليه الذبح، تصديقًا لرؤيا رآها أبوه؟ .. إنه يرتقى إلى الأفق الذى ارتقى إليه من قبل أبوه: ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[2].

إنه يتلقى الأمر لا فى طاعة واستسلام فحسب. ولكن فى رضى كذلك وفى يقين.

* وذهب إبراهيم (عليه السلام) وأحضر سكينًا لذبح ولده الوحيد .. وفى مشهد عجيب يصور لنا صبر الخليل (عليه السلام) ورضاه بقضاء الله ألقى ابنه على وجهه بكل رحمة من أجل أن يذبحه وينفذ أمر الله (جل وعلا) لكن دون أن يرى وجهه فتأخذه الشفقة عليه.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾[3] أي: استسلما لأمر الله وعزما على

(١) نساء الأنبياء / أحمد خليل جمعة (ص: ٢٥٠).
(٢) سورة الصافات: الآية: (١٠٢).
(٣) سورة الصافات: الآية: (١٠٣).

ذلك ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[1] أي: ألقاه على وجهه .. وبدأ إبراهيم يَمُر السكين على حلق إسماعيل فلم تقطع شيئًا.. وإذا بالحق (جل وعلا) يناديه: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

كان الابتلاء قد تم. والامتحان قد وقع. ونتائجه قد ظهرت. وغاياته قد تحققت. ولم يعد إلا الألم البدنى، وإلا الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء. ولا يريد دماءهم وأجسادهم فى شيء.

فعند ذلك نودى من قبل الله عز وجل: ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[3] أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك.



* ومن أجل ذلك فلقد فدى الله سيدنا إسماعيل (عليه السلام) بكبش كبير رعى فى الجنة أربعين سنة .. فأخذه إبراهيم (عليه السلام) وذبحه بدلاً من ولده.

(١) سورة الصافات: الآية: (١٠٣).

(٢)، (٣) سورة الصافات: الآيتان: (١٠٤، ١٠٥).

وصار هذا اليوم عيدًا للمسلمين يذبحون فيه الذبائح قدوة بخليل الله إبراهيم (عليه السلام).

﴿ وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) وتركنا عليه في الآخرين (١٠٨) سلام على إبراهيم ﴾[١].

البشرى بإسحاق (عليه السلام)

لقد أسلفنا أن إبراهيم كان قد أرسل لوطًا (عليهما السلام) إلى أهل مدينة سدوم ليدعوهم إلى عبادة الله (جل وعلا) وإلى أن يتركوا تلك الفاحشة التي كانوا يفعلونها فلما لم يستجيبوا له ويئس لوط من هدايتهم لجأ إلى الله (عز وجل) وقال: ﴿رب انصرني على القوم المفسدين﴾[٢]. فأرسل الله ملائكة في صورة شبان في غاية الحسن والجمال، فمروا أولاً على إبراهيم (عليه السلام).

* ذهب الملائكة إلى إبراهيم (عليه السلام) وكانوا ثلاثة هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل فلما رآهم إبراهيم (عليه السلام) لم يعرفهم في بادئ الأمر فبادروه بالتحية

(١) سورة الصافات: الآيات: (١٠٧، ١٠٩).
(٢) سورة العنكبوت: الآية: (٣٠).

قالوا: سلامًا .. قال: سلام.

ثم قام ورحب بهم وأدخلهم بيته وهو فى تلك اللحظة يظن أنهم ضيوف.. ونحن نعلم أن إبراهيم (عليه السلام) كان يحب إكرام الضيف.

* فلما جلسوا قام فى التو واللحظة إلى زوجته سارة ليخبرها بأنه قد جاءه ضيوف فلابُد من إكرامهم.

فسألته: من هم؟ ويا ترى من أين جاؤوا؟

فقال لها: لا أعرف ولكن هيا لنكرمهم.

* قام إبراهيم (عليه السلام) وشوى لهم عجلاً سمينًا وأعد لهم المائدة ثم قدم الطعام بين أيديهم وطلب منهم أن يأكلوا .. وبدأ يأكل أمامهم حتى لا يشعرون بالخجل.. ولكن المفاجأة التى أذهلته أنه رأى الضيوف لا يأكلون شيئًا فقال لهم: ﴿أَلا تَأْكُلُونَ﴾[1].

فلما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[2] وذلك لأن تقاليد أهل البادية أن الضيف إذا امتنع عن الطعام فمعنى ذلك أنه يريد بصاحب البيت شرًا.

(١) سورة الذاريات: الآية: (٢٧).
(٢) سورة الذاريات: الآية: (٢٨).

* وكان إبراهيم (عليه السلام) قد لاحظ بعض الأشياء منذ قدومهم عليه، فقد دخلوا عليه فجأة حتى أنه لم يرهم إلا وهم عند رأسه .. وكذلك لم يكن معهم أى دواب تحملهم رغم أنهم ليسوا من أهل البلد فقد جاؤوا من سفر وليس عليهم أى أثر لتراب ومشقة السفر .. وها هو يدعوهم إلى الطعام فلم يأكلوا.

وكأن الملائكة أحسوا بما يدور فى قلب إبراهيم (عليه السلام) فقال له الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[1] أخبروه أنهم فى مهمة إلهية عُلوية من لدن عليم حكيم، وهذه المهمة يجب تنفيذها سريعًا .. ذكروا له أنهم أُرسلوا إلى قوم مجرمين، قوم لوط حتى يُرسلوا عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين .. أخبروه بأن لوطًا استنصر ربه لينصره على القوم المفسدين، فبعثهم الله لنصرته.

وها هم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فاستبشرت عند ذلك سارة غضبًا لله عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشارًا بذلك، قال الله

(١) سورة هود: الآية: (٧٠).

تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[1] أي: بشرتها الملائكة بذلك: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾[2] أي: في صرخة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾[3] أي: كما يفعل النساء عند التعجب، وقالت: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[4] أي: كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضًا، وهذا بعلي - أي: زوجي - شيخًا؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[5][6].

* نسيت سارة أن الملائكة الكرام هم الذين يحملون البشرى من عند مليك مقتدر، . . . ردها الملائكة إلى الحقيقة الإلهية، حقيقة القدرة التي لا يقيدها شيء، إنها القدرة الإلهية التي تدبر كل أمر بحكمة وعلم: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[7].

* لا أستطيع هنا أن أصف لكم كيف كانت فرحة إبراهيم (عليه السلام) وزوجته سارة بهذه البشرى . . فإنه لم يكن لإبراهيم سوى ولد واحد هو إسماعيل وقد تركه

---

(١) سورة هود: الآية: (٧١).

(٢)، (٣) سورة الذاريات: الآية: (٢٩).

(٤)، (٥) سورة هود: الآية: (٧٢).

(٦) قصص الأنبياء (ص: ٢٠١).

(٧) سورة هود: الآية: (٧٣).

هناك في مكة .. وزوجته سارة كانت عقيمًا فلم تُنجب قبل ذلك وكانت تشعر بحنين للولد خصوصًا بعد أن أنجبت هاجر سيدنا إسماعيل (عليه السلام).

* لقد بشرتها الملائكة بعد هذا العمر الطويل أنها ستلد غلامًا بل وبشرتها بأن ابنها سيكون له ولد اسمه يعقوب ستشهد مولده وتشهد حياته بعد كل هذا الصبر الطويل.. لقد تعجبت سارة!!!

* وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾[١] أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه، فبشروهما ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[٢] وهو إسحاق أخو إسماعيل، غلام عليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[٣].

* **قال القرطبي - رحمه الله -:** كان بين البشارة

(١) سورة الحجر: الآيتان: (٥٤، ٥٥).
(٢) سورة الحجر: الآية: (٥٣).
(٣) سورة هود: الآية: (٧١).

والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك، فولدت وهى بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة(١).

* ولكن بعد هذه الفرحة والبشرى الجميلة تذكَّر إبراهيم (عليه السلام) أن الملائكة جاؤوا لتدمير قوم ابن أخيه لوط فأخذ يجادلهم ويقول لهم: انتظروا فربما يؤمن قوم لوط أو يؤمن بعضهم ولكن الملائكة أخبروه بأن الأمر ليس لهم وإنما هو أمر الله وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .. فعندها سكت إبراهيم (عليه السلام) بعدما علم أن هذا بأمر من الله.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾(٢).

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن المسلم يرفع دائمًا شعار: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾(٣) فينفذ أمر الله (جل وعلا) حتى ولو كان على غير

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٤٧).
(٢) سورة هود: الآيات: (٧٤ - ٧٦).
(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٨٥).

مراده . . فقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) بعد ما رزقه الله بولده إسماعيل (عليه السلام) بعد عمر طويل رأى رؤيا بأنه يذبح ولده - ورؤيا الأنبياء وحي - فقام في التو واللحظة ليذبح ولده ولينفذ أمر الله .

(٢) أن الله قال : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[١] وقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) لما قام لينفذ أمر الله ويذبح ولده جعل الله له مخرجًا من ذلك فعفا عنهما ثم رزقه بكبش رعى في الجنة أربعين سنة ليكون فداءً لإسماعيل (عليه السلام) .

(٣) أن إكرام الضيف واجب وهو من الإيمان بالله واليوم الآخر . . فقد قال النبي ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٢] .

وقد رأينا كيف أن إبراهيم - عليه السلام - لما جاءته الملائكة وظن أنهم ضيوف قام بسرعة وشوى لهم عجلاً سمينًا .

(٤) أن المؤمن إذا جاءته البشرى أو جاءه ما يسره فإنه لا بد أن يتوجه بالشكر لله (جل وعلا) .

---

(١) سورة الطلاق : الآيتان : (٢ ، ٣) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٦٠١٩) ، ومسلم (٤٨) .

(٥) أن الملائكة عباد الله (جل وعلا) .. وهم لا يأكلون ولا يشربون.. ولقد أعطاهم الله القدرة على التشكل فى صورة البشر.. ثم هم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(٦) أنه لا يأس ولا قنوط .. فالله قادر على كل شيء فها هو الحق (جل وعلا) يرزق سارة بالولد بعد أن صارت عجوزاً وكانت عاقراً لا تلد ولكن الله إذا أراد أمراً هيأ أسبابه.

(٧) أن المؤمن لا يتمنى الشر لأحد .. ولذا فقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) لما علم أن الملائكة نزلوا لتدمير وإهلاك قوم لوط أخذ يجادلهم ويقول لهم : لعلهم يؤمنوا .. فلما علم أن هذا أمر الله (جل وعلا) سكت عند ذلك لأنه لا يجوز أن نجادل فى أوامر الله (جل وعلا).

زواج إسماعيل عليه السلام

لقد علمنا أن إبراهيم (عليه السلام) قد ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل - عليه السلام - بمكة وكان يزورهما بين الحين والحين ليطمئن عليهما.

ولقد عاش إسماعيل (عليه السلام) فى مكة وتعلَّم

أشياء كثيرة بسبب مجاورته لقبيلة جُرهم وغيرها من القبائل التي سكنت بجوارهم.

* وكبر إسماعيل وتزوج، «فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته[1]، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا[2]، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة. فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه[3]. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنّا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيِّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك. فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن

(١) يطالع تركته: أي يتفقد حال ما تركه هناك.

(٢) يبتغي لنا: أي يطلب لنا الرزق.

(٣) يغير عتبة بابه: أي يُطلق زوجته.

بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء». قال النبى ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَب، ولو كان لهم دعا لهم فيه»، قال: «فهما لا يخلوا عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه». قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومُريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة - وأثنت عليه - فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير، قال: فأوصاك بشىء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبى، وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك...»[1].

* لقد شب إسماعيل فى هذه البيئة كأحسن ما يشب الفتيان، وكان يتدفق حيوية ونشاطًا، وزانه خلق كريم، وسجايا عظيمة، فأحبه مجاوروه، وقدروه وزوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل بعد أن شب وليدها، واطمأنت عليه، وجاء إبراهيم يستطلع تركته، فلم يجد إسماعيل فى منزله، فقد خرج يطلب القوت والطعام لأهله، وشكت زوجة إسماعيل

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٣٦٤) أحاديث الأنبياء.

معيشتها، لما سألها عنها، وأخبرته أنهم فى شدة وضيق، فطلب منها أن تُقرِئَ زوجها السلام، وأمره بتغيير عتبة داره.

لم تكن تعلم الزوجة أن الشيخ الذى مر بها هو والد إسماعيل، كما أنها لم تكن تعلم أن الرسالة التى نقلتها إلى زوجها كانت تطلب طلاقها، وقد فعل الابن ما أمره به والده، وطلق زوجته.

لقد رأى إبراهيم عليه السلام أن هذه المرأة لا تصلح أن تكون زوجة لنبىٍّ رسول، يُعد لأن يسود ويقود، ويربى أهله وأولاده والناس من حوله، فالزوجة التى تطيل الشكوى، وتكثر التبرم لا يمكنها أن تكون عونًا لزوجها على المهمات الكبار التى يُعد لها.

وعندما عاد إبراهيم فى المرة الثانية وجد امرأة أخرى يخالف حالها من كانت قبلها، فرضى بزواج ابنه منها، وأمره بإمساكها، وقد سألها عن معيشتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله وحمدته، وسألها عن طعامهم وشرابهم، فقالت: اللحم والماء، فدعا لهم إبراهيم بالبركة فى اللحم والماء، ولو كان لهم حب

يأكلون منه لدعا لهم فيه كما أخبر الرسول ﷺ.

وكان من بركة دعاء إبراهيم - كما أخبر الرسول ﷺ - أن اقتصار أهل مكة على اللحم والماء لا يضرهم، بينما يضر من اقتصر عليهما من غيرهم[1].

قصة بناء البيت

كان سيدنا آدم (عليه السلام) هو أول من بنى الكعبة.. وقيل أن الملائكة هم الذين بنوا الكعبة، ولكن تهدمت الكعبة بعد مرور القرون الطويلة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

* ثم أوحى الله إلى إبراهيم (عليه السلام) أن يبنى البيت مرة أخرى ويرفع قواعده.

* وكان إبراهيم (عليه السلام) يذهب إلى زوجته هاجر وابنه إسماعيل (عليه السلام) ليطمئن عليهما.

* وفي إحدى هذه الزيارات جاء إبراهيم (عليه

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ٤٦، ٤٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٩٦).

السلام) يزور ابنه، ويستطلع أحواله، فوجده هذه المرة فى الديار، جالسًا يبرى نبله تحت تلك الدوحة التى تركه تحتها صغيرًا عندما جاء به أول مرة لتلك الديار، فقام إسماعيل إليه، فصنعا ما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد من التسليم والمعانقة والتقبيل ونحو ذلك، وأخبره بأمر الله له ببناء البيت الحرام، وأنه أمر إسماعيل بإعانته على بناء البيت، فبادر إسماعيل إلى طاعة أمر الله، فبنى إبراهيم البيت، وساعده فى ذلك إسماعيل، وكانا وهما يبنيان يدعوان قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1][2].

* قال تعالى مصورًا هذا المشهد الجليل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٢٧).
(٢) صحيح القصص النبوى (ص: ٤٧).
(٣) سورة البقرة: الآيات: (١٢٧ - ١٢٩).

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً

* ولما تم بناء البيت نودى إبراهيم عليه السلام :

﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق (٢٧) ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٢٨) ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾(١) .

- وتقبل الله من خليله عليه السلام، فجعل البيت الذى بناه قبلة للموحدين ومهوى أفئدة المؤمنين، وملاذ الخائفين.. وضمن الله جل وعلا لسكان البيت الرزق والأمن.

قال تعالى: ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾(٢) . . . وقال : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾(٣) .



- وتقبل الله من نبيه ورسوله إبراهيم عليه السلام فجعل ذريته أمة مسلمة، وبعث فى الأمة العربية رسولاً منهم

(١) سورة الحج : الآيات: (٢٧ - ٢٩).

(٢) سورة القصص : الآية: (٥٧).

(٣) سورة قريش : الآيتان: (٣، ٤).

يعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الشرك وسائر الأرجاس، وكان محمد ﷺ هو هذا النبى الذى ختم الله به أنبياءه ورسله، واختاره الله من ولد إسماعيل عليه السلام.

قال ﷺ : «**أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام**»[1].

- وتقبل الله من إبراهيم عليه السلام، فأراه المناسك كلها، وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج، فاستجاب الناس لهذا النداء، وأخذوا من كل مكان يأتون إلى بيت الله الحرام رُكبانًا ومُشاةً، وكان الحج قبل الإسلام فكان العرب يحجون إلى بيت الله الحرام، وأصبح الحج ركنًا من أركان الإسلام الخمسة.

وها نحن نرى المسلمين يتواردون إلى مكة من كل فجٍّ عميق، وينطلقون فى حشد لم يعرف ولن يعرف التاريخ مثله فى العدد والنظام، ووحدة المشاعر والهدف، وجميعهم يرددون بصوت واحد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

مئات الألوف من الناس يقفون يوم التاسع من ذى

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٧٠٠)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح السيرة النبوية (١/ ٥٤).

الحجة في كل عام في أرض عرفـات . . يقفون وقد خلعوا ملابسهم إلا لباس الإحرام، وأقبلوا على الله داعين مُلبين.

وحان وقت الرحيل

وبعد هذا العـمر المبارك الذى بذل فيه إبراهـيم (عليه السلام) كل ما يملك لخدمة هذا الدين العظيم . . وإذا به ينام على فراش الموت ليلقى ربه (عز وجل) بقلب سليم.

قال ابن كثير - رحمه الله -:

* وقد مـاتت سارة قبله بقرية حـبرون التى فى أرض كنعان، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب، فحزن عليهـا إبراهيم عليه السلام، واشترى من رجل يقـال له: عفـرون بن صخـر مغـارة بأربعمـائة مثقال، ودفن فيها سارة هنالك . .

* قـالوا - يعنى: أهل الكتـاب -: ثم مـرض إبراهيم عليه الســلام، فلما مات، دُفن فى المغـارة المذكورة، عند امرأته سارة، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* **الدروس المستفادة من القصة :**

(١) أن الزواج من سنن المرسلين .. فلقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) قد تزوج وكذلك إسماعيل (عليه السلام) .. بل تزوج نبينا محمد ﷺ وقال عن الزواج إنه سُنته ثم قال : «**فمن رغب عن سنتى فليس منى**».

(٢) أن الزوجة الصالحة هى التى تحمد الله على كل حال ولا تُكلف زوجها فوق ما يطيق .

(٣) أن على الوالد أن يتفقد حال أولاده ويطمئن عليهم وعلى دينهم .. ولقد رأينا كيف كان إبراهيم عليه السلام يسافر إلى ابنه إسماعيل (عليه السلام) ليتفقد أحواله ويطمئن عليه .

(٤) أن المسلم لا بد أن يكون له بصمة فى هذه الحياة .. بمعنى أنه لا بد أن تقدم أى خدمة لدينك ولوطنك .. فلقد رأينا كيف قام إبراهيم وإسماعيل برفع قواعد البيت ابتغاء مرضاة الله (جل وعلا) وليكون قبلة للمسلمين .

(٥) لا تفرح بأى عمل تعمله حتى تعلم هل قَبِله الله

منك أم لا؟... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(١).

(٦) أن تحرص على أن تعيش على الطاعة وأن تموت على الطاعة.. فلقد رأينا كيف أن إبراهيم (عليه السلام) بذل حياته كلها لخدمة دين الله وللدعوة إلى الله (جل وعلا) حتى آخر لحظة في حياته.

* * *

(١) سورة المائدة: الآية: (٢٧).

قصة لوط (عليه السلام)

* كان لوط - عليه السلام - معاصرًا لإبراهيم - عليه السلام- وهو ابن أخيه وكان إبراهيم عليه السلام يحب لوطًا حبًّا شديدًا.

* آمن لوط بعمه إبراهيم - عليهما السلام - واهتدى بهديه وسار على دربه، كما ذكر الله تعالى فى القرآن: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

خرج لوط - عليه السلام - من أرض بابل فى العراق مع عمه إبراهيم تابعًا له على دينه مهاجرًا معه إلى الشام.. ثم مضوا إلى مصر .. ثم عادوا إلى الشام، فنزل إبراهيم فلسطين، ونزل لوط الأردن.

حقًّا .. إنهم قوم سوء

واستقر لوط (عليه السلام) بمدينة (سدوم)، وقد كان أهلُها ذوى أخلاق فاسدة، ونوايا سيئة، لا يتعففون عن

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٢٦).

معصية، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا من أفجر الناس، وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سريرة: يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويتربصون لكل سارٍ، فيجتمعون عليه من كل حدب وصوب، ويسلبونه ما حمل، ثم يتركونه يندب حظه، ويبكي ضياع ماله، لا يردهم عن ذلك دين، ولا يصدهم حياء، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

إنهم أُناس يتطهرون!!

لقد دعاهم لوط - عليه السلام - إلى عبادة الله، ونهاهم عن تعاطي الفواحش، وإتيان الذكور وقطع السبيل.. ولكن المفاجأة كانت كبيرة.. لم يستجيبوا لدعوة الحق، ولم يؤمنوا بدعوة لوط، بل لم يؤمن منهم رجل واحد.. ولم يتركوا ما نُهوا عنه.. بل استمروا على حالهم، وغرقوا فى غيّهم وضلالهم.. وأصروا وامتنعوا عن قبول أى كلام.. وتابعوا المسير فى طريق المعاصي.. وأعرضوا عن لوطٍ وعن دعوته.

وقف سيدنا لوط عليه السلام بين قومه يدعوهم إلى الله

سبحانه وتعالى، قال لهم فى رحمة ورفق: ﴿ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[١]. ونهاهم لوط (عليه السلام) عن الفواحش والمنكر، وبيّن لهم أن الإنسان العاقل المبصر لا يرتكب الفاحشة، ولا يأتى المنكر أبدًا، .... قال لهم مستنكرًا: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[٢].

ولكن القوم استكبروا، ... ساءهم أن يكون بينهم رجل طاهر لا يعصى الله ولا يرتكب الفواحش، كانت نفوسهم مريضة، ظنوا أن الرجل النقى الطاهر هو رجل لا ينبغى أن يعيش بينهم، فيكون جزاؤه الطرد والنفى فتنادوا: ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[٣].

وكان القوم يرتكبون الفواحش علانية فى ناديهم، لم يحاولوا أن يستتروا أو يداروا المنكر.

وجاهد لوط عليه السلام كثيرًا، لينقذ قومه ويهديهم إلى الحق، ولكن لم يؤمن به سوى أهله فقط، وللأسف

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٦١- ١٦٣).
(٢) سورة النمل: الآيتان: (٥٤، ٥٥).
(٣) سورة النمل: الآية: (٥٦).

لم تؤمن به زوجته، رغم ذلك لم ييأس سيدنا لوط (عليه السلام)، كان يدعو قومه دون ملل سنوات طويلة.

وها هم يستعجلون العذاب

وبعد أن بذل نبي الله لوط (عليه السلام) كل ما يستطيع أن يبذله من وقته وجهده لإخراج هؤلاء المجرمين من ظُلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.. وإذا بهم قد طُبع على قلوبهم فلم يقبلوا أي سبب من أسباب الهداية فقد عميت أبصارهم عن رؤية الحق وعميت قلوبهم عن قبول الهدى.

فلما رأى لوط (عليه السلام) منهم ميلاً عن طاعته خوَّفهم بأس الله وعذابه، فلم يأبهوا لتحذيره، واستخفوا بوعيده، فألحَّ عليهم بالعظات، وأنذرهم سوء العاقبة، ولكنهم لم يُقلعوا عما كانوا فيه، بل ازدادوا تعلُّقًا به، ورغبة فيه، وتحدّوه أن يأتيهم بالعذاب، ويُنزل عليهم ما يستحقون من عقاب.

* قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٢٩).

رب انصرنى على القوم المفسدين

سأل لُوط ربه أن ينصره على هؤلاء القـوم المفسدين ويُوقع بهم العـذاب الأليم، وطلـب منه أن يجـزيهم على كـفـرهم وعنادهم، ويعاقـبهم على بغيهم وفجـورهم، فَهُمُ الداءُ الوبيل الذى يُخـاف انـتـشـاره، والعـضـو المـريض الذى لا بد من استئصاله؛ ألم يعيشـوا فى الأرض فسادًا؟ ألم يصدوا عن سبيل الله، ويُصمُّوا آذانهم عن طريق الخير، ويتنكّبوا سُبل الهداية؟!

استجـاب الله دعاءه، وحقق سؤاله، وبعث مـلائكته إلى أهل هذه الـقـرية الظـالم أهلهـا، ليُنزلوا بهم مـا يستـحقون من عـقاب فمـروا أولاً بدار إبراهيم فحسـبهم عابرى سبيل، فقدم إليهم خيـر ما يُقدَّم للأضياف، ولكن أيديهم لـم تمتـد إلى الطعـام أو الشـراب بل بشـروه بمولد إسحاق (عليه السلام) وحـاول إبراهيم أن يجادلهم، ليؤخر العذاب عن قوم لوط، لعل بعـضـهم يؤمن بالله، ولكنهم أفهموه أنه أمر الله، وأنه لن يؤمن منهم أحد.

قـال المفسـرون: لما خـرج الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل ومـيكائيل وإسرافيل - أقبلـوا حتى أتوا أرض سدوم،

فى صور شبانٍ حِسان، اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطًا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشرًا من الناس، انطلق أمامهم، وجعل يُعرِّض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون فى غيرها، فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: وكانوا قد أُمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك[1].

امرأة لوط تدل القوم على أضياف زوجها

* بلغ لوطٌ وضيوفه بيته، وفى منزله هبط الضيوف، نزل هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بحُسن الوجوه، وجمال الأشكال، لم يكن هناك فى القرية من يعلم بقدوم هؤلاء غير لوط وامرأته بالإضافة إلى ابنتيه .. لم يشعر بالضيوف أحدٌ من أهل القرية .. شكر لوطٌ ربه وحمده على ذلك.

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٣٣، ٢٣٤) باختصار.

* رأت امرأة لوط هؤلاء الضيوف. جُنَّ جُنونها. ماذا تفعل لتخبر قومها؟! إنه صيد ثمين، وستكون منزلتها عندهم كبيرة .. يا لها من سعادة!

* من خلال الأحداث يبدو أن الضيوف الغرباء الذى يفدون على سدوم، كانوا ينزلون عند لوط - عليه السلام - وعندما تشعر امرأة لوط بأنَّ أحدًا قد طرق بابهم، تهرع إلى قومها وتخبرهم بمن عند لوط، فيسارع هؤلاء ليفسدوا أبشع أنواع الفساد الذى تأنف من فعله أحط الحيوانات، وليعتدوا على الأضياف بالفتك فى شرفهم وأعراضهم، وبهذا كانت امرأةُ لوط تهيئ لقومها سُبل الفاحشة، وتساعدهم على ارتكاب الجريمة البشعة .. جريمة اللواط.

* ولم تكتفِ امرأةُ لوطٍ بكفرها، وخيانة دين الله الذى يدعو إليه زوجها، وإنما كانت تدل على لوط، وتغرى به أكابر المجرمين ليكذبوه ويصدوه عن سبيل الله، وزادت من حجم جريمتها أنها كانت تفشى سرَّه وتعاديه فى دينه، وتبطن النفاق، ثم تظاهر على لوط (عليه السلام) لذلك لم يُغن لوطٌ عنها على الرغم مما بينها وبينه من وصلة الزواج، ... وحكم عليها فى محكمة العدل

الإلهيـة بالنار، ومن قبلهـا امرأة نوح، وقد ذكـرهما الله بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(١).

وجاءه قومه يُهرعون إليه

قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾(٢).

* بسرعة الرياح انتشر الخبر فى القرية كانتشار النار فى الهشـيم، أشعلت امرأة لوط نارًا لـيعلم أهل القرية بخـبر الأضياف، ثم تسللت وانسلت إلى قومها فى ناديهم لتخبر من لم يروا نارها التى أشـعلتها، قـالت لفوج منهم: إنى رأيتُ رجـالاً لم أر أحـسن منهم وجـوهًا وهم عند لوط الآن . . وإن بناته هناك يعدون الطعام لهم، فـهلموا قبل فوات الأوان . . ثم انـتقلت إلى آخرين وقـالت لهم: إنَّ لوطًا قد أضـاف الليلة فتـيةً مـا رؤى مثلهم جـمالاً، ولا أطيب رائحة، فأسرعوا قبل أن يرتحلوا.

(١) سورة التحريم: الآية: (١٠).
(٢) سورة هود: الآية: (٧٨).

وجاء القوم مسرعين، فخرج سيدنا لوط إلى قومه، فطالبوه بالرجال الثلاثة الذين يستضيفهم في منزله، فوقف يخاطبهم: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾(١)؟!

لقد كان يأوي إلى ركن شديد

وحاول قدر طاقته أن يحمي ضيوفه، ولكنه أدرك أنه رجل وحيد، لن يستطيع أن يهزم رجال قومه كلهم.

وأسقط في يد لوط، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم، نازح إليهم من بعيد، لا عشيرة له تحميه، وليس له من قوة في هذا اليوم العصيب، وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(٢).

قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية - الذين جاء الملائكة في صورتهم - وهم صغار صباح الوجوه؛ ولكنهم - في نظره - ليسوا بأهل بأس ولا قوة.

(١) سورة هود: الآية: (٧٨).

(٢) سورة هود: الآية: (٨٠).

فالتفت إليهم يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة. أو لو كان له ركن شديد يحتمي به من ذلك التهديد!

وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد. ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد»[1] !.

دخل لوط غاضبًا وأغلق باب بيته، وضع المزلاج في الباب ووقف يستمع إلى الضحكات والضربات التي تنهال على الباب.

وقف لوط عليه السلام يرتعد وراء الباب حزنًا وأسفًا، كان الغرباء الثلاثة الذين استضافهم لوط يجلسون هادئين صامتين، يحف بهم جو من الجلال، ودُهش لوط (عليه السلام) بينه وبين نفسه من هدوئهم، وزاد إحساسه بالألم؛ لأنهم وثقوا به واطمأنوا إليه، لا يعرفون أنه غير قادر على حمايتهم، وازدادت ضربات القوم على الباب، وصرخ لوط في لحظة يأس خانق:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[2].

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها وبلغ الكرب

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٨٧)، ومسلم (١٥١).

(٢) سورة هود: الآية: (٨٠).

أشُدُّه . . كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى يأوى إليه: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ (١)(٢).

لا تجزع يا لوط ولا تخف، نحن من الملائكة، ولن يصل إليك هؤلاء القوم، انكسر الباب فجأة، واندفع الإعصار المحموم داخل بيت لوط عليه السلام، نهض جبريل عليه السلام، وأشار بيده إشارة سريعة، ففقد القوم أبصارهم، وراحوا يتخبطون داخل الجدران فخرجوا من البيت وهم يظنون أنهم يدخلونه، طمست إشارة جبريل عليه السلام أبصارهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (٣).

التفتت الملائكة إلى لوط عليه السلام وأوصوه أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج، وسيسمعون أصواتًا مروعة تزلزل الجبال، لا يلتفت منهم أحد، كى لا يصيبه ما يصيب القوم، سبحان الملك الجبار سبحانه، أى عذاب هذا؟، هو عذاب من نوع غريب!! يكفى لوقوعه بالمرء

(١) سورة هود: الآية: (٨١).

(٢) الظلال (٤/ ١٩١٤).

(٣) سورة القمر: الآيتان: (٣٧، ٣٨).

مجرد النظر إليه، أفهموه أن امرأته كانت من الغابرين، امرأته كافرة مثلهم وستلتفت خلفها فيصيبها ما أصابهم.

اخرج يا لوط فقد جاء أمر ربك، سأل لوط الملائكة: أينزل الله العذاب بهم الآن، أنبأوه أن موعدهم مع العذاب هو الصبح: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾(1)؟!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(2)(3).

وهذا كله موجود في القرآن، والجديد الذي لم يُذكر في القرآن أن الذي نجا من أهله من عذاب الله بناته الثلاث، فسار بأهله إلى أرض الشام، فماتت ابنته الكبرى أثناء مسيره في أرض الشام، فأخرج الله عندها عين ماء يقال لها: الورية، ثم انطلق مبتعدًا عن ديار المعذَّبين فماتت الصغرى، وخرج في المكان الذي توفيت فيه عين ماء تدعى الرعزية، ولم يبق من بناته معه إلا ابنته الوسطى(4).

---

(1)، (2) سورة هود: الآية: (81).

(3) ابن الإسلام (ص: 113).

(4) صحيح القصص النبوي (ص: 65).

﴿ فلمَّا جاء أمرُنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجِّيلٍ منضودٍ (٨٢) مسوَّمةً عند ربِّك وما هي من الظَّالمين ببعيد ﴾(١).

قال العلماء: اقتلع جبريل عليه السلام، بطرف جناحه مُدنهم السبع من قرارها البعيد، رفعها جميعًا إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة في السماء أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلب المدن السبع وهوى بها في الأرض، أثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم، حجارة صلبة قوية يتبع بعضها بعضًا، ومعلمة بأسمائهم، كل واحد منهم يصيبه حجره الخاص به، نزل عليه خصيصًا من السماء فيهلكه فورًا، ومقدرة عليهم، استمر الجحيم يمطرهم، وانتهى قوم لوط تمامًا، لم يعد هناك أحد، نُكست المدن على رؤوسها، وغارت في الأرض، حتى انفجر الماء من الأرض، هلك قوم لوط ومحيت مدنهم.

كان لوط عليه السلام يسمع أصواتًا مروعة، وكان الهواء خلفه يتمزق، وكان يحاذر أن يلتفت خلفه(٢).

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال إنها

(١) سورة هود: الآيتان: (٨٢ ، ٨٣).
(٢) ابن الإسلام (ص: ١١٤).

خرجت مع زوجها وبناتها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان.

* ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾(١) .

إنها آية باقية لم تندثر، يؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ**﴾(٢) .

أي بطريق مسلوك إلى الآن، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾(٣) .

يعنى إنها آية ظاهرة،... قال العلماء: إن مكان المدن السبع، بحيرة غريبة، ماؤها أجاج (مالح)، وكثافة الماء أعظم من كثافة مياه البحر المالحة، وفي هذه البحيرة صخور

(١) سورة الذاريات: الآيات: (٣٥- ٣٧).
(٢) سورة الحجر: الآية: (٧٦).
(٣) سورة الصافات: الآيتان: (١٣٧، ١٣٨).

معدنية ذائبة، توحى بأنها الحجارة التى ضُرب بها قوم لوط كانت شُهبًا مشتعلة، ويقال: إن البحيرة الحالية التى نعرفها باسم «البحر الميت»، هى مدن قوم لوط السابقة.

انطوت صفحة قوم لوط، امحت مدنهم وأسماؤهم من الأرض، سقطوا من ذاكرة الحياة والأحياء، وطُويت صفحة من صفحات الفساد، وتوجه لوط إلى إبراهيم، -زار إبراهيم عليه السلام- وقص عليه نبأ قومه، وأدهشه أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم، ومضى لوط عليه السلام فى دعوته إلى الله، مثلما مضى الحليم الأواه المنيب إبراهيم عليه السلام فى دعوته إلى الله سبحانه وتعالى مضى الاثنان ينشران الإسلام فى الأرض[1].

* وستبقى بحيرة قوم لوط وآثار ديارهم عبرة للظالمين حيثما كانوا، وإن من أبشع أنواع الحمق أن يغفل المشركون المتجبرون فى الأرض عن قدرة الله وشدة بطشه، ويركنوا إلى حولهم وقوتهم، وعليهم أن يتذكروا أن الله جلّت قدرته الذى أهلك قوم لوط بثوانٍ معدودات قادر على إهلاكهم وتمزيق مُلكهم مهما قويت شوكتهم وكثر عددهم وتزايد

(١) ابن الإسلام (ص: ١١٤، ١١٥).

بطشهم . . قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾[1].

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) حرص المسلم على أن يسيح فى الأرض لِيُبلغ دين الله (جل وعلا) للناس فى أقطار الأرض . . فقد رأينا كيف أن إبراهيم ولوطًا خرجا لتبليغ دعوة التوحيد فى أقطار الأرض.

(٢) أن الذنوب إذا كثرت فإنها تُعمى القلب وتُظلم البصيرة وتطمس الفطرة النقية . . فقد رأينا كيف أن الرجل من قوم لوط بدلاً من أن يلجأ إلى الزواج الحلال بامرأة عفيفة لجأ إلى فعل الفاحشة المحرمة مع رجل مثله . . فكان ذلك سببًا لنزول العذاب الأليم بهم.

(٣) يود العاصى أن كل من حوله يفعل مثل معصيته ليكونوا سواءً، فقد رأينا كيف أن قوم لوط كانوا يريدون أن يكون الناس جميعًا على نفس المعصية التى يفعلونها.

(٤) أن أهل الفساد لا يطيقون رؤية أهل الإيمان والتقوى؛ ولذلك قال قوم لوط عنه وعن بناته العفيفات

---

(١) سورة محمد: الآية: (١٠).

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

(٥) أن من حقوق الضيف حمايته من الأذى ودفع المكروه والسوء عنه .. فقد رأينا كيف أن لوطًا (عليه السلام) أخذ يدافع عن ضيوفه حتى لا يصل إليهم مكروه؛ لأنه لم يكن يعرف حتى هذه اللحظة أنهم ملائكة وأنهم لا يقدر أحد على إيذائهم.

(٦) أن خيانة امرأة لوط لزوجها لوط (عليه السلام) لم تكن خيانة زوجية وإنما كانت خيانة في الدين والعقيدة فقد كانت كافرة على دين قومها وكانت تتآمر معهم ضد زوجها.

(٧) أن الله يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته .. فلقد رأينا كيف أنزل الله بأسه وعذابه الشديد بقوم لوط.

(٨) أن الأنساب تنقطع بين المؤمنين والكافرين، فقد رأينا كيف أن العذاب نزل بامرأة لوط مع قومها لما كفرت بالله (جل وعلا) وكان من الممكن أن تكون مع زوجها لوط (عليه السلام) في أعلى درجات الجنة لو أنها آمنت بالله (جل وعلا).

---

(١) سورة النمل: الآية: (٥٦).

قصة شعيب (عليه السلام)

كان ياما كان.

كان هناك نبي كريم اسمه شعيب (عليه السلام) وكان يعيش في أرض إسمها مدين.

شعيب عليه السلام من ذرية مدين أحد أولاد إبراهيم عليه السلام .. وأمه بنت لوط عليه السلام .. وقد كانت بعثته بعد لوط؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[1] وقبل رسالة موسى ... عليه السلام .. لأن الله تعالى لما ذكر نوحًا ثم هودًا ثم صالحًا ثم لوطًا ثم شعيبًا أعقب ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[2] فدل على أن شعيبًا كان من قبل زمن موسى وهارون عليهما السلام.

* كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم (مدين) التي هي قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ... ومدين قبيلة عُرفت بهم، وهم من بني

(١) سورة هود: الآية: (٨٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٠٤).

مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل[١].

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها.

وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويُطففون فيهما، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص[٢].

* وكانوا فوق ذلك يقطعون الطريق ويُخيفون المارة ويُرهبونهم.

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم فى سُبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحلَّ الله بهم البأس الشديد، وهو الولى الحميد[٣].

دعوة إلى التوحيد

وعلى الرغم من أن قوم مدين وقعوا فى مخالفات كثيرة إلا أن شعيبًا (عليه السلام) بدأ معهم بأهم قضية فى

(١) تفسير الطبرى (٨/١٦٦).
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٤٤).
(٣) قصص الأنبياء: (ص: ٢٤٤).

الكون كله . . ألا وهى قضية التوحـيد والعقيدة؛ لأن الله يغفر الذنوب جميعًـا ما عدا الشرك فكان لا بد أن ينقذهم من الشرك أولاً ثم ينتـقل إلى مرحلة أخرى فـينهاهم عن سائر المخالفات التى يقعون فيها .

* قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[1] .

* فالتـوحيد هو أصل الأصـول وهو الذى جاء به كل الأنبياء والرسل.

فوظيفة الرسل والأنبياء أن يُعبِّدوا الناس لله (عز وجل) كما قال ربعى بن عـامر (لرستم): نحن قـوم ابتعثـنا الله لنُخرج العباد من عبادة العبـاد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

دعوة خالصة

وكان شـعيب (عليه السـلام) يوضح لهم أنه لا يريد من وراء دعوته مالاً ولا جاهًا ولا دنيا وإنما يريد أن يأخذ بأيديهم

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٥).

من ظلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

فدعوته خالصة ليس فيها شائبة من شوائب الدنيا الفانية.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

* وهكذا يجب أن يكون كل داعية مخلص .. لا يريد من وراء دعوته شيئًا من حطام الدنيا بل يريد وجه الله (جل وعلا) وعليه أن يتذكر قول النبي ﷺ - كما في الصحيحين -:

«ولأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمر النعم»[٢].

وها هو ينهاهم عن المنكر

وأخذ شعيب (عليه السلام) يواجه قومه بانحرافاتهم وهو يدعوهم بكل رحمة وشفقة فقد كان يستجيش مشاعرهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾[٣] وكأنه يقول لهم: أنا رجل منكم فلماذا لا تعبدون الله الذى خلقنى وخلقكم لتفوزوا الفوز الكبير

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٧٦- ١٨٠).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٣) سورة الأعراف: الآية: (٨٥).

فى الدنيا والآخرة فأنا لا أريد لكم إلا الخير والسعادة.

فبدأ (عليه السلام) يواجههم بكل الآثام التى يفعلونها فقال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾[١].

* وقال لهم فى موضع آخر: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢].

* ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى معجزة تدل على صدقى ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أى: أتموا للناس حقوقهم

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٨١ - ١٨٤).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان: (٨٥، ٨٦).

بالكيل الذى تكيلون به والوزن الذى تزنون به ﴿ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أى: لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تُنقصوهم إياها ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ أى: لا تعملوا بالمعاصى بعد إصلاحها ببعثة الرسل ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد فى الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لى فى قولى . . . ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى: لا تجلسوا بكل طريق تُخوّفون من آمن بالقتل.

قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ[1].

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم كما يقول الضالون فى هذا الزمان: «هذا الدين لا ينطبق مع العقل»؛ لأنه لا يتماشى مع أهوائهم الفاجرة. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ

(١) البحر (٤/ ٣٣٨).

كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ أى: كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزة فاشكروا الله على نعمته. ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ هذا تهديد لهم... أى: انظروا ما حل بالأمم السابقة حين عصوا الرسل كيف انتقم الله منهم واعتبروا بهم. ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾(١).

أى: إذا كان فريق صدقونى فيما جئتهم به وفريق لم يصدقونى فاصبروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين.

عناد واستكبار

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(٢).

* لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان، وبإيفاء الكيل والميزان، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا: أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التى عبدها آباؤنا؟ إن هذا لا

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٧).
(٢) سورة هود: الآية: (٨٧).

يصدر عن عاقل.... ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أي: وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أي إنك لأنت العاقل المتصف بالحلم والرشد؟ فهم لا يدركون - أو لا يريدون أن يدركوا - أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة، ومن صور العبودية، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل. فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة[1].

فطنة وذكاء

في هذه اللحظة أدرك شعيب (عليه السلام) أن قومه يسخرون منه وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الدين لا دخل له بالحياة اليومية وأنهم لهم الحق في أن يتعاملوا بأي صورة محرمة في البيع والشراء وسائر المعاملات دون أن يتدخل الدين في ذلك.

* لم يغضب شعيب (عليه السلام) لنفسه أبدًا بل تلطَّف

(١) الظلال (٤/١٩١٩).

معهم وتجاوز سخريتهم ولم يعاتبهم وانطلق فى دعوتهم إلى الحق وإلى طريق الفلاح والنجاح ووضح لهم أنه على بينة من ربه وأنه يعرف طريق الحق والخير ويدعوهم إليه وهو فى نفس الوقت لا يأمرهم بأمر وهو لا يفعله ولا ينهاهم عن شيء ليحقق لنفسه نفعًا من وراء ذلك.

كان عليه السلام قدوة حسنة

كان شعيب عليه السلام قدوة حسنة فى سمو خُلقه، ورجاحة عقله، وعفة نفسه، وعلو همته، وصفاء سريرته، فبعد أن دعا قومه إلى وحدانية الله تعالى، وإلى العدل والمساواة والرحمة قال بكل صدق وثقة: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١).

كأن لسان حاله يقول: يا قوم أنتم تعرفونني حق المعرفة، لقد وُلدت وترعرعت بينكم، وأنتم أهل قريتي

(١) سورة هود: الآية: (٨٨).

وأقربائى وجيرانى . . وتعلمون بأننى لم أكن فى يوم من الأيام مفسدًا فى الأرض، ولا صادًّا عن سبيل الله، وقد رزقنى الله منه رزقًا حسنًا، فما طففت الكيل والميزان، ولا ظلمت صاحب حق . . وأعمالى ترجمة أمينة لأقوالى، وليس فى خُلقى اضطراب ولا تناقض أو انفصام، وقُصارى القول فأنا أول المتمسكين بكل ما آمركم به، ولم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه.

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾[1]: إننى لا أبغى من وراء هذه الدعوة مالاً ولا جاهًا أو مغنمًا، وكل الذى أريده إصلاح أمور دينكم ودنياكم . . وأنا أعلم جيدًا بأن التوفيق والفلاح من الله وحده، ولهذا فقد توكلت عليه فى جميع أمورى، وإليه وحده أرجع فى كل ما نابنى، وأنا لا أرجو منكم أجرًا، ولا أخاف منكم ضرًّا.

ولأنه عليه السلام كان قدوة حسنة أُعجب به وبدعوته نفر من قومه وأخذ عددهم يزداد يومًا بعد آخر.

---

(١) سورة هود: الآية: (٨٨).

حرصه على هدايتهم

وما زال شعيب (عليه السلام) يجاهد معهم ويبذل كل طاقاته من أجل أن يأخذ بأيديهم إلى شاطئ النجاة ولكنهم كانوا في عماية عن رؤية الحق الذي كان أوضح من الشمس في وسط النهار.

فها هو يستجيش مشاعرهم مرة أخرى بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ ليعلموا أنه في غاية الحرص على هدايتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

قال تعالى مصورًا هذا المشهد أن شعيبًا (عليه السلام) قال لهم: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾[1].

أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب..

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ يعني: إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس[2].. أي: من وقت قريب.

(١) سورة هود: الآية: (٨٩).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٨).

يفتح لهم باب التوبة والمغفرة

ثم يفتح لهم - وهم فى مواجهة العذاب والهلاك - باب المغفرة والتوبة، ويُطمعهم فى رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾(١).

وهكذا يطوف بهم فى مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين.

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب، ومن سوء تقدير القيم فى الحياة، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب(٢).

تهديد ووعيد

وبعد كل هذا النصح والشفقة وإذا بهم يقومون ويهددون شعيبًا (عليه السلام): ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾(٣).

---

(١) سورة هود: الآية: (٩٠).
(٢) الظلال (٤/١٩٢١).
(٣) سورة هود: الآية: (٩١).

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: قالوا لنبيهم شعيب على وجه الاستهانة: ما نفهم كثيرًا مما تحدثنا به.

﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: لا قوة لك ولا عزّ فيما بيننا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي: ولولا جماعتك لقتلناك رميًا بالأحجار ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: لست عندنا بمكرم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك... ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾[1]؟ هذا توبيخ لهم أي: أتتركونني لأجل قومي ولا تتركونني إعظامًا لجناب الرب تبارك وتعالى؟ فهل عشيرتي أعز عندكم من الله وأكرم؟

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾[2] أي: جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[3] أي: إنه (جل وعلا) قد أحاط علمًا بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾[4] تهديد شديد أي: اعملوا على طريقتكم إني عامل على طريقتي؛ كأنه

(١)، (٢) سورة هود: الآية: (٩٢).
(٣) سورة هود: الآية: (٩٢).
(٤) سورة هود: الآية: (٩٣).

يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾[1] أي: سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾[2] أي: وتعلمون من هو الكاذب ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[3] أي: انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم[4].

درس لا يُنسى

وهنا يعلمنا شعيب عليه السلام درسًا لا تنساه الأجيال المؤمنة بالله ورسله .. نبي أعزل لا يملك جيشًا ولا حرسًا يدافعون عنه، ومع ذلك تراه يواجه قومه بانحرافاتهم، ويهاجم أعرافهم وقوانينهم، يطالب بتغيير نظام حياتهم .. وتحتدم المعركة بينه وبينهم ويتناقل الناس داخل مدين وخارجها أخبار شعيب مع قومه، ويخشى المشركون من خطر مؤكد تزداد آثاره يومًا بعد آخر، ويتطلعون إلى قتل هذا الرجل الذي يخالفهم ليرتاحوا منه، ويطفئوا نيران المعركة التي أجَّجها .. ولكنهم يتراجعون احترامًا وتقديرًا

(١)، (٢)، (٣) سورة هود: الآية: (٩٣).

(٤) صفوة التفاسير (٢/ ٣٠ ، ٣١).

لذويه وعشيرته الذين لم يغيروا دينهم ولم يتبعوه .. ويمر نبى الله بموقف فيه كثير من الحرج، فهو يعلم أنه لم يُرجم بسبب عشيرته ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾(١)، والاستفادة من الأقرباء وارد فى سير أنبياء الله ورسله وفى سير من تبعهم من المصلحين والمجددين .. ومن منا لا يعلم دور بنى هاشم وفى طليعتهم أبو طالب فى نصرة خاتم الأنبياء ﷺ؟ .. لقد دافعوا عنه، ورفضوا تسليمه مع أنهم كانوا مشركين ودافع كثير من المشركين فى مكة عن أقربائهم الذين أسلموا من أصحاب رسول الله وأجاروهم، ومن أشهر هؤلاء المشركين المُطعَم بن عدى.

وعهدنا بالناس يفرحون إذا وجدوا من ينقذهم من هلاك محقق، بل وبعضهم يتفاخرون بأقربائهم وعشيرتهم إذا هابهم الناس من أجلهم ولو كانوا سفهاء مشركين، أما نبى الله شعيب عليه السلام فقد أراد أن يفهم قومه وغير قومه فى عصره وفى كل عصر بأنه ليس من الذين يحرصون على الحياة الدنيا، وليس من الذين يخشون

(١) سورة هود: الآية: (٩١).

الموت إذا كان الموت فى سبيل الله (جل وعلا) . . والموت عند أنبياء الله ومن سار على نهجهم أمنية إذا كان من ورائه هداية الناس . . ولهذا صرخ شعيب عليه السلام فى وجه قومه بكل حزم وقوة: ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[1][2].

واستمروا فى الوعيد والتهديد

وكانوا كل يوم يزدادون عنادًا واستكبارًا وإصرارًا على الكفر الذى عاشوا عليه حتى إنهم لم يعرفوا قدر هذا النبى الكريم ولا منزلته العالية السامقة.

ووصل بهم الأمر إلى نهايته.. فها هم يعرضون على شعيب (عليه السلام) إما أن يُطرد خارج البلاد، وإما أن يترك الإيمان والتوحيد ويدخل معهم فى ملتهم الباطلة التى تقوم على الشرك بالله - عز وجل-.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ

(١) سورة هود: الآية: (٩٢).

(٢) منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله (الجزء الثانى) (ص: ١٠٦).

آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين ﴾[1] .

صدع شعيب بالحق، مستمسكًا بملته كارهًا أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها .. واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله، ﴿ قال أو لو كنا كارهين ﴾[2] .

أي: أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم ولو كنّا كارهين لذلك؟ والاستفهام للإنكار، ﴿ قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾[3]

أي: إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان وبصّرنا بالهدى نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب، وهذا تيئيس للكفار من العودة إلى دينهم ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾[4][5] .

إنه يفوض الأمر لله ربه، في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه .

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٨).

(٢) الظلال (٣/١٣١٨).

(٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

(٥) صفوة التفاسير (١/٤٥٩).

* لقد علموا بأن القضية جَدٌّ وأن زعامتهم مُهددة فانتقلوا معه عليه السلام إلى مرحلة أخرى وأخذوا يتحدثون فيها عن العنف والإرهاب، وراحوا يهددون نبي الله والذين آمنوا معه بالرجم والنفى والقتل، وظنوا أنهم سوف يعودون إلى دين قومهم وتهدأ العاصفة، ويتلاشى الخطر. وكان شعيب عليه السلام يعلم بأن قومه لا يمزحون، وسوف ينفذون تهديدهم عند الضرورة، ورغم ذلك فقد خيَّب ظنهم عندما قال لهم: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾(١).

لا:

- لن نعود إلى ملة الظلم والبخس والصد عن سبيل الله.
- لن نعود إلى ملة الذين يبغونها عوجًا في الأرض.
- لن نعود إلى ملة الملأ الذين يعبدون شهواتهم ومصالحهم.
- لن نعود بعد أن هدانا الله (جلَّ وعلا) إلى صراطه

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

المستقيم، وسوف نمضى فى تبليغ دعوتنا، وعليه وحده جل وعلا وتوكلنا فهو يكفينا أمر تهديدكم، وكل ما لم يجعله فى استطاعتنا من جهادكم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(١).

ولن نُقصر فى القيام بكل ما أوجبه الله علينا من الأحكام الشرعية ومن الأخذ بالأسباب.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾(٢).

ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذى مضت به سُنتك فى التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين سائر المحقين المصلحين، والمبطلين المفسدين فى الأرض، وأنت خير الحاكمين، لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم، وتنزهك عن الظلم، واتباع الهوى فى الحكم(٣).

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم. ليفتنوهم عن دينهم: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الطلاق: الآية: (٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

(٣) تفسير المنار (٩/٩) نقلاً من منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله.

(٤) سورة الأعراف: الآية: (٩٠).

إنها ملامح المعركة التى تتكرر ولا تتغير .. إن الظالمين يتوجهون أولاً إلى الداعية ليكف عن الدعوة. فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته، ولم يُرهبه التخويف بالذى يملكه الطغاة من الوسائل.. تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد، ثم بالبطش والعذاب .. إنهم لا يملكون حُجة على باطلهم، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب، ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم - وبخاصة تلك التى عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل - ولكنهم يستطيعون البطش بالمُصرين على الإيمان، الذين أخلصوا دينهم لله[1].

وها هم يستعجلون نزول العذاب

وكعادة الأمم الكافرة فإنهم لا يعرفون قدر عظمة الله - عز جل- ولا يخشونه حق الخشية؛ ولذلك نجدهم يستعجلون نزول العذاب ظنًا منهم أنه لا يقدر أحد على عذابهم حتى ولو كان فاطر السماوات والأرض -

(١) الظلال (٣/ ١٣٢٢).

جل وعلا-!! - تعالى الله عما يقولون عُلواً كبيراً.

فها هم يقولون لشعيب (عليه السلام) : ﴿إنَّمَا أنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

قال ابن كثير - رحمه الله -: يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها، .. تشابهت قلوبهم فقالوا: ﴿إنَّمَا أنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: المسحورين ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: تتعمد الكذب وإنك لست مرسلاً ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: أسقط علينا قطعًا من السماء، ... قالت قريش وأخبر عنهم الله تعالى في قوله عز وجل: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إلى أن قالوا.. ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾[2] وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ....﴾[3].

---

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٨٥ - ١٨٧).

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٩٠).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٧).

وها هنا انتهى الحوار

وها هنا انتهى الحوار، ولم يعد يجدى مع أهل مدين نُصحٌ ولا إرشاد، واستفرغ نبى الله وُسعه، وبذل أقصى ما وهبه الله جلَّ وعلا من جهد وطاقة، ولم يستجب له إلا نفر قليل من قومه.

ولما يئس من هدايتهم إلى الحق، وتبين إصرارهم على الكفر استنصر ربه عليهم، ودعاه أن يجزيهم على كفرهم وجحودهم، وتضرَّع إليه أن يُعجِّل لهم ما يستحقون من عذاب؛ ولكن القوم عن الحق لاهون، وعلى الدنيا مقبلون، وعما خبأ لهم القدر منصرفون، فرجعوا إلى القوم المؤمنين، وأعادوا الكلام على من ظنوهم مستضعفين، وخوفوهم الخسران إن تركوا الظلم وعاملوا الناس بالقسط، وهددوهم بالخراب إن لم يُطففوا الكيل والميزان، وحذروهم من الفقر إن لم يبخسوا الناس أشياءهم، ويعيثوا فى الأرض مفسدين[1].

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾[2].

(١) قصص القرآن / مجموعة من العلماء (ص: ١٥٥).
(٢) سورة الأعراف: الآية: (٩٠).

أي: قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة: إذا اتبعتم شعيبًا وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذًا لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى.

وها هو مشهد نزول العذاب

فاستجاب الله - عز وجل- دعاء شعيب - عليه السلام-، وآزره بنصره، وابتلاهم بالحر الشديد، فكان لا يروى ظمأهم ماءٌ، ولا تمنعهم ظلال، ولا تقيهم الأسراب والمنازل، . . . ففروا هاربين، وخرجوا من ديارهم مسرعين، ولكنهم فروا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره.

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[2].

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٨٩ - ١٩١).
(٢) سورة هود: الآيتان: (٩٤، ٩٥).

أي: ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيبًا والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منّا لهم ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي: وأخذ أولئك الظالمين صيحةُ العذاب .. صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: موتى هامدين لا حراك بهم.

قال ابن كثير: وذكر ههنا أنه أتتهم (صيحة)، وفي الأعراف (رجفة)، وفي الشعراء (عذاب يوم الظُّلَّة)، وهم أمةٌ واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها.

* وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(١).

فهنا ذكر تعالى أنهم أخذتهم رجفة، أي: رجفت بهم أرضهم، وزُلزلت زلزالاً شديدًا أزهقت أرواحهم من أجسادهم، وصيَّرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم هامدة، لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية: (٩١).

جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات

وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وأشكالاً من البليَّات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكتت الحركات... وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظُلَّة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

* وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] ذكروا أنهم أصابهم حرٌّ شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب[2]، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيها أرسلها الله ترميهم بشرر وشُهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح.

(١) سورة الشعراء: الآية: (١٨٩).

(٢) الأسراب: جمع سرب وهو القناة الجوفاء وجحور الثعالب والأسود وغيرها، والمراد أنه لا ينفعهم دخولهم في تلك الأماكن.

ويُسدل الستار على تلك الأمة

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾[1].

ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في دارهم جاثمين، لا حياة ولا حراك. كأن لم يعمروا هذه الدار، وكأن لم يكن لهم فيها آثار!

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾..[2][3].

أي: أعرض عنهم موليًا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي: قد أديت ما كان واجبًا عليَّ من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم ينفعكم ذلك، لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة.

(١) سورة الأعراف: الآية: (٩٢).
(٢) سورة الأعراف: الآية: (٩٣).
(٣) الظلال (٣/ ١٣٢٢).

* ويُسدل الستار هنا على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة، ليُرفع هناك على مصرع القوم، وعلى مشهدهم جاثمين في ديارهم، أخذتهم الصاعقة التي أخذت قوم صالح، فكان مصيرهم كمصيرهم، خلت منهم الدور، كأن لم يكن لهم فيها دور، وكأن لم يعمروها حينًا من الدهر. مضوا مثلهم مشيعين باللعنة، طُويت صفحتهم في الوجود وصفحتهم في القلوب: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[١].

وطُويت صفحة أخرى من الصفحات السود، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد[٢].

* * *

(١) سورة هود: الآيتان: (٩٤، ٩٥).
(٢) الظلال (٣/ ١٩٢٣).

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن الحياة لا تستقيم إلا إذا عاش أهلها على شرع الله وسُنّة رسول الله ﷺ.

(٢) أن الدين لا بد أن ينظم كل شئون حياتنا من المعاملات والسلوكيات والأخلاقيات والآداب لأن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[1].

(٣) أن الداعية الصادق لا بد أن يهتم في دعوته بالتوحيد والعقيدة أولاً لأن التوحيد هو أصل الأصول وهو الذي جاء به كل الأنبياء والرسل... . فلا يقبل الله من عبدٍ أي طاعة إلا إذا كان موحدًا.

(٤) أن من يريد أن يدعو قومًا فلا بُد أولاً أن يتألف قلوبهم وأن يثني على بعض جوانب الخير التي يراها فيهم حتى يتألف قلوبهم فيكون ذلك بابًا للدخول إليهم واستمالة قلوبهم للخير والهدى.

(٥) ينبغي على المسلم إذا رأى منكرًا أن يغيره ولكن لا بد أن يكون التغيير بحكمة ورحمة حتى لا يُفسد من

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٠٨).

حيث يريد أن يُصلح.

(٦) إذا دعوت إنسانًا فأراد أن يسخر منك ليصرفك عن دعوتك فلا تلتفت لتلك السخرية واستمر في دعوته إلى الله ولا تغضب لنفسك أبدًا.

(٧) أن تطفيف الكيل يمنع المطر ويستجلب الشدائد.

* قال ﷺ: «يا معشر المُهاجرين! خِصالٌ خمسٌ إذا ابتُليتم بهن، وأعوذ بالله أن تُدركوهنّ: لم تظهر الفاحشةُ في قوم قطُّ، حتى يعلنوا بها؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[١].

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه(٤٠١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٨).

* ولشدة خطر هذا الأمر، كان عمر رضي الله عنه يتجول فى السوق بنفسه، ويتفقد المكيال والميزان ويُخرج من السوق من يجد فى مكياله أو ميزانه نقصانًا ويقول: لا تمنع عنا المطر.

(٨) ينبغى للمسلم والداعية الصادق ألا يخالف قوله فعله .. فلا يأمر قومه بالكرم وهو بخيل ولا يأمرهم بالصدق وهو غير صادق بل ينبغى أن يكون فعله موافقًا لقوله .. وتلك هى التربية بالقدوة.

(٩) أن الدعاة هم أكثر الناس تعرضًا لهجمات المفسدين الذين يصدون عن سبيل الله ويريدون أن يصبح المجتمع كله فاسدًا بل وقد يصل الأمر أحيانًا للتهديد والبطش إن استمر الدعاة الصادقون فى دعوتهم الكريمة.. فعلى الدعاة أن يصبروا ويحتسبوا ذلك عند الله.

(١٠) إن حلم الله على الكافرين يجعلهم أحيانًا يظنون أنهم لن يصل إليهم شيء من بطش الله وعذابه ولكن الله يُمهلهم ولا يعجل عليهم حتى إذا أخذهم فإنه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .. فقد رأينا كيف أن الله أمهل قوم مدين حتى إذا أخذهم سلط عليهم أنواعًا من العذاب.

قصة يعقوب ويوسف (عليهما السلام)

حبايبي الحلوين .. أتريدون أن تعرفوا من هو سيدنا يعقوب (عليه السلام)؟ هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم الصلاة والسلام) واسمه أيضًا إسرائيل وهو أبو الأسباط فهو والد يوسف (عليه السلام) والأسباط الإثنى عشر .. وكل أنبياء بني إسرائيل كانوا من نسله .. وآخرهم عيسى (عليه السلام).

* وتعالوا بنا لنبدأ القصة من أولها:

لقد أنجب نبي الله إبراهيم (عليه السلام) ولدًا من سارة فسماه إسحاق، ولما كبر إسحاق جعله الله نبيًا من الأنبياء .. وتزوج إسحاق (عليه السلام) وأنجب ولدًا سماه يعقوب.

فعاش يعقوب بين نبيين كريمين وهما جده إبراهيم (عليه السلام) وأبوه إسحاق (عليه السلام).

ولما كبر يعقوب أكرمه الله بنعمة النبوة فصار نبيًا كريمًا (عليه السلام).

* وتزوج يعقوب (عليه السلام) وأنجب اثنى عشر ولدًا كان

أصغرهم يوسف وبنيامين وكـان يعقوب (عليه السلام) يعطف عليهما وذلك لموت أمهما وكذلك لأنهما أصغر أولاده.. وكان سائر الأبناء من أم أخرى غير أم يوسف وبنيامين.

* ولقد عـانى سيدنا يعقـوب (عليه السلام) من كـثرة الابتـلاءات وكـان أشد تلك الابتـلاءات مـا حـدث لابنه يوسف (عليه السلام) .. ومع ذلك كان راضيًا بقضاء الله (جل وعلا) صابرًا صبرًا جميلاً.

فكان الجزاء الجميل أن الله جمع بينه وبين ابنه يوسف (عليهما السلام) بعد فراق استمر أربعين سنة.

* ولذلك فـأنا سوف أتناول قـصـة يوسف ويعقـوب (عليهـما السلام) سويًا وذلك لأنها تُعـتبر قصـة واحدة اشترك فى أحداثها يعقوب ويوسف (عليهما السلام).

الرؤيا التى رآها يوسف (عليه السلام)

وتبدأ الـقصة بأن يـوسف (عليه السـلام) كان غـلامًا صغـيرًا فنام ذات ليلة فـرأى فى منامه أحد عـشر كوكـبًا والشمس والقمر يسجدون له.

فتعـجب يوسف من تلك الرؤيا وأحس بأن هذه الرؤيا تحمل بشرى كبيرة.

فمـا كان منه إلا أن ذهب فى التو واللحظة إلى أبـيه يعـقوب (عليـه السلام) وانتـظر حتى ذهب إخـوته وبقى وحده مع أبيه يعقــوب (عليه السلام) وبدأ يحكى له تلك الرؤيا التى رآها فى منامه.

فلما سمع يـعقوب من يوسف (عليهمـا السلام) تلك الرؤيا علم أن يوسف سيكون له شأن عظيم وسينال منزلة عظيمة وربما تكون هذه الرؤيا بشرى بأنه سيكون نبيًا.

* فما كـان من يعقوب إلا أن نصح يوسف (عليـهما السـلام) بأن لا يقص رؤيـاه على إخـوته خـوفًا من أن يحـسدوه ويحـقدوا عليـه ويكيـدوا له المكائد وذلك لأن يعقـوب (عليه السلام) كـان قد تزوج بامـرأة وأنجب منها عـشرة أولاد ثم تـزوج بامرأة أخـرى وأنجـبت له يوسف وبنيامـين، وهما أصغر أولاده ولذلك فإن هـؤلاء العشرة كانوا يتـآمرون دائمًا على يوسـف وبنيامين لأنهـما من أم أخرى ولأنهما كانا صغيرين وضعيفين.

* ولذلك نصحه أبوه بكتمان الرؤيا ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

وكذلك يجتبيك ربك

وبعد أن حذر يعقوب ابنه يوسف (عليهما السلام) من أن يقصص رؤياه على إخوته أحس أن يوسف قد أحس بشيء من الخوف والفزع فأراد أن يُطمئن قلبه ويوضح له حقيقة تلك الرؤيا فقال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[2] أي: وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[3] أي: يعلمك تفسير الرؤيا المنامية ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾[4] أي: يتمم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾[5] أي: كما أكمل

(١) سورة يوسف: الآية: (٥).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٦).
(٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٦).

النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحاق بالرسالة والاصطفاء ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١) أي: عليم بمن هو أهلٌ للفضل، حكيم في تدبيره لخلقه(٢).

اجتماع طارئ

وفي يوم من الأيام اجتمع إخوة يوسف - العشرة غير الأشقاء - في اجتماع طارئ يتحدثون عن يوسف (عليه السلام).

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

* أي: نحن جماعة ذات عدد وقوة نقدر على أن ننفع أبانا وندفع عنه الضرر فلِمَ يحب يوسف وبنيامين أكثر منا؟ ونحن الذين نستطيع أن ننفعه بخلاف هذين الغلامين الصغيرين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٤) أي: إن أبانا قد أخطأ بحبه ليوسف وبنيامين أكثر من حبه لنا .. فهم لم يقصدوا أن أباهم قد ضل فهم يعرفون أنه نبي كريم.

(١) سورة يوسف: الآية: (٦).
(٢) صفوة التفاسير (٢/٤٢).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٨).
(٤) سورة يوسف: الآية: (٨).

ها هم يدبرون المؤامرة لقتله

وفجأة قام واحد من هؤلاء العشرة واقترح عليهم اقتراحًا لحل هذه المشكلة فقال: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[(١)].

أي: تخلصوا من يوسف بالقتل أو اذهبوا به إلى مكان بعيد عن عين أبيكم حتى لا يراه وبذلك يهتم بكم ويفرغ قلبه لكم.

* وتأمل معي كيف تمكَّن الحسد من قلوبهم حتى وصل بهم الأمر إلى أن يفكروا في قتل أخيهم الصغير الضعيف حتى لا يراه أبوه فينساه فيوجه حبه كله لهم .. ثم يتوبون عن جريمتهم بعد ذلك .. ولذلك قال لهم بعدها: ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾[(٢)].

أي: أنكم إذا قتلتم يوسف فلا تشغلوا أنفسكم بالذنب فإنكم سوف تتوبون إلى الله (جل وعلا) وتصبحون بعد ذلك قومًا صالحين.



---

(١) سورة يوسف: الآية: (٩).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٩).

لا تقتلوا يوسف

وهنا قام واحد منهم وقال لإخوته: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1].

يعني: إذا كنتم تريدون التخلص من يوسف فلا داعي لقتله ولكن تعالوا بنا نأخذه إلى مكان بعيد ونلقيه في بئر من الآبار التي تمر عليها القوافل فإذا وجدوه فإنهم سيرحلون به بعيدًا وبذلك يختفي من أمام أبيكم ونفوز نحن بمحبة أبينا.

* وهنا وافقه إخوته على فكرة الإلقاء في البئر بدلاً من القتل وهذا دليل على أن في قلوبهم بعض الخير وأن الخير لم يمت في قلوبهم فهم أبناء نبي ونشأوا نشأة طيبة.

مراودة ماكرة

وهنا بدأ يفكر إخوة يوسف (عليه السلام) في حيلة ماكرة ليتمكنوا من خلالها أن ينتزعوا يوسف من حضن أبيه ويتخلصوا منه إلى الأبد.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾[2].

(1) سورة يوسف: الآية: (١٠).
(2) سورة يوسف: الآية: (١١).

يا أبانا لماذا تخاف على يوسف منا ونحن إخوته ونحب له الخير وننصح له ونرعاه؟

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

أي: أرسله معنا غدًا إلى البادية ليأكل من كل ما لذَّ وطاب وليلعب بين الخضرة والأشجار والثمار فهذا أفضل لصحته .. ونحن نتعهد لك بحفظه من كل سوء ومكروه.

* فرد عليهم أبوهم يعقوب (عليه السلام) قائلاً: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾(٢).

قال: إن فراق يوسف يؤلمني ويجلب لي الحزن والألم.. وفوق ذلك فإني أخاف أن تغفلوا عنه فيأكله الذئب وهو صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

* ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾(٣).

قالوا له: نحن عشرة من الشباب الأقوياء ولن يستطيع الذئب أن يصل إليه أبدًا فلو وصل إليه الذئب وأكله فلا خير فينا وإنا إذًا لخاسرون كل شيء فلا تصلح لشيء أبدًا.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١٢).

(٢) سورة يوسف: الآية: (١٣).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٤).

* وهكذا استسلم الوالد المسكين ونزل على رغبة أولاده ليتحقق قدر الله ويفقد يعقوب ولده يوسف أربعين سنة.

يوسف (عليه السلام) .. ومحنة الجُب

والآن لقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء .. والله سبحانه يُلقى فى روع الغلام أنها محنة وتنتهى، وأنه سيعيش وسيُذكر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو.... قال تعالى: ﴿ فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجبّ وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾[1].

فلما ذهب إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجُبّ ﴾[2] أى إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل البئر وقد أخذوه من

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (١٥).

عند أبيه وهم يُظهرون له الإكرام شرحًا لصدره، وإدخال السرور عليه... فلما بعثه يعقوب معهم ضمَّه إليه وقبَّله ودعا له. فما أن تواروا عن أعين أبيه إلا وشرعوا يؤذونه شتمًا وضربًا ثم ربطوه بحبل ودلّوه فى الجب. فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافة البئر ضربوا على يديه. ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط فى الماء فغمره. فصعد إلى صخرة فى وسطه فقام فوقها.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[(١)].

يقول تعالى ذاكرًا لطفه ورحمته وإنزاله اليسر حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق، تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا وسينصرك الله عليهم ويُعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.... وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[(٢)] أى: وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك[(٣)].

---

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (١٥).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٤، ٤٧٥).

وجاءوا أباهم عشاءً يبكون

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[(١)].

* لقد انتظر إخوة يوسف حتى جاء الظلام وجاؤوا أباهم عشاءً يبكون وذلك لأن الكذب يظهر في العينين ولذلك جاؤوا إلى أبيهم عشاءً حتى لا يظهر الكذب في أعينهم.

* لقد استولى الحقد على قلوبهم حتى أنهم لم يستطيعوا أن يصبروا على تنفيذ جريمتهم.. وكان من الممكن أن يأخذوا يوسف (عليه السلام) مرتين أو ثلاثة ليلعب ويأكل ثم ينفذوا جريمتهم لكنهم كانوا متعجلين في تنفيذ جريمتهم.

* **وكذلك فقد كانوا يفكرون:** ماذا يقولون لأبيهم إذا رجعوا إليه فلما قال لهم: إنه يخاف على يوسف من الذئب التقطوا منه هذه الفكرة فلما ألقوا يوسف في البئر قالوا له: أكله الذئب.

* ولكنهم بسبب تسرعهم جاؤوا على قميص يوسف

---

(١) سورة يوسف: الآيات: (١٦- ١٨)

بدم كذب ونسوا أن يمزقوا قميص يوسف فكان هذا أكبر دليل على كذبهم وعلى أن يوسف لم يأكله الذئب.

* فلما رأى يعقوب قميص يوسف سليمًا ولكنه ملطخ بالدماء علم أن يوسف مازال حيًا ولكنهم دبروا له مكيدة وتخلصوا منه فأخبرهم بأنه قد علم الحقيقة وأنه سيصبر صبرًا جميلاً حتى يعود إليه يوسف.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1].

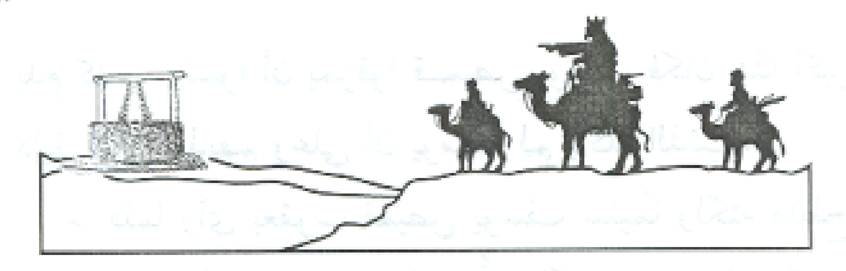
خروجه عليه السلام من الجب

وتعالوا بنا لنرجع مرة أخرى إلى يوسف (عليه السلام) لنرى ما حدث له فى ذلك الجب.

لقد كان الجب على طريق القوافل، التى تبحث عن الماء فى الآبار وفى مثل هذا الجب الذى ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة، ويكون فى بعض الأحيان جافًا كذلك:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾[2] أى: قوم مسافرون مروا بذلك الطريق..

(١) سورة يوسف: الآية: (١٨).
(٢) سورة يوسف: الآية: (١٩).



جاء قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطؤوا الطريق.

فأخذوا يبحثون عن الماء حتى وصلوا إلى الأرض التى فيها الجُب .. وكان الجُب فى مكان بعيد عن العمران.

فأرسلوا رجلاً ليأتى إليهم بالماء فلما أدلى الدلو فى البئر... وكان يوسف (عليه السلام) فى ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فخرج فلما رأى الرجل حُسنه وجماله قال: يا بشرى هذا غلام.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾(١) أى: أخفوا أمره عن الناس ليبيعوه فى أرض مصر متاعًا كالبضاعة.

* وكان إخوة يوسف يراقبون الموقف من بعيد .. فلما وجدوا الناس قد أخذوه ذهبوا إليهم وقالوا لهم: هذا غلامنا قد هرب منا فإن أردتم أن تشتروه فادفعوا ثمنه ولو كان قليلاً.

فقام هؤلاء السيارة ودفعوا لإخوة يوسف مبلغًا يسيرًا

(١) سورة يوسف: الآية: (١٩).

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾[1] .

* وهكذا خرج يوسف (عليه السلام) من الجب وانتهت المحنة الأولى فى حياته لتبدأ المحنة الثانية . . فيا تُرى ما هى المحنة الثانية؟

هذا ما سنعرفه فى الصفحات القادمة.

وها هو يُباع لعزيز مصر

وهنا تبدأ الحلقة الثانية من حلقات القصة وقد وصل يوسف (عليه السلام) إلى مصر وباعوه فى سوق الرقيق فاشتراه عزيز مصر وهو الذى بيده خزائن البلاد.

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ ﴾[3] . . أى وكما قيضنا عزيز مصر وامرأته يُحسنان إلى يوسف (عليه السلام)

(1) سورة يوسف: الآية: (٢٠).
(٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٢١).

ويعتنيان به فكذلك سنمكن ليوسف فى أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾(1) أى: سنعلمه تأويل وتعبير الرؤيا وسيكون تعبير الرؤيا سببًا لخروجه من السجن بعد ذلك ولقُربه من ملك مصر وليكون عزيزًا على مصر بعد ذلك.

ولذلك قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(2).

وكذلك نجزى المحسنين

وهكذا مكَّن الله (جل وعلا) ليوسف فى الأرض .. فها هو يتربى فى بيت عزيز مصر ليتعلم على يديه علم الاقتصاد لأنه سيكون قريبًا عزيز مصر دون أن يدرى أنه سيصل إلى تلك المكانة العالية.

- وكذلك سيعلمه الله علم تأويل الرؤيا؛ لأن الملك سيحتاج إليه فى تأويل رؤيا وسيكون ذلك سببًا لأن يجعله الملك عزيز مصر.

(1)، (2) سورة يوسف: الآية: (21).

* قال تعالى: ﴿ ولَمَّا بلَغَ أشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْمًا وعِلْمًا وكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

أي: لما استكمل عقله وخلقه وبلغ الحُلُم وكان ذلك في سن الثماني عشرة آتاه الله النبوة وعلّمه الحكمة وحسن التقدير ومعرفة أحوال الناس وجعله في قمة الجمال الخلقي والخُلقي.

- وأسكن حبه في قلب عزيز مصر فكان يعامله وكأنه ابنه من صُلبه وجعله مسئولاً عن بيته وقال لزوجته: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾[2].

امرأة العزيز.. والمحنة الثالثة

وهنا تبدأ المحنة الثالثة ليوسف (عليه السلام) وهي أشد وأخطر محنة سيتعرض لها نبي الله يوسف (عليه السلام).

* فنحن نعلم أن الله قد أعطى يوسف (عليه السلام) شطر الحسن والجمال البشري فكان جميل الخلقة بشكل لا يخطر على قلب بشر .. وكان من أحسن الناس أخلاقًا

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٢).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٢١).

ومن أجملهم حديثًا فكان ينال إعجاب كل الناس من حوله.

ولكن كان أشد الناس إعجابًا به امرأة العزيز.. ولما كان الناس جميعًا فى بيت العزيز يعاملونه وكأنه ابن من أبناء عزيز مصر فقد اقتربت منه زوجة العزيز أكثر مما ينبغى فأحبته ووقعت فى عشقه وأرادت منه أن يفعل معها الفاحشة وظلت تراوده على ذلك لفترات طويلة ولكنه كان يرفض ذلك؛ لأنه نبى كريم لا يمكن أن يقع فى أى شىء يُغضب الله (جل وعلا) ولذا قال لها صراحة: ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[1]، أى: إن زوجك هو سيدى العزيز الذى أكرمنى وأحسن تعهدى فكيف أسىء إليه بالخيانة فى حرمه؟ ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

لم يهمَّ يوسف (عليه السلام) بامرأة العزيز

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[3].

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٢٣).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٢٤).

قال تعالى: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه...﴾[1] الآية.

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يُفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام همّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه، ولكن القرآن العظيم بيّن براءته ﷺ من الوقوع فيما لا ينبغي.

* فقوله تعالى: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾[2]، قال عنها العلماء: إن الآية فيها تقديم وتأخير بمعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، يعني: أنه لم يهم بها أصلاً.

* ويوضح الله لنا ذلك بقوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[3] فهذه الآية تثبت أن يوسف عليه السلام من عباد الله المخلصين.. وقد قال الله تعالى لإبليس: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[4]، وإبليس نفسه يعلم ذلك وقال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين﴾[5].. ومن هنا نعلم أن

---

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٢٤).

(٤) سورة الحجر: الآية: (٤٢).

(٥) سورة ص: الآيتان: (٨٢، ٨٣).

الشيطان ليس له سلطان على يوسف (عليه السلام).

* فيوسف (عليه السلام) تعرض لإغراء طويل ومع ذلك كان عنده نصيب كبير من التقوى يمنعه من فعل أى شىء يُغضب الله (جل وعلا).. ولم ولن يتمكن إبليس من أن يغوى نبى الله يوسف على فعل أى شىء يُغضب الله (عز وجل).

واستبقا الباب

ولما اشتدت مراودة امرأة العزيز ليوسف (عليه السلام) أراد أن يهرب منها ويبتعد عنها فأسرع نحو الباب لينجو من كيدها لكن امرأة العزيز أخذت تجرى خلفه لتدركه قبل أن يخرج فلحقته وشدَّته من قميصه من الخلف لتجذبه إليها كى لا يخرج.

قال تعالى: ﴿واسْتَبَقَا الْبَابَ وقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾(١)

يعنى: قطعت قميصه من الخلف وهنا حدثت المفاجأة وجاء الفرج.. فقد جاء زوجها فجأة على غير موعد ﴿وأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾(٢).

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية (٢٥).

* فعلى الرغم من أنها أحكمت إغلاق الأبواب إلا أنها فجأة وجدت زوجها أمامها وهى تطارد يوسف (عليه السلام).

* فما كان من امرأة العزيز إلا أنها بادرت باتهام يوسف (عليه السلام) قبل أن يتهمها زوجها وتظهر الحقيقة.

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

- هكذا فى لحظة انقلب الوضع... أصبح الظالم مظلومًا والبرىء متهمًا!!

- بل لقد أصدرت الحكم أيضًا فى نفس اللحظة بالسجن أو العذاب وذلك لأنها كانت تحب يوسف ولا تريد أن يموت بل تريد أن يبقى على قيد الحياة.

* فقام يوسف (عليه السلام) يدافع عن نفسه: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[2] هكذا لم يتكلم كلامًا كثيرًا لأن الحق لا يحتاج إلى كثرة الكلام ولا إلى تمثيل ولا إلى كلام معسول.

(١) سورة يوسف: الآية: (٢٥).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٦).

وشهد شاهد من أهلها

وهنا جاءت النصرة ليوسف (عليه السلام) بشهادة واحد من أهل امرأة العزيز حتى لا يظن أحد أنه يجامل يوسف (عليه السلام).

قال تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(١).

لقد أمرهم الشاهد بأن ينظروا فى قميص يوسف (عليه السلام) فإن كان القميص ممزقًا من الأمام فمعنى ذلك أنها صادقة، وأنه هو الذى كان يريد أن يعتدى عليها وهى كانت تدافع عن نفسها.... وإن كان القميص ممزقًا من الخلف فمعنى ذلك أنها كاذبة وأنها هى التى كانت تجرى خلفه فقطعت قميصه من الخلف، ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾(٢).

أى لما تأكد زوجها (عزيز مصر) أنها هى التى كانت تراوده وهى التى قطعت قميصه من الخلف وعلم أنها

(١) سورة يوسف: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٢٨).

حاولت أن تخونه قال: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

* والعجب فى هذا الموضوع أن زوجها (عزيز مصر) لم يغضب ولم يضربها أو يفعل أى شيء سوى أنه قال لها هذه الكلمة ثم التفت إلى يوسف (عليه السلام) قائلاً له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾(1) يعنى: اكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد حتى يستطيع عزيز مصر أن يحافظ على مظهره الاجتماعى.

ثم قال لامرأته التى ضُبطت متلبسة بمراودة يوسف (عليه السلام): ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾(2).

وشاع الخبر فى المدينة

لقد انتهى هذا الموقف ولكن عزيز مصر لم يحسم القضية بل ترك الفتنة قائمة كما هى فلم يفصل بين زوجته وبين يوسف (عليه السلام).

- وكل ما كان يشغله ألا يتكلم أحد فى هذا الموضوع أبداً.

- لكن هذا الحادث انتشر فى المدينة كلها وذلك من

(1)، (2) سورة يوسف: الآية (29).

خلال الخدم والخادمات والوصيفات .. فقد تسرب الخبر إلى قصور الطبقة الراقية .

ومن المعلوم أن نساء هذه الطبقة الراقية يعانين من الفراغ ولذلك يجدن من الحديث واللهو والكلام عن الفضائح لذة شديدة .

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

وبدأ الخبر ينتقل من بيت إلى بيت حتى وصل لامرأة العزيز أن نساء المدينة يذكرن قصة مراودتها لفتاها فى كل مكان .

نساء الأمراء والكبراء يُقطعن أيديهن

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾[2] .

لما علمت امرأة العزيز أن نساء الطبقة الراقية يذكرن قصة مراودتها لفتاها يوسف فى كل مكان قررت فى التو واللحظة أن تُعد مأدبة كبيرة فى قصرها .

(١) سورة يوسف : الآية : (٣٠).
(٢) سورة يوسف : الآية : (٣١).

وأعدت لهن المأدبة وجهزت لهن الوسائد والحشايا وصنعت لهن ألوانًا من الطعام والشراب والفاكهة وجهزت السكاكين بجوار الفاكهة.

فلما أكلن الطعام قدمت لهن الفاكهة وأعطت لكل واحدة منهن سكينًا وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم وتقشير الفاكهة دخلت امرأة العزيز وطلبت من يوسف (عليه السلام) أن يخرج عليهن في تلك اللحظة.

فلما دخل يوسف عليهن ورأينه ﴿أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[1]، أي: أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حُسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح.

فلما أحسسن جعلن يولولن، فقالت امرأة العزيز: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا.. فكيف ألام أنا؟

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[2] ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد ما رأينا.

* لقد أصيبت كل امرأة بذهول عجيب من شدة جمال

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٣١).

يوسف (عليه السلام) ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول. فقالت قولة المرأة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها، وإن كان قد استعصى قياده مرة فهي تملك هذا القياد مرة أخرى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[1].

فانظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب![2].

ثم مدحته بالعفة التامة فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[3] أي: امتنع ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[4].

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[5]

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٢).
(٢) الظلال (٤/ ١٩٨٥).
(٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٣٢).
(٥) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

يعنى: إن وكلتنى إلى نفسى، فليس لى من نفسى إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتنى وعصمتنى وحفظتنى، وحُطتنى بحولك وقوتك. ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١)(٢).

* لقد استجاب الله ليوسف (عليه السلام) وصرف عنه كيد النسوة.

إما بأنه أدخل اليأس فى نفوسهن بعدم استجابته لهن.. أو بجعل النساء أنفسهن لا يشعرن بفتنة جمال يوسف وإنما يشعرن بمهابته ووقاره.

وها هو (عليه السلام) يدخل السجن

وعلى الرغم من ظهور براءة يوسف (عليه السلام) واعتراف امرأة العزيز أمام النسوة أنها هى التى راودته عن نفسه وأنه استعصم ورفض أن يفعل أى شىء يُغضب الله (جل وعلا)

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٤).
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٧٩).

إلا أن الخبر كان قد انتشر في المدينة كلها وكان لا بد من فعل أي شيء حتى ينسى الناس هذه القصة وحتى يحافظ عزيز مصر وامرأته على المظهر الاجتماعي اللائق بهما.

وهكذا حال أصحاب البيوتات الراقية إذا عجزوا عن صيانة بيوتهم ونسائهم فليس هناك أسهل عندهم من سجن إنسان بريء حتى يقولوا للناس إنه هو المتهم وهو الذي كان يراودها عن نفسها.

وبالفعل صدر الأمر الظالم بسجن يوسف (عليه السلام) بلا ذنب سوى أنه رفض أن يفعل الفاحشة .. ولم يصدر الأمر بالسجن لمدة معلومة بل صدر الأمر بسجنه حتى حين... يعني: لمدة غير معلومة وهذا هو أصعب أنواع السجن .. أن يدخل البريء السجن وهو لا يدري متى يخرج.

* وعلى الرغم من كل ذلك دخل يوسف السجن وهو هادئ النفس لأنه نجا من مراودة امرأة العزيز ونسوة المدينة.. فهو القائل: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[1].

* * *

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

ودخل معه السجن فتيان

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

* ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ قيل: كان أحدهما ساقى الملك والآخر «خبازه» - يعنى: الذى يلى طعامه - وكان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه، وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

أما الساقى فرأى كأن ثلاثة قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه. ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضوارى الطيور تأكل من السلة الأعلى. فقصاها عليه وطلبا منه أن يُعبرها لهما، وقالا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٦).
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٠).

كلمة التوحيد قبل أى شىء

وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة، فكونه سجينًا لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة.

وبدأ يوسف مع صاحبى السجن من موضوعهما الذى يشغل بالهما. فيطمئنهما ابتداءً إلى أنه سيؤول لهما الرؤى. لأن ربه علَّمه علمًا خاصًا، جزاءً على تجرده لعبادته وحده، وتخلصه من عبادة الشركاء، هو وآباؤه من قبله.. وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه[1].

* ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾[2] أى: لا يأتيكما شىء من الطعام إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما،.. أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة «المغيبات» توطئة لدعائهما إلى الإيمان، فقدَّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب

(١) الظلال (٤/١٩٨٨).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٣٧).

ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير[1] ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[2] إن ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا تنجيم، وإنما هو بإلهام ووحي من الله ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[3] أي: خصني ربي بذلك العلم لأني من بيت النبوة وقد تركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[4] أي: يكذبون بيوم القيامة، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[5] أي: اتبعت دين الأنبياء، لا دين أهل الشرك والضلال، والغرض إظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق بكلامه ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[6] أي: ما ينبغي لنا معاشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئًا مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾[7] أي: ذلك الإيمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾[8] حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[9]

(١) البيضاوي (ص: ٢٦٤).
(٢)، (٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٣٧).
(٥)، (٦)، (٧)، (٨)، (٩) سورة يوسف: الآية: (٣٨).

أى: لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره . .

ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذى هو دين الرسل، تلطَّف فى حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1] أى: يا صاحبى فى السجن آآلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام، خير أم عبادة الواحد الأحد، المتفرد بالعظمة والجلال؟!

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾[2] أى: ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة سميتموها آلهة وهى لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[3] أى: ما أنزل الله لكم فى عبادتها من حجة أو برهان ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾[4] أى: ما الحكم فى أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[5] أى: أمر سبحانه بإفراد العبادة له، لأنه لا

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٩).

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٤٠).

يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[1] أي: ذلك الذى أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذى لا اعوجاج فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2] أي: يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع.

تأويل الرؤيا

وإلى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذى ألقاه، مرتبطًا فى مطلعه بالأمر الذى يشغل بال صاحبيه فى السجن. ومن ثَم فهو يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس، ليزيدهما ثقة فى قوله كله وتعلقًا به: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾[3].

أى يا صاحبى فى السجن أما الذى رأى أنه يعصر خمرًا فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر، وأما الآخر الذى رأى على رأسه الخبز فيُقتل ويُعلق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه.

---

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٤٠).

* وعلى الرغم من أنه فسَّر لهما الرؤى إلا أنه لم يحدد لهما من الذى سيُصلب ومن الذى سينجو .. وهذا من باب التلطف وعدم مواجهة الناس بما يكرهون.

فلبث فى السجن بضع سنين

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[1].

لما علم يوسف (عليه السلام) أن الساقى سينجو طلب منه أن يذكر قصته عند الملك لعله يخلصه من الظلم الذى وقع عليه.

لكن الرجل مع أنه وعد يوسف (عليه السلام) بأن يذكره عند الملك إلا أنه نسي ذلك لما خرج وعاش فى جو القصور والرفاهية ولم يذكر قصة يوسف (عليه السلام) عند الملك .. فكانت النتيجة أن لبث يوسف (عليه السلام) فى السجن بضع سنين.

* وكان هذا الأمر من إكرام الله لنبيه يوسف (عليه السلام) فإنه لم يجعل قضاء حاجته على يد عبدٍ من عباده ولا بسبب يرتبط بعبد .. فعباد الله المخلصين ينبغى أن

(١) سورة يوسف: الآية: (٤٢).

تتعلق قلوبهم بالله وحده فهو القادر على تفريج همومهم ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وهكذا يهيئ الله الأسباب لأوليائه

لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن، رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه، وسألهم عن تأويلها فأعجزهم الله جميعًا ليكون ذلك سببًا في خلاص يوسف من السجن[2].

* ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[3].

رأى كأنه على حافة نهر، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان، فجعلن يرتعن في روضة هناك، فخرجت

---

(١) سورة النمل: الآية: (٦٢).
(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٥٤).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٤٣).

سبعٌ هزال ضعاف من ذلك النهر، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن، فاستيقظ مذعورًا، ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر في قصبة واحدة، وإذا سبع أُخر دقاق يابسات فأكلنهن، فاستيقظ مذعوراً(١).

طلب الملك تأويل رؤياه. فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك .. على طريقة رجال الحاشية في إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم.. فقالوا: إنها ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾(٢) أي: أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾(٣) .. إذا كانت أضغاثًا مختلطة لا تشير إلى شيء!(٤).

فعند ذلك تذكر الناجي منهما، الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه فنسيه إلى حينه هذا، .... وذلك عن تقدير الله عز وجل وله الحكمة في ذلك.

فلما سمع رؤيا الملك، ورأى عجز الناس عن تعبيرها،

---

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٤).

(٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٤٤).

(٤) الظلال (٤/ ١٩٩٣).

تذكر أمر يوسف، وما كان أوصاه به من التذكار.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾[1]

أي: تذكر ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[2] أي: بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين[3].

﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾[4] أي: أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا ممن عنده علم بتأويل المنامات ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فأرسلون إليه لآتيكم بتأويلها..

فأرسلوه فانطلق الساقي إلى السجن ودخل على يوسف وقال له: يا يوسف يا أيها الصِّدِّيق وسماه صدِّيقًا لأنه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾[5] أي: أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[6].

أي: لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا

---

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٤٥).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٢٨٤).

(٤) سورة يوسف: الآية: (٤٥).

(٥)، (٦) سورة يوسف: الآية: (٤٦).

فضلك وعلمك ويخلصوك من محنتك.

* لما سُئل يوسف (عليه السلام) عن تفسير رؤيا الملك لم يشترط عليهم أن يُخرجوه من السجن أولاً.. بل ولم يعاتب ساقي الملك الذي نسيه منذ سنوات عندما طلب منه يوسف (عليه السلام) أن يذكر قصته للملك ليخلصه من الظلم الذي وقع عليه.. لم يعاتبه بكلمة واحدة.. لم يقل له: الآن تذكرتني عندما احتجت إليَّ.. بل قال له تفسير الرؤيا وذكر له حل الأزمة التي ستقع فيها البلاد حتى يكون بذلك سببًا في تفريج هم الأمة كلها.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(١).

* لقد وضع لهم يوسف (عليه السلام) خطة حكيمة لمدة خمس عشرة سنة فأخبرهم أن مصر سيأتي عليها سبع سنوات مخصبة فعليهم أن يكثروا فيها من الزرع وأن

(١) سورة يوسف: الآيات: (٤٧، ٤٩).

يبلغوا أعلى طاقة إنتاجية .. وأخبرهم أن بعد هذه السنوات الخصبة ستأتي عليهم سبع سنوات مجدبة فعليهم أن يتركوا كل ما زرعوه فى السنابل حتى لا يسوس ولا يأخذوا إلا على قدر ما يأكلون أو يزرعون وبذلك ينفعهم المخزون الذى كان فى السبع سنوات المخصبة فى السبع سنوات المجدبة .. وهذا ما وضحه يوسف (عليه السلام) فى قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾[1] أى: ثم يأتى بعد سنوات الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾[2] أى: تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾[3] أى: إلا القليل الذى تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[4] أى: ثم يأتى بعد سنوات القحط والجدب العصيبة عام رخاء فيه يُمطر الناس ويغاثون، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه.

---

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٤٨).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٤٨).
(٤) سورة يوسف: الآية: (٤٩).

وظهرت براءة يوسف (عليه السلام)

عاد الساقى إلى الملك، أخبره بما قال يوسف (عليه السلام)، دُهش الملك دهشة شديدة، ما هذا السجين؟ إنه يتنبأ لهم بما سيقع، ويوجههم لعلاجه، دون أن ينتظر أجرًا أو جزاءً، أو يشترط خروجًا أو مكافأة!! إنه نوع من البشر لم يعرفه الملك ولم يره، إن كل الناس يعاملونه للمصلحة فقط، فطلبه فورًا: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾(١).

أصدر الملك أمره بإخراج يوسف عليه السلام من السجن وإحضاره فورًا إليه، ذهب رسول الملك إلى السجن، ولا نعرف إن كان هو الساقى الذى جاءه أول مرة، أم أنه شخصية رفيعة مكلفة بهذه الشؤون.

ذهب إليه فى سجنه، رجا منه أن يخرج للقاء الملك، فهو يطلبه على عجل، رفض يوسف أن يخرج من السجن إلا إذا ثبتت براءته أولاً، لقد زاده ربه تربية وأدبًا فى تلك السنين التى بقيها فى السجن بعد خروج الساقى:

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٠).

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾(١).

ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة، ويظهر أثر التربية واضحًا في الفارق بين الموقفين: الموقف الذي يقول يوسف فيه للفتى: اذكرني عند ربك، والموقف الذي يقول فيه: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيدهن.

الفارق بين الموقفين كبير، وبدأ الملك يبحث عن الحقيقة بنفسه، فهذا أمر لم يعلمه من قبل: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾(٢).

يبدو أن الملك سأل عن القصة، ليكون على بينة من الأمر وظروفه قبل أن يبدأ التحقيق، لذلك جاء سؤاله دقيقًا للنساء، فاعترفت النساء بالحقيقة التي يصعب إنكارها: ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾(٣)(٤).

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٠).
(٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٥١).
(٤) ابن الإسلام (ص: ١٣٨).

امرأة العزيز تعترف ببراءة يوسف (عليه السلام)

وهنا قامت امرأة العزيز في لحظة صدق لتقول كلمة الحق لأول مرة في حياتها ولتشهد ببراءة يوسف (عليه السلام).

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[1] أي: ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2] أي: أنا التي أغريته ودعوته إلى نفسي وهو بريء من الخيانة وصادق في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾[3] وهذا اعتراف صريح ببراءة يوسف على رءوس الأشهاد ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾[4][5].

* أي: ذلك ليعلم زوجي (عزيز مصر) أني لم أخنه وإنما هي كانت مجرد مراودة لم يقع معها فعل الفاحشة.

* ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾[6].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥١).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٥١).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٢٦).
(٤) سورة يوسف: الآية: (٥٢).
(٥) صفوة التفاسير (٢/٥٦).
(٦) سورة يوسف: الآية: (٥٢).

وكأنها تقول: مهما حاولنا فتنة يوسف (عليه السلام) فلن نستطيع . . ومهما حاولنا إيذاءه فلن نستطيع . . لن نستطيع لأن يوسف سيظل طاهرًا نقيًا عزيزًا تقيًا يحتاج إليه الناس ولا يحتاج هو إلا إلى الله (جل وعلا).

* ثم تختتم كلامها بقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

* إن من يتأمل تلك الكلمات التي خرجت من فم امرأة العزيز يشعر بأنها قد تحولت من الشرك إلى الإيمان والتوحيد .. فقد كان ثبات يوسف (عليه السلام) على العفاف والتقوى وصبره على السجن والإيذاء سببًا في هدايتها فقد كانت تظن أنه لا يوجد رجل يصبر على فتنة المرأة الجميلة ذات المنصب والجاه إلى أن رأت بنفسها عفاف يوسف وخشيته من الله (جل وعلا) فكان ذلك سببًا في أن تتحول وتصبح امرأة مؤمنة صادقة.

* * *

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٣).

ويصدر الأمر الملكي بالإفراج عنه

* لقد تبينت للملك براءة يوسف، كذلك تبينت له كرامته، وإباؤه، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن، ولا يتهافت على لقاء الملك،... وأى ملك؟ ملك مصر. ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم فى سمعته، المسجون ظلمًا، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذى يمثله، قبل أن يطلب الحظوة عند الملك، كل أولئك أوقع فى نفس الملك احترام يوسف عليه السلام وحبه، فقال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾(1).

* قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(2).

يقول تعالى إخبارًا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نُسب إليه قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ

(1) سورة يوسف: الآية: (٥٤).
(2) سورة يوسف: الآيتان: (٥٤ ، ٥٥).

أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي: خاطبه وعرف فضله وبراعته، وما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا ذو مكانة وأمانة.

* فماذا قال له يوسف (عليه السلام)؟

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

لقد ولاه ملك مصر (الريان بن الوليد) الوزارة مكان عزيز مصر.. وأسلم الملك على يدى يوسف (عليه السلام).

ولا بد أن تعلم هنا أن يوسف (عليه السلام) لم يكن يطلب هذا المنصب لشخصه ولا لبناء مجده وإنما كان يقصد بذلك أن يتحمل تلك الأمانة الكبيرة - وهى: أمانة إطعام الشعوب الجائعة لمدة سبع سنوات - .. فكان الأمر فيه تضحية كبيرة من يوسف (عليه السلام) ولم يكن مطلبًا شخصيًا له (عليه السلام).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾[1] أي: أرض مصر. ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي: يتخذ منها منزلاً

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٦).

حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] أى: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[2] ويخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف - عليه السلام - فى الدار الآخرة أعظم وأجلّ[3].

وجاء إخوة يوسف

ودارت الأيام ومرت سنوات الرخاء السبع التى أخبر عنها يوسف (عليه السلام) وجاءت سنوات المجاعة .. وكان يوسف (عليه السلام) هو الذى يُشرف على إطعام شعب مصر بل وكل شعوب المنطقة العربية من حولهم.

* وجاء الناس إلى يوسف من سائر البلاد ليأخذوا

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٦).

(٢) سورة يوسف: الآيتان: (٥٦، ٥٧).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٨٨، ٤٨٩).

طعامًا لأهليهم وأقاربهم وكان من جملة من جاء إخوة يوسف (عليه السلام).

فلقد وصلت المجاعة إلى أرض فلسطين حيث يعيش يعقوب (عليه السلام) وأبناؤه.

* وكان يوسف عليه السلام يعطى كل فرد حِمل بعير حتى لا يكون هناك أى احتكار للطعام وبذلك يستطيع أن يوفر الغذاء الكافى لكل فرد فى الوطن العربى الكبير.

* ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾(١).

لقد عرف يوسف (عليه السلام) إخوته على الفور .. ولكنهم لم يعرفوه وذلك لأنهم لما ألقوه فى البئر كان غلامًا صغيرًا ولذلك فلقد تغيرت ملامحه أما هم فقد كانوا كبارًا فلم تتغير ملامحهم إلا قليلاً ولذلك عرفهم.

وأيضًا فإنهم لا يتخيلون أبدًا أن عزيز مصر هذا الذى يُطعم الشرق الأوسط كله هو أخوهم يوسف الذى ألقوه فى الجُب.

* لقد جاءوا إلى يوسف (عليه السلام) يطلبون الطعام بعدما وصلت المجاعة والقحط إلى أرض فلسطين ..

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٨).

فلما عرفهم يوسف (عليه السلام) بدأ يحاورهم فقال لهم: ما الذى جاء بكم إلى بلادى؟

قالوا: جئنا من أجل الطعام.

فقال لهم: لعلكم جواسيس جئتم للتجسس على بلادى؟

قالوا له: لا والله ما نحن بجواسيس.

قال لهم: من أين أنتم؟

قالوا: من بلاد كنعان . . من أرض فلسطين، وأبونا يعقوب نبى الله.

قال: وله أولاد غيركم؟

قالوا: نعم . . كنا اثنى عشر أخًا فمات أصغرنا فى البرية وكان أحبنا إليه وبقى شقيقه بنيامين وهو مع أبيه لأنه لا يستطيع أن يصبر على فراقه فجئنا ببعيره بدلاً منه حتى تملأه لنا طعامًا.

قال يوسف: كيف أتأكد من أنكم صادقون.

قالوا: اطلب ما شئت حتى تتأكد من أننا صادقون.

فقال يوسف: لا بد أن تأتونى بأخيكم بنيامين فى المرة القادمة إن كنتم صادقين، فإن لم تأتونى به فلن أعطيكم أى طعام ولا تقربوا بلادى مرة أخرى.

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾[1] أي: سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده، ونجتهد في طلبه منه، وإنا لفاعلون ذلك[2].

فأعطاهم يوسف (عليه السلام) كيلهم وزادهم وأكرمهم، وأمرهم أن ينصرفوا فانصرفوا.

* أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسّوا البضاعة التي حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف. وقد تكون خليطًا من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوي. ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يُستخدم في التبادل في الأسواق.. أمر غلمانه بدسّها في رحالهم لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التي جاءوا بها: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ ﴾[3][4]، أي: لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[5]

(١) سورة يوسف: الآية: (٦١).
(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٥٨).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٦٢).
(٤) الظلال (٤/ ٢٠١٦).
(٥) سورة يوسف: الآية: (٦٢).

أى: لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العودة إليه.

عهد وميثاق

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾(١) أى: فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له -قبل أن يفتحوا متاعهم-: يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل فى المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين، فإن عزيز مصر ظن أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾(٢) أى: أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التى تُكال لنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٣) أى نحفظه من أن يناله مكروه ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾(٤) أى: قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لى حفظه، ثم خُنتم العهد؟ فأخاف أن تكيدوا له كما

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٦٣).
(٤) سورة يوسف: الآية: (٦٤).

كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافظًا ﴾ (١) أي: حفظ الله خير من حفظكم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢) أي: هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يمنَّ عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ (٣).

أي: لما فتح إخوة يوسف متاعهم ووجدوا فيها بضاعتهم رُدت إليهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ (٤) أي: ماذا نريد بعد هذا.. ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ (٥) وقد أوفى لنا الكيل.

﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ (٦) أي: نأتي بالميرة والطعام لأهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ (٧) أي: نحفظه من المكاره،... وكرروا حفظ الأخ مبالغة في الحضّ على إرساله ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ (٨) أي: ونزداد باستصحابنا له حمل بعير.

* ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (٩) أي: إن فعلنا ذلك فسوف نحصل على ذلك الكيل بكل يُسر وسهولة فقد رأينا عزيز مصر رجلاً كريمًا.

---

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٦٤).
(٣)، (٤)، (٥)، (٦)، (٧)، (٨)، (٩) سورة يوسف: الآية: (٦٥).

* فخاف يعقوب (عليه السلام) على ابنه بنيامين.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾(١)

أي: قال لهم: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تُقسموا بالله وتعطوني عهدًا أكيدًا وميثاقًا غليظًا على أن تأتوني به مرة أخرى ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾(٢) أي: إلا أن تتعرضوا لقُطَّاع الطرق أو أن تموتوا فلا تستطيعوا أن تردوه مرة أخرى فهذا هو العذر الوحيد.

* ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾(٣) أي: فلما حلفوا له وأعطوه العهد المؤكد أنهم سيردوا إليه بنيامين.. ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(٤) أي: شهيد ورقيب على ذلك.

وها هو يخشى عليهم من الحسد

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾(٥) أي: لا تدخلوا مصر من باب واحد... خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٦٦).

(٥) سورة يوسف: الآية: (٦٧).

جمال وهيبة، والعين حق تُدخل الرجل القبر، والجمل القدر كما جاء في الحديث ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[1] أي: لا أدفع عنكم بتدبيري شيئًا مما قضاه الله عليكم، فإن الحذر لا يدفع القدر ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[2] أي: ما الحكم إلا لله جل وعلا وحده لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[3] أي: عليه وحده اعتمدت وبه وثقت ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[4] أي: وعليه فليعتمد أهل التوكل والإيمان، وليفوضوا أمورهم إليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾[5] أي: دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[6] أي: ما كان دخولهم متفرقين ليدفع عنهم من قضاء الله شيئًا ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾[7] أي: إلا خشية العين شفقة منه على بنيه ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[8] أي: وإن يعقوب؛ لذو علم واسع لتعليمنا إياه بطريق الوحي، وهذا ثناء من الله تعالى عظيم على يعقوب، لأنه علم

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٦٧).
(٥)، (٦)، (٧)، (٨) سورة يوسف: الآية: (٦٨).

بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] أي: لا يعلمون ما خصَّ الله به أنبياءه وأصفياءه من العلوم التي تنفعهم في الدارين[2].

شوق ولقاء

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

وصل إخوة يوسف عليه السلام ومعهم أخوهم بنيامين.. فأفاض عليهم يوسف عليه السلام من الإكرام والإلطاف والصلة والإحسان ما جعلهم في غاية الكرامة.

* لقد احتضن يوسف أخاه بنيامين وكشف له وحده سر قرابته... ومن المؤكد أنه لم يفعل ذلك فور دخول إخوته عليه وإلا لانكشف الأمر.

* قال المفسرون: لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقى «بنيامين»

(١) سورة يوسف: الآية: (٦٨).
(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٥٨ - ٦٠) بتصرف.
(٣) سورة يوسف: الآية: (٦٩).

وحيدًا فقال: هذا لا ثانى له فيكون معى، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه، وقال له: أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا، ثم أعلمه أنه سيحتال لإبقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر.

فطنة وذكاء

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾[1].

أى: لما قضى يوسف (عليه السلام) حاجتهم وحمَّل إبلهم بالطعام الذى يكفيهم أمر أحد عماله أن يجعل السقاية وهى كأس الملك الذهبية فى متاع أخيه بنيامين.. وكانت الكأس تُستخدم كمكيال للغلال.. وكانت غالية وثمينة.

* لقد أمر بإخفاء الكأس فى متاع أخيه بنيامين.. وبدأ إخوة يوسف (عليه السلام) يستعدون للرحيل ومعهم أخوهم بنيامين بعدما أخذوا متاعهم وطعامهم.

وفجأة أُغلقت أبواب المدينة ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾[2] أى: يا أصحاب الإبل ويا أيها القوم المسافرون.. إنكم لسارقون.

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٧٠).

وكان هذا النداء يعنى: توقف كل القوافل .. فأقبل الناس وأقبل معهم إخوة يوسف.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾(1)؟ قال المفسرون: لما وصل المنادون إليهم قالوا: ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم؟ ونوفِّ إليكم الكيل؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى وما ذاك؟ قالوا: فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم.. فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾(2) أى: التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع منكم وماذا فُقد؟

قال الجنود: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾(3).. ضاعت الكأس الذهبية ولمن يجيء بها مكافأة.. سنعطيه حمل بعير من الغلال.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾(4) قَسمٌ فيه معنى التعجب أى قالوا متعجبين: والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نُفسد فى أرضكم ﴿وَمَا كُنَّا

(1) سورة يوسف: الآية: (71).
(2) سورة يوسف: الآية: (71).
(3) سورة يوسف: الآية: (72).
(4) سورة يوسف: الآية: (73).

سَارِقِينَ﴾[1] أى: ولسنا ممن يوصف بالسرقة قط لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾[2] أى: ما عقوبة السارق فى شريعتكم إن كنتم كاذبين فى ادِّعاء البراءة ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾[3] أى: جزاء السارق الذى يوجد الصاع فى متاعه أن يُسترق ويصبح مملوكًا لمن سرقً منه[4].

* قال الحارس: سوف نطبق عليكم قانونكم الخاص ولن نطبق عليكم القانون المصرى فقد كان حكم من سرق فى ظل القانون المصرى أن يُضرب ويدفع ضعف ثمن ما سرقه وأما فى شريعة يعقوب (عليه السلام) فمن سرق فإنه يصبح عبدًا رقيقًا عند من سرقه.

* ثم أمر يوسف (عليه السلام) جنوده بتفتيش إخوته قبل أن يفتشوا أخاه بنيامين .. حتى لا ينكشف الأمر.

* ولما فتش إخوة يوسف لم يجد معهم شيئًا .. ثم

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٧٣).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٧٤).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٧٥).

(٤) صفوة التفاسير (٢/ ٦١، ٦٢).

أوهمهم بأنه لن يفتش رحل بنيامين ولكنهم أصروا أن يفتش بنيامين كما فتشهم جميعًا.

فقالوا: والله لا نتركك حتى تنظر في رَحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[1] أي: استخرج الصواع من متاع أخيه بنيامين، فلما أخرجها منه نكَّس الإخوة رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له: فضحتنا وسوَّدت وجوهنا يا ابن راحيل.... ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[2] أي: كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[3] أي: ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر؛ لأن جزاء السارق عنده أن يُضرب ويُغرَّم ضعف ما سرق ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[4] أي: إلا بمشيئته تعالى وإذنه، وقد دلت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾[5] أي: نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[6] أي: فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة يوسف: الآية: (٧٦).

ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو رب العالمين[1].

* وهكذا تم الحكم وصار بنيامين عبدًا ليوسف (عليه السلام).

اتهموا يوسف عليه السلام ظلمًا وعدوانًا

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾[2].

يعنون بذلك يوسف (عليه السلام).. وكان يوسف عليه السلام قد اتهموه كذبًا بالسرقة وهو صغير.

والقصة باختصار أنه كانت له خالة تعبد صنمًا من الذهب فأخذه يوسف من ورائها وأخفاه حتى لا تعبده من دون الله فاتهموه بأنه سرقه.

* وقيل: أنه كانت عمته تحبه حبًا شديدًا فأرادت أن يعيش معها فوضعت شيئًا من عندها بين ثيابه وهو لا يشعر حتى وجدوه عنده فأخذته عندها.

* فلما سمع يوسف (عليه السلام) اتهام إخوته له بذلك أحس بحزن شديد فكتم أحزانه في نفسه وقال بينه

(١) الطبري (١٣/ ٢٧).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٧٧).

وبين نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[1]. لم يكن هذا سِبابًا لهم، بقدر ما كان تقريرًا حكيمًا لقاعدة من قواعد الأمانة.

أراد أن يقول بينه وبين نفسه: إنكم بهذا القذف شرٌّ مكانًا عند الله من المقذوف، لأنكم تقذفون بريئين بتهمة السرقة، والله أعلم بحقيقة ما تقولون، فلا أنا سرقت، ولا أخي سرق، الله وحده أعلم بالحقيقة فى الحادثتين، وأنا وأخي بريئان منهما.

ياله من موقف عصيب

وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذى وقعوا فيه. عادوا إلى الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾[2]. فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى، الشيخ الكبير، ويعرضون أن يأخذ بدله واحدًا منهم إن لم يكن مُطلقه لخاطر أبيه؛ . . . ويستعينون فى رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا

(١) سورة يوسف: الآية: (٧٧).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٦٦).

شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴾[1].

ولكن يوسف كان يريد أن يُلقى عليهم درسًا. وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التى يعدها لهم ولوالده وللجميع! ليكون وقعها أعمق وأشد أثرًا فى النفوس: ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون ﴾[2]..

ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئًا بذنب سارق؛ لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق.

﴿ إنا إذا لظالمون ﴾[3]... وما نريد أن نكون ظالمين.

وكانت هى الكلمة الأخيرة فى الموقف. وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء، فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج أمام أبيهم حين يرجعون[4].

بل سولت لكم أنفسكم أمرًا

﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ﴾[5] أى: ولما يئسوا من

(١) سورة يوسف: الآية: (٧٨).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٧٩).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٧٩).
(٤) الظلال (٤/ ٢٠٢٢، ٢٠٢٣).
(٥) سورة يوسف: الآية: (٨٠).

إجابة طلبهم يأسًا تامًا، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء، اعتزلوا جانبًا عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾[١] أي: قال أكبرهم سنًا وهو «روبيل»: أليس قد أعطيتم أباكم عهدًا وثيقًا برد أخيكم؟ ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾[٢] أي: ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في يوسف؟ فكيف ترجعون إليه الآن؟ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾[٣] أي: فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾[٤] أي: يحكم بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[٥] أي: وهو سبحانه أعدل الحاكمين، لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾[٦] أي: ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى وقولوا له: إن ابنك بنيامين سرق ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾[٧] أي: ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾[٨] أي: ما علمنا

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٨٠).

(٦)، (٧)، (٨) سورة يوسف: الآية: (٨١).

أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾[1] أي: واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث.

﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾[2] أي: واسأل أيضًا القافلة التى جئنا معهم وهو قوم من كنعان كانوا بصحبتهم فى هذه السفرة ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[3] أي: صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾[4] أي: زيَّنت وسهلت لكم أنفسكم أمرًا ومكيدة فنفذتموها... اتهمهم بالتآمر على «بنيامين» لما سبق منهم فى أمر يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾[5] أى: لا أجد سوى الصبر محتسبًا أجرى عند الله ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾[6] أي: عسى أن يجمع الله شملى بهم، ويقر عينى برؤيتهم جميعًا ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[7] أى: العالم بحالى الحكيم فى تدبيره وتصريفه[8].

وابيضت عيناه من الحزن

لما عاد أولاد يعقوب (عليه السلام) إليه من غير ولديه (بنيامين

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٨٢).

(٤)، (٥)، (٦)، (٧) سورة يوسف: الآية: (٨٣).

(٨) صفوة التفاسير (٢/ ٦٣، ٦٤).

وروبيل) تجددت الأحزان في قلبه لفقد يوسف (عليه السلام) وأحس أن قلبه يكاد أن يتمزق من الحزن على فقد أولاده.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(١) ..

إنها صورة مؤثرة لهذا الوالد الذي تكررت مصيبته في ولديه بعد مُصابه في يوسف (عليه السلام) .. فأحس أنه منفردٌ بهمه وأنه وحده هو الذي يشعر بكل هذه الآلام والأحزان.. هو وحده الذي يبكي فراق يوسف منذ أربعين سنة.. هو وحده الذي يبكي فراق ولديه (بنيامين وروبيل).

فاعتزل كل من حوله وجلس جانبًا يبكي ويقول: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾(٢) .. لقد جاء الحزن الجديد فذكَّره بحزنه على فراق يوسف (عليه السلام).

* ظل يبكي ويبكي إلى أن فقد بصره أو ما يشبه فقد البصر فصارت أمام عينيه غشاوة بسبب كثرة البكاء لا يمكن أن يرى بسببها.

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(٣).

---

(١)، (٢)، (٣) سورة يوسف: الآية: (٨٤).

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق؛ ﴿قَالُوا﴾[1] له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[2].

يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك فلو رفقت بنفسك كان أولى بك. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] يقول لبنيه لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكوه إلى الله عز وجل وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجًا ومخرجًا وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى... ولهذا قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4].

ثم قال لهم محرضًا على تطلُّب يوسف وأخيه، وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[5] أي: لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة، فإنه لا

(١) سورة يوسف: الآية: (٨٥).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٨٥).
(٣)، (٤) سورة يوسف: الآية: (٨٦).
(٥) سورة يوسف: الآية: (٨٧).

ييأس مـن روح الله وفرجـه، وما يقدره مـن المخرج فى المضايق، إلا القوم الكافرون[1].

* إنه يوضح لأولاده وهو فى شـدة حزنه أنه مـا زال عنده أمل كـبـيـر فى الله (جل وعـلا) .. وأنه يعلم أن يوسف (عليه السلام) لم يمت بل ما زال حيًّا.

- فطلب من أولاده أن يذهبـوا ليـبحـثـوا عنه وليكن دليلهم حسن الظن وصدق الرجاء فى الله (جل وعلا).

* وفعلاً أطاع الأولاد أباهم وشدوا الرحـال إلى مصر مرة أخرى، وتحركت القافلة فى طريقها إلى مصر .. إخوة يوسف (عليـه السلام) فى طـريقهم إلى عـزيز مـصر وقـد تدهورت أحـوالهم الاقـتـصـادية والنفـسيـة .. أضف إلى ذلك حـزن أبيهم.. كل هذه العوامل هدَّت قواهم وأتعبتهم غاية التعب.

وتلاقت القلوب مرة أخرى

ويدخل إخوة يوسف مصر للمـرة الثالثة، وقد أضرَّت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجـاؤوا ببضاعة رديئة

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٩٤ ، ٢٩٥).

هى الباقية لديهم يشترون بها الزاد.. يدخلون وفى حديثهم انكسار لم يُعهد فى أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾[1]

أى: فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا: يا أيها العزيز أصابنا وأهلنا الشدة من الجدب والقحط ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾[2] أى: وجئنا ببضاعة رديئة يرفضها كل تاجر رغبة عنها واحتقارًا.. أظهروا له الذل والانكسار استرحامًا واستعطافًا ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾[3] أى: أتم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾[4] أى: بردّ أخينا إلينا أو بالمسامحة عن رداءة البضاعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾[5] أى: يثيب المحسنين أحسن الجزاء.

وحان وقت المفاجأة الكبرى

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى فى نفس يوسف قدرة على المضى

(١)، (٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة يوسف: الآية: (٨٨).

فى التخفِّى عنهم بحقيقة شخصيته. فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرى التى لا تخطر لهم على بال؛ فإذا هو يترفق فى الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضى البعيد الذى يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه أحد إلا الله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾(1).

ورنَّ فى آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئًا من نبراته.

﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾(2).. أئنك لأنت؟! فالآن.. تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير فى ذلك الرجل الكبير.

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(3). مفاجأة! مفاجأة عجيبة. يعلنها لهم يوسف ويُذكرهم فى إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه فى دفعة الجهالة.

* إنه لم يعاتبهم ولم يقل لهم كلمة تخدش حياءهم وإنما وقف يذكر فضل الله عليه وعلى أخيه.

أما هم.. فقد أخذوا يتذكرون ما فعلوه بيوسف وبدأوا

---

(1) سورة يوسف: الآية: (89).

(2)، (3) سورة يوسف: الآية: (90).

يشعـرون بالخزى والخـجل وهم يواجهـونه الآن بعد كـل ما فعلوه .. وهو يكرمهم ويُغدق عليهم بل ويسامحهم فما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾[١].

وإذا بيوسف يقابل هذا الموقف بالصفح والعفو ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[٢].

لا مؤاخذة لكم ولاتأنيب اليوم. فـقد انتهى الأمر من نفـسى ولم تعد له جـذور. والله يتـولاكم بالمغفـرة وهو أرحم الراحمين.

معجزة باهرة

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٣].

ذُكر أن يوسف لما عـرَّف نفسـه إخوته سألهـم عن أبيهم فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه[٤].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٩١).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٩٢).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٩٣).

(٤) الطبرى (١٣ / ٥٧).

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه، وهو الذى يلى جسده فيضعوه على عينى أبيه، فإنه يرجع بصره بعد ما كان قد ذهب، بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

ثم أمرهم أن يأتوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر، إلى الخير والدعة وجمع الشمل بعد الفُرقة، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور[1].

إنى لأجد ريح يوسف

وأخذت العير تشق طريقها من مصر إلى أرض كنعان حيث يعقوب (عليه السلام) الذى ابتُلى ابتلاءً شديدًا فكان صابرًا على البلاء راضيًا عن رب الأرض والسماء (جل وعلا).. وبينما هو فى تلك الهموم والأحزان وإذا به فجأة قد هدأت نفسه وانشرح صدره وجفَّت دموعه، ودخل روح على قلبه! ما هذا الشعور الغريب، والإحساس الوافد؟ إنه الآن ليشعر بانشراح فى أعماق نفسه.

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٩٦).

أحسَّ يعقوب (عليه السلام) بهذا، فصاح بملء قلبه وجوارحه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾(١).

أي: قال يعقوب لمن حضر من قرابته إني لأشم رائحة يوسف.

لولا أنكم تقولون فى أنفسكم أنى أُخرف لصدقتم ما أقول.

وهكذا الشوق يجعل الإنسان يشم رائحة الأحباب من بعيد.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾(٢) أى: قال حفدته ومن عنده: والله إنك لفى خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم، بإفراطك فى محبة يوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه... وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾(٣) أى: فلما جاء المبشر بالخبر السار... كان البشير أخاه يهوذا الذى حمل قميص الدم، فقال: أُفرحه كما أحزنته(٤): ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾(٥) أى: طرح البشير القميص على وجه يعقوب

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٤).
(٢) سورة يوسف: الآية: (٩٥).
(٣) سورة يوسف: الآية: (٩٦).
(٤) الطبرى (١٣/ ٦٣).
(٥) سورة يوسف: الآية: (٩٦).

﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾[1] أي: عاد بصيرًا لما حدث له من السرور والانتعاش ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] أي: قال يعقوب لأبنائه: ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده عليَّ لتتحقق الرؤيا؟[3].

توبة وندم

وهنا أحس أبناؤه بالندم على كل ما فعلوه فقالوا: ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾[4]. أي: مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾[5] وعدهم بالاستغفار.. أخَّر ذلك إلى السَّحَر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل: أخَّرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[6] أي: الساتر للذنوب الرحيم بالعباد.

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (٩٦).
(٣) الرازي (١٨/٢٠٩).
(٤) سورة يوسف: الآية: (٩٧).
(٥)، (٦) سورة يوسف: الآية: (٩٨).

اجتماع الأحباب بعد الفرقة الطويلة

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾[1].

يخبر تعالى عن ورود يعقوب (عليه السلام) على يوسف - عليه السلام - هو وبنوه وأهله فقد تحملوا عن آخرهم من بلاد كنعان إلى مصر، وخرج يوسف والملك والأمراء وأكابر الناس لتلقيهم.

وقوله تعالى: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[2] أي: قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر، أي: اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط.

وقدر الله تعالى دخول يعقوب في السبع السنين المجدبة ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع بقية السنين المجدبة عن أهل مصر ببركة قدوم يعقوب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾[3] أي:

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٩).

(٢) سورة يوسف: الآية: (٩٩).

(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).

أجلسهما معه على السرير ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾(١) أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ (٢) أي: التي كان قصها على أبيه من قبل: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ (٣).

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾(٤) أي: صحيحة صدقًا... يذكر نعم الله عليه.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ (٥) أي: أنعم الله عليَّ بإخراجي من السجن... ولم يذكر قصة الجب تكرمًا منه لئلا يُخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ (٦) أي: جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسطين، ذكَّرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر.

﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾(٧) أي: أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾(٨)

---

(١)، (٢) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٤).

(٤)، (٥)، (٦)، (٧)، (٨) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).

أي: لطيف التدبير يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]
أي: العليم بخلقه الحكيم في صنعه.

ويا له من مشهد! بعد كرّ الأعوام وانقضاء الأيام.. وبعد اليأس والقنوط. وبعد الألم والضيق.. وبعد الامتحان والابتلاء.

يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع![2].

توفني مسلماً وألحقني بالصالحين

وبعد تلك الرحلة الطويلة المليئة بالجراح والأفراح وإذا بيوسف (عليه السلام) يدعو بهذا الدعاء المؤثر ويقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[3].

دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته. وما منّ الله به عليه من النبوة والملك،

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠٠).
(٢) الظلال (٤/٢٠٢٩).
(٣) سورة يوسف: الآية: (١٠١).

سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلمًا حين يتوفاه، وأن يُلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

* **الدروس المستفادة من القصة:**

(١) أن أجمل وأحسن القصص هو قصص القرآن وذلك لما فيه من العبر والعظات والدروس والفوائد التربوية.

(٢) أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

(٣) أن من رأى رؤيا صالحة فلا يخبر بها إلا من يحب ومن رأى رؤيا يكرهها فلا يحدث بها أحدًا وليقم إلى الصلاة.

(٤) أن الرجل يتمنى أن يكون ولده أفضل منه.

(٥) أن الحسد منتشر بين كثير من الناس .. وقد يكون أحيانًا بين الإخوة.

(٦) أن الحقد والحسد قد يحمل صاحبه على أن يقع في أشياء محرمة وقد يحمل صاحبه على الظلم أو

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٠).

القتل.. كما حدث مع إخوة يوسف حينما ظلموا أخاهم يوسف (عليه السلام) وألقوه فى الجب.

(٧) أن الإنسان لا بد أن يتذكر عند ظلمه غيره أن الله قادر عليه.. فإذا دعتك قدرتك على ظلم العباد فتذكر قدرة الله عليك.

(٨) أن النبوة والهداية هى محض فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

(٩) أن الله قادر على أن يحفظ عبده المؤمن من المهالك.. فلقد حفظ الله نبيه يوسف (عليه السلام) فى الجب من الثعابين والعقارب وحفظه خارج الجب من الذئاب والوحوش.. وحفظه فى كل مراحل حياته من أى مكروه.. لكن هذا لا يمنع أن يبتلى الله عبده المؤمن ليرفع درجته.

(١٠) أن الله (عز وجل) يفضح الكذابين فى الدنيا قبل الآخرة.. فلقد رأينا كيف أن إخوة يوسف لما كذبوا وقالوا لأبيهم: إن الذئب أكل يوسف (عليه السلام) نسوا أن يقطعوا القميص واكتفوا بذبح شاة وتلطيخ القميص بدم الشاة فكشفهم الله.. وعلم يعقوب (عليه السلام) أنهم يكذبون.

(١١) إذا أراد الله شيئًا قـدَّر أسبابه .. فلما أراد الله (عز وجل) أن يكون يوسف بعـد ذلك عزيز مصـر جعل عزيز مـصر يشتريه ويربيـه فى قصره ليتعلم يوسف على يديه علم الاقـتصاد، وعلمـه علم تأويل الرؤى لأن الملك سيحتاج إليه وسيجعله عزيز مصر.

(١٢) أن الاختلاط سـبب كل بلاء وشر .. وقد رأينا كـيف أن امرأة العـزيز لما كـانت تختلط بـفتـاها نبى الله يوسف (عليه السلام) كان ذلك سبـبًا فى وقوعها فى تلك الفتنة ومراودتها له ومحاولتها أن توقعه فى فعل الفاحشة.

(١٣) أن المسلم الحقيقى هو الـذى يغار على نسائه أما الذى لا يغـار على نسائه فـهو ديوث وقد حـرم الله الجنة على الرجل الديوث الذى لا يغـار على نسائـه ... وقد رأينا كيف أن عزيز مصر كان لا يغار على امرأته.

(١٤) أن المرأة لا بد أن تنشغل بأى عمل فيه خـير لنفسها ولأسرتها ولدينها ولوطنها .. وذلك لأن المرأة إذا كانت فارغة لا تعمل أى شيء فـإنها تنشـغل بالقيل والقال فـيضـيع دينها بسبب الغيبة والنميمة وقد رأينا ذلك واضحًا فى نسوة المدينة.

(١٥) أن المؤمن يفضل أن يدخل السجن عن أن يقع في معصية الله (جل وعلا). وقد رأينا يوسف (عليه السلام) لما عُرضت عليه الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[1].

(١٦) أن المسلم لا يتوقف أبدًا عن الدعوة إلى الله (جل وعلا).. ولقد رأينا كيف أن يوسف (عليه السلام) كان يدعو إلى الله في كل مكان حتى وهو في السجن.

(١٧) أن المسلم لا يتعلق قلبه بغير الله.. ولقد رأينا كيف أن يوسف (عليه السلام) لما اعتمد على ساقي الملك لكي يذكر قصته للملك حتى يرفع عنه الظلم نسي ساقي الملك أن يذكر قصته حتى لا يتعلق قلب يوسف (عليه السلام) بغير الله.

وكان هذا من إكرام الله لنبيه يوسف (عليه السلام) فإنه لم يجعل قضاء حاجته على يد عبدٍ من عباده.

(١٨) إذا اشتدت المحن فقد أوشك الفرج أن يأتي قريبًا.

(١٩) أن عاقبة الصبر دائمًا كلها خير.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٣٣).

(٢٠) كلما كان قلبك موصولاً بالله (جل وعلا) كلما جاءك الفرج من حيث لا تحتسب . . فإنه لما أراد الله (عز وجل) خروج يوسف من السجن هيأ له أسبابه التى لا تخطر على قلب يوسف (عليه السلام) . . لقد جعل الله ملك مصر يرى رؤيا وجعل حاشيته يعجزون عن تأويلها ثم جعل ساقى الملك يتذكر يوسف بعد سنوات طويلة فيخبر الملك أن يوسف هو الوحيد الذى يستطيع أن يفسر له تلك الرؤيا فيفسرها يوسف ويعطيهم الحلول ليحبه الملك ويُخرجه من السجن ويجعله بعد ذلك عزيز مصر .

(٢١) أن المؤمن يفعل الخير لله ولا ينتظر مقابلاً . . فقد رأينا كيف أن يوسف ذكر لهم تأويل الرؤيا ووضع لهم خطة اقتصادية لمدة خمس عشرة سنة دون أن يطلب منهم أن يُخرجوه من السجن أو يطلب مقابلاً ماديًا .

(٢٢) أن المؤمن لا بد أن يحرص على سُمعته وسيرته أن تكون طيبة .. ولذلك رأينا يوسف (عليه السلام) عندما عرضوا عليه أن يخرج من السجن رفض الخروج قبل أن تظهر براءته حتى لا يظن أى إنسان به ظنًا سيئًا .

(٢٣) ليس من العيب أن يُخطئ الإنسان لكن العيب أن يستمر على الخطأ ولا يعترف بخطئه .. ولقد رأينا كيف أن امرأة العزيز ونسوة المدينة اعترفوا جميعًا بخطئهم وشهدوا ببراءة يوسف (عليه السلام).

(٢٤) يجوز أن يزكى المسلم نفسه عند من لا يعرف قدره ومكانته .. وخصوصًا إذا كان يريد خدمة المسلمين.. فلقد رأينا يوسف (عليه السلام) يقول للملك: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .. فيوسف (عليه السلام) لم يطلب ذلك لنفسه وإنما طلب ذلك ليقوم بإطعام كل الشعوب العربية بما لديه من خبرة اقتصادية عالية.

(٢٥) أن المسلم لا بد أن يُحسن إلى أقاربه وأرحامه.. ولقد رأينا كيف أحسن يوسف (عليه السلام) إلى إخوته وأقاربه.

(٢٦) أن المسلم إذا أعطى عهدًا لأحد فلا بد أن يكون صادقًا وفيًا.

---

(١) سورة يوسف: الآية: (٥٥).

(٢٧) لا مـانع أن يأخذ المسلم بالأسـباب ليـدفع عن نفسه الحسد.. فقد أمر يعقـوب (عليه السلام) أولاده أن يدخلوا من أبواب متفرقة ولا يدخلوا من باب واحد خوفًا عليهم من الحسد.. وهذا من باب الأخذ بالأسباب.

(٢٨) أن الحزن قد يهلك صاحبه ويصيبه بالآفات.. ولقد رأينا كـيف أن يعقوب (علـيه السلام) ابيـضت عيناه من الحزن.

(٢٩) أن المؤمن لا يعـرف لغـة الانتقـام وإنما يتـحلى دائمًا بلغة العفو.. ولقـد رأينا يوسف (عليه السلام) بعد كل ما فـعله إخوته معـه قال لهم: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1].

(٣٠) أن الله يكرم الأنبياء والمـرسلين بالمعجزات.. ولقـد رأينا كـيف أن قمـيص يوسف لما أُلقي على وجـه يعقوب (عليهما السلام) عاد مبصرًا مرة أخرى بفضل الله (جل وعلا).

(٣١) أن شدة شوق الإنسان لأحبابه يجعله وكأنه يشم

(١) سورة يوسف: الآية: (٩٢).

ريحهم من أبعد الأماكن.. فقد رأينا كيف أن يعقوب (عليه السلام) وهو فى فلسطين شم رائحة يوسف (عليه السلام) وهو فى مصر.

(٣٢) الاعتراف بالخطأ فضيلة .. فلقد اعترف إخوة يوسف (عليه السلام) بخطئهم وطلبوا من أبيهم يعقوب (عليه السلام) أن يستغفر لهم.

(٣٣) ما أجمل أن يجتمع الأحباب بعد طول غياب.. فلقد رأينا هذا المشهد المؤثر عندما اجتمع يوسف (عليه السلام) بأبيه وأسرته بعد غياب أربعين سنة .. فياليتنا نحرص على بر الوالدين وصلة الأرحام حتى تتآلف القلوب مرة أخرى.

(٣٤) أن العبد مهما وصل لأعلى المراتب فلا بد أن يشتاق للقاء الله (جل وعلا) وللجنة ولذلك لابد أن نحرص على أن تسأل الله حسن الخاتمة... فيوسف (عليه السلام) بعدما أصبح نبيًّا كريمًا وأصبح عزيز مصر، قال: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: الآية: (١٠١).

قصة أيوب (عليه السلام)

كان ياما كان . .

كان فى بلاد حوران نبى كريم اسمه أيوب (عليه السلام).

وكان الناس وما زالوا إلى يومنا هذا يضربون به المثل فى الصبر والرضا بقضاء الله (جل وعلا).

كان أيوب - عليه السلام - رجلاً كثير المال، آتاه الله جملة عظيمة من الثروة، فقد أنعم الله عليه من سائر صنوف أنواع النعم، وفى مقدمتها الأراضى المتسعة الخصبة، وكانت له من الخيل ما يُدهش الأبصار، كما كانت له أعداد وفيرة من الإبل والبقر والغنم وسائر الماشية، وقد كان لأيوب ألف شاة برعاتها، ناهيك بالعبيد الذين يقومون برعاية الأرض وخدمة الأنعام.

* وكان أيوب - عليه السلام- برًا تقيًا رحيمًا، يُحسن إلى المساكين، ويكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكرًا لأنعُم الله عليه، مؤديًا لحق الله عز وجل.

* وكان لأيوب - عليه السلام - أولاد وأهلون كثير،

وكانت زوجه (ليا) ترفل فى هذا النعيم، شاكرة عابدة عارفة حق الله على العباد فى الشكر، فقد كانت تكثر الحمد والشكر والثناء على الله عز وجل، إذ رزقها من البنين والبنات ما تقرّ به عينها ولا تحزن، وأوسع عليها وعلى زوجها من الرزق شيئًا مباركًا، وفضّلهما على كثير من خلقه.

* كانت (ليا) تدرك أن سر بقاء النعمة هو شكر المنعم.. فكانت دائمة الذكر والحمد، تؤدى إلى كل ذى حقٍّ حقه، فتواسى عباد الله وتبر بهم، وتُحسن إليهم، وتستنير بذلك فى ضوء إرشاد زوجها نبى الله أيوب - عليه السلام- (١).

* وفى يوم من الأيام جاءه أحد عبيده ليخبره أن ولدًا من أولاده قد مات فصبر واحتسب ثم مات ولد آخر بعد ذلك بأيام فصبر واحتسب وظل أولاده يموتون الواحد وراء الآخر حتى مات كل أولاده.

* بل وفى نفس الوقت كانت المواشى والأغنام والخيل تموت أمامه حتى فنيت جميعًا وهو صابر محتسب.

* وابتُلى فى جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله (عز وجل) بهما،

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٤٣، ١٤٤).

وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكرٌ لله عز وجل في ليله ونهاره، وصُبحه ومسائه.

وطال مرضه وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضعف حالها، وقَلَّ مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، (رضى الله عنها وأرضاها) وهي صابرة معه على ما حلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة.

ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا حتى إن المثل لَيُضرب بصبره عليه السلام، ويُضرب أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ٢٥٧ ، ٢٥٨).

إنها نعمة الرضا

لقد امتلأ قلب أيوب (عليه السلام) رضًا بقضاء الله ولم يتسخط لحظة واحدة بل كان يستحي أن يسأل ربه الشفاء. حتى كان يُضرب به المثل فى الصبر والرضا فيقال: صبر أيوب.

* وأما ليا زوجه، فقد أشفقت عليه إشفاقًا شديدًا فلما رأت أن زوجها أيوب قد طال عليه البلاء، ولم يزدد إلا شكرًا وتسليمًا، عندئذ تقدمت منه وقالت له: يا أيوب، إنك رجل مجاب الدعوة، فادع الله أن يشفيك. فقال: كنا فى النعماء سبعين سنة، فدعينا نكون فى البلاء سبعين سنة[1].

نعم العبد إنه أواب

وعلى الرغم من هذا البلاء الشديد الذى تعرض له نبى الله أيوب (عليه السلام) إلا أن الله وجد قلبه راضيًا وصابرًا لم يتسخط لحظة واحدة فوصفه الله (عز وجل) بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[2].

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٥/١٠٧).

(٢) سورة ص: الآية: (٤٤).

وقفة هامة

ولقد جاء فى بعض المصادر الضعيفة أن أيوب (عليه السلام) ابتُلى بمرضٍ شديد كالجذام أو الجدرى أو سائر الأمراض المنفرة مما جعل الناس ينفرون منه ويخشون العدوى.. وأنه أُلقى على مزبلة خارج البلد .. وهذا كله كذب على نبى الله أيوب (عليه السلام) وذلك لأن الله (عز وجل) لم يكن ليبتلى نبيًّا من أنبيائه بمرض يُبعد الناس عنه لأن ذلك يحول بين هذا النبى وبين تبليغ دعوة الله عز وجل وتبليغ الشرائع والأحكام.

فكل ما جاء بهذا الصدد إنما هو من الإسرائيليات الضعيفة التى تخالف ما جاء فى القرآن وصحيح السنة المطهرة.

الزوجة الوفية

لقد طال المرض على سيدنا أيوب (عليه السلام) حتى رفضه القريب والبعيد وانصرف عنه الناس ولم يبق معه إلا زوجته الوفية الصابرة التى كانت ترعاه وتخفف عنه حتى نفد مالها ولم تجد عملاً إلا أن تخدم الناس لتحصل

على المال لتشترى به طعامًا لزوجها المريض.

* وكان أيوب (عليه السلام) يزداد ألمًا وهو يرى زوجته وقد تبدَّل حالها من الغنى إلـى الفقر ومن النعيم والرخاء إلى العذاب وخدمة الغرباء.

* وطالت سنوات المرض والـبـلاء على أيوب (عليه السلام) وهو مـازال على حاله يذكر الله ويشكره ويصـبر على قضائه.

* وكان الناس يعطفـون على زوجته بعدمـا علموا ما حـدث لزوجهـا أيوب (عليـه السلام) .. إلى أن خـاف الناس من مرضه وظنوا أنه مرضٌ مُعدٍ وأن المرض سينتقل من أيوب إلى زوجـته وبالتـالى فسـوف ينتقل إليـهم .. فخاف الناس منها ومنعوها من العمل عندهم.

* أخذت الزوجة الوفية تفكر كثيرًا: ماذا تصنع لتُطعم زوجها المريض .. فكرت كثيرًا حتى وصلت إلى حلٍّ فى غاية الصعوبة لكن لا بد منه.

أمسكت بضفـائر شعرها وقصـتها وذهبت لتبيـعها إلى إحدى بنات الأشراف مقابل الكثير من الطعام والشراب..

وعادت إلى زوجها وهى فى قمة السعادة أنها استطاعت أن تأتى إليه بالطعام فسألها أيوب: من أين لك هذا الطعام؟

فخافت زوجته أن يغضب إذا علم أنها باعت ضفيرة شعرها فقالت له: خدمت به بعض الناس.

* وطالت سنوات البلاء على سيدنا أيوب (عليه السلام) .. والمرض يزداد كل يوم وهو مازال يعيش فى الفقر والمرض والحرمان وحيدًا بلا أهل ولا إخوان سوى زوجته المخلصة الوفية.

ومع ذلك كان أيوب صابرًا شاكرًا راضيًا بقضاء الله.

حوار بين رجلين

ولكن الشيء الذى أدخل الحزن على قلب أيوب (عليه السلام) هذا الحوار الذى سمعه من رجلين من أقرب الناس إليه.

لقد قال أحدهما للآخر: لقد أذنب أيوب ذنبًا عظيمًا، وإلا لكُشف عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب.

جاء الفرج الإلهى

* لقد تفكر أحد الرجلين فى حال أيوب، وامتداد بلائه، فقد مضى على البلاء الذى حلَّ به ثمانى عشرة سنة، ولم يكشف الله عنه ما أصابه به، وجال بخاطره أن هذا البلاء ربما كان بسبب ذنب عظيم ارتكبه أيوب، وأطلع هذا الرجل صاحبه على ما دار فى خلده، فلم يصبر أن صارح أيوب بما قاله عنه صاحبه، فآلم ذلك أيوب أشد الألم، وكشف لهما من حاله ما ينفى تلك المقالة، فقد بلغ به الأمر فى حال سلامته وعافيته أنه كان يرى الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فيرجع إلى منزله فيتصدق عنهما، كراهة أن يُذكر الله إلا فى حق.

أيوب (عليه السلام) يُقسم أن يضرب زوجته

* هكذا ظل أيوب (عليه السلام) فى هذا البلاء وظلت زوجته تبيع ضفائرها بعد أن رفض الناس أن تعمل عندهم.

وفى يوم من الأيام ذهبت لتبيع ضفيرة أخرى وعادت بالطعام

والشراب لزوجها فأصر أيوب (عليه السلام) أن يعرف من أين تأتي زوجته بهذا الطعام وأقسم ألا يأكل حتى تخبره بذلك.

وأقسم أن يضربها مائة ضربة عندما يشفى.

فما كان من هذه الزوجة الوفية إلا أن أخبرته بالحقيقة بل وكشفت عن رأسها فرأى شعرها محلوقًا فحزن لذلك حزنًا شديدًا وأدرك فى تلك اللحظة أن هذه الزوجة الوفية ضحت بكل شيء من أجله فتألم لذلك ألمًا شديدًا.

وكان الشفاء بإذن الله (جل وعلا)

هنالك توجه إلى ربه بالدعاء، طالبًا منه كشف البلاء ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[(١)]، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[(٢)].

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه، فالله على كل شيء قدير، وإذا شاء شيئًا كان لا يُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء[(٣)].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٨٣).

(٢) سورة ص: الآية: (٤١).

(٣) صحيح القصص النبوى (ص: ١٦٠).

* جاء الفرج الإلهي .. وجاءت الوصفة الطبية الربانية لأيوب؛ أما صفة هذه الوصفة الربانية فموجودة في القرآن الكريم والذكر الحكيم في قوله عز وجل: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾[1].

* كان الدواء كما لاحظنا بسيطًا، هينًا لينًا .. أمر الله أيوب أن يضرب برجله الأرض .. امتثل أيوب أمر ربه، ومسَّ الأرض .. فنبع منها الماء نقيًا عذبًا فراتًا سائغًا، فشرب منه فبرئ ما كان في باطنه من دقيق السقم وجليله، واغتسل فبرئ من ظاهره أتم براءة، فما كان يرسل الماء على عضو إلا ويعود في الحين أحسن ما كان قبل بإذن الله تعالى.

* بدأت الصحة تدب في أيوب .. بدأ السقم يزول فورًا .. تمشّى البُرء في مفاصله وأوصاله .. طُردت الأسقام من بدنه .. لم يعد يجد ألمًا ظاهرًا، ولا ألمًا داخليًا.

الله أكبر ما أعظم هذا الدواء![2].

* وكان من عادته أنه إذا خرج ليقضي حاجته جاءته زوجته، فأمسكت بيده لضعف بدنه، فإذا أوصلته إلى

(١) سورة ص: الآية: (٤٢).
(٢) تساء الأنبياء (ص: ١٥٥).

المكان المقصود، تركته حتى يقضى حاجته، ثم عادت إليه تمسك به، تعينه على الرجوع إلى مكان إقـامته، وقد أبطأ عليها فـى ذلك اليوم الذى دعا فيه ربه، فـقد أوحى الله إليه أن يضرب بـرجله الضعيفة الأرض، فـانبثق الماء من مـوضع ضـربته، فـأمـره الله أن يشـرب من ذلك الماء، ويغتـسل منه، فأذهب الماء أمراضه التى فى ظاهـر جسده وباطنه، وعادت إليه الحيوية والنشاط فى الحال، ورجعت له صحته وعافيته كأن لم يكن به مرض.

وعاد إلى زوجته يتدفق حيـوية ونشاطًا، كحاله قبل أن يداهمه المرض، فلما رأته لم تعرفه مع أنهـا رأت فيه شبه الزوج أيام كان صحيحًا مـعافى، وسألته عن زوجها النبى المبتلى، وذكرت له ما لاحظتـه من شبهه به أيام كان سويًا صحـيحًا، ولم تـكن تتوقع أن يصلح حالـه، ويشفى من مرضه فى هذه المـدة الوجيزة التى غابها عـنها، وكم كان فرحها وسرورها عظيمًا عندما رأت نعمة الله عليه فى ردِّه عافيته وصحته إليه[1] .

---

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١٦٠).

وآتيناه أهله ومثلهم معهم

* وكما ردَّ الله عليه عافيته وصحته، رد عليه ضعفي المال الذي فقده، ورزقه ضعفي ما كان عنده من الأولاد، فقد أرسل الله سحابتين، لا تحملان مطرًا، بل ذهبًا وفضة، وكان لأيوب بيدران أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب في بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة في بيدر الشعير(١).

خفة ظله (عليه السلام)

وكان أيوب عليه السلام، خفيف الظل، ندي الروح، فيه دعابة في صدق، فقد أخبرنا الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كان أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه رِجل من جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أغنك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»(٢).

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ١٦١).
(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٣٩١)، والرجل من الجراد: السرب من الجراد.

ولعلك تخيلت منظر أيوب، وهو يثب عـريانًا، يجمع ذلك الجراد ويحثيـه في ثوبه، ويناديه ربه، ألم أغنك عما ترى، أي: بما أفاضتـه السحابتان من الذهـب والفضة في بيدريه، ويأتي الجواب: لا غنى لي عن بركتك يا رب(١).

ومن يتق الله يجعل له مخرجًا

* وكان أيوب (عليـه السلام) قد غضب على زوجـته في مرضه، فنذر إن شفاه الله أن يضربها مائة ضربة، وعزَّ عليـه بعـد شـفـائه أن يكون جـزاؤها منه على صـبـرها ورعـايتـهـا الضرب والجـلد، وشق عليـه أن لا يفي لربه بنذره، فـجـعل الله له فرجًا ومـخـرجًا، إذ أمـره أن يأخذ حزمـة من قش القمح أو الشـعيـر، فيضـربها بهـا ضربة واحدة، فـيكون قد وفَّى بنذره، ولم يضـر زوجتـه، قال تعالى لأيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ﴾(٢).

* * *

---

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ١٦٢).

(٢) سورة ص: الآية: (٤٤).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن العبد المؤمن لا بد أن يشكر الله على نعمه .. والشكر لا يكون باللسان فقط بل يكون بالقلب واللسان والجوارح وذلك بأن يعبد الله وبأن يستخدم هذه النعمة فى طاعة الله (جل وعلا).

(٢) أن نعم الدنيا ومتاعها لا يدوم بل قد يزول فى لحظة واحدة أما النعيم المقيم الذى لا يزول فهو نعيم الجنة ولذلك يجب علينا أن نحرص على كل عمل يقربنا إلى الجنة ويباعدنا عن النار.

(٣) أن المسلم لابد أن يحمد الله فى السراء والضراء وأن يكون راضيًا بقضاء الله إذا نزل به البلاء .. ولابد أن يعلم أن الله (عز وجل) يعطى الصابرين عطاءً بغير حساب فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

(٤) أن الزوجة الوفية هى التى تعيش مع زوجها فى السراء والضراء وهى التى تكون فى عونه إذا ضاق به

---

(١) سورة الزمر: الآية: (١٠).

الحال . . وها نحن نرى مثالاً رائعًا لوفاء الزوجة لزوجها فى قصة زوجة أيوب (عليه السلام) .. وكذلك فى قصة أمنا خديجة رضي الله عنها مع النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

(٥) إذا اشتد البلاء فقد اقترب الفرج ، وأشد ساعات الليل سوادًا ما يعقبها طلوع الفجر: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(١)]، ولن يغلب عسرٌ يُسرين .

(٦) أن الله (عز وجل) يُعوض العبد خيرًا مما أخذ منه ويلطف به ويرزقه من حيث لا يحتسب إذا صبر العبد واحتسب .

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة الشرح: الآيتان: (٥، ٦).

قصة ذى الكفل
(عليه السلام)

كان ياما كان . .

لما كبر نبى الله اليسع قال فى نفسه: لو أنى استخلفت رجلاً على الناس فأنظر كيف يحكم ويعدل بين الناس فإن كان عادلاً رحيمًا جعلته خليفة على الناس من بعدى.

فقام وجمع الناس وقال: من يضمن لى أن يفعل ثلاثة أشياء أستخلفه من بعدى.

قال الناس: وما هى؟

فقال اليسع (عليه السلام): يصوم النهار ويقوم الليل ويعدل فلا يغضب.

فقام رجل بسيط - وهو ذو الكفل - فقال: أنا.

فقال اليسع (عليه السلام): أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟! قال: نعم. قال: فردَّهم ذلك اليوم، وقال مثلها اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك

الرجل، فقال: أنا. فاستخلفه.. فسماه الله ذا الكفل، لأنه تكفل بأمر فوقّى به[1].

* فكان بعد ذلك من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم.

وكان ذو الكفل رجلاً صالحًا، وحكمًا مقسطًا عادلاً، وقد تعهد ذو الكفل أن يكفيهم أمرهم، ويقضي مصالحهم، ويحكم بينهم بالعدل، وقد كان رجلاً صابرًا مؤمنًا.

وقد أثنى الله عليه وأدخله في رحمته في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾[3].



(١) البداية والنهاية (١/ ٢١٠، ٢١١).
(٢) سورة الأنبياء: الآيتان: (٨٥، ٨٦).
(٣) سورة ص: الآية: (٤٨).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) المسلم يحرص كل الحرص على نشر الخير وعلى نفع الناس وإيصال الخير لهم فى حياته وبعد مماته .. فقد رأينا كيف كان اليسع (عليه السلام) حريصًا على أن يختار رجلاً يعدل بين الناس ويرحمهم من بعده.

(٢) الوفاء بالعهد والوعد من صفات المؤمنين .. فقد رأينا كيف أن ذا الكفل وعد اليسع (عليهما السلام) بأن يعدل بين الناس وأن يكون عابدًا لله فكان كما قال ووفَّى بوعده فأكرمه الله بعد ذلك بنعمة النبوة.

(٣) أن العدل والصلاح والتقوى سبب لدخول الإنسان فى رحمة الله (جل وعلا).

* * *

قصة يونس (عليه السلام)

كان ياما كان . .

كان فى قرية يقال لها (نينوى) نبى كريم اسمه يونس (عليه السلام) أرسله الله إلى أهل هذه القرية التى عاش أهلها زمانًا طويلاً على الجهل والشرك . . فأرسل الله إليهم نبيه يونس (عليه السلام) ليدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وإلى عبادة الخالق (جل وعلا) ولكنهم رفضوا الإيمان والتوحيد وأصروا أن يعيشوا فى ظلمات الشرك والكُفران .

فلما يئس منهم نبى الله يونس (عليه السلام) خرج من تلك القرية ووعدهم بحلول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام .

توبة قوم يونس (عليه السلام)

لم ينظر يونس (عليه السلام) أن يأتيه الأمر من الله (جل وعلا) بالرحيل من هذه القرية الظالمة فتعجل الخروج وهو فى حالة من الحزن والغضب .

فلم يشعر أنه بذلك أخطأ وأنه ليس من مهمته هداية

الناس وإنما مهمته تقتصر على دعوتهم إلى الله وأما الهداية فلا يملكها إلا الله (جل وعلا).

* المهم أنه لما خرج يونس (عليه السلام) من بين أهل هذه القرية الظالمة وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله عز وجل، وصرخوا، وتضرعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فرغت الإبل وفُصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة، فكشف الله بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم بسبب توبتهم، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم»[1] ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2].

فقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن قوم يونس

(١) البداية والنهاية: ١/ ٢٣٢.

(٢) سورة يونس: الآية: (٩٨).

نفعهـم إيمانهم بعد نزول العذاب بهم، ورفـعه الله عنهم بعد إحاطته بهم.

ومضت الأيام الثلاثة التي وعد بها يونس قومه، فجاء ينظر موعود الله فيهم، ولعله كان معتزلاً لهم، لم يدر بما فعلوه من التوبة والإنابة، فوجدهم لما أطلَّ عليهم سالمين، فـأغضـبـه ذلك، وكان جـزاء الكاذب عندهم أن يُقـتـل، فخرج هاربًا من قومه، خشية القتل.

وكان الواجب على يونس أن يرضى بقـضاء الله تبارك وتعالى، ويُسلم لأمره، فليس للعبـد أن يُغضبه فعل ربه، وما كان ليونس أن يخـرج من غير إذن منه، ولذلك نهى الله رسولنا ﷺ أن يكون كصـاحب الحوت، وصاحب الحـوت هو يونس لالتقـام الحـوت له، . . . قال تعـالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾[1][2].

❋ ❋ ❋

(١) سورة القلم: الآية: (٤٨).

(٢) صحيح القصص النبوي (ص: ١٢٤، ١٢٥).

وها هو (عليه السلام) في بطن الحوت

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضبًا بسبب قومه، ركب سفينة في البحر فلجَّت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون.

قالوا: فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القُرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضًا، فشمر ليخلع ثيابه، ويلقي بنفسه فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضًا، لما يريده الله به من الأمر العظيم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾(١) وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر، وبعث الله عز وجل حوتًا عظيمًا من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى ألا يأكل له لحمًا ولا يهشم له عظمًا فليس

(١) سورة الصافات: الآيات: (١٣٩، ١٤٢).

لك برزق، فأخذه فطاف به البحار كلها.

قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه فتحركت، فإذا هو حي فخرَّ لله ساجدًا وقال: يا رب.. اتخذت لك مسجدًا في موضع لم يعبدك أحد في مثله[(١)].

* لقد فوجئ يونس (عليه السلام) أنه في ظلمات ثلاث: ظُلمة الليل وظلمة قاع البحر وظلمة بطن الحوت.. وهنا أحس بذنبه وشعر أنه أخطأ عندما خرج من هذه القرية بغير أمرٍ من الله (جل وعلا) فأخذ يصلي ويُسبح ويستغفر الله (جل وعلا) في بطن الحوت.

كان من الممكن أن يظل في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ولكن شيئًا واحدًا كان سبب نجاته من هذا العذاب الأليم، هذا الشيء هو التسبيح والذكر والدعاء.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[(٢)].

---

(١) قصص الأنبياء (ص: ٣٢٩).

(٢) سورة الصافات: (١٤٣، ١٤٤).

الملائكة تشفع له عند الله (جل وعلا)

إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة... فقال الله تعالى: أما تعرفون ذلك قالوا: يا رب ومن هو؟ قال (عز وجل): هذا عبدي يونس قالوا عبدك يونس... الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة قالوا: يا رب أوَ لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء، قال: بلى فأمر الحوت فطرحه بالعراء[1].

* خرج يونس (عليه السلام) من بطن الحوت وهو في غاية المرض والتعب وقد ضعف بدنه وتآكل جلده.. قال تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾[2].

* وأنبت الله له على شاطئ البحر شجرة من يقطين وهو نبات له فوائد عظيمة للجسم وأوراقه عريضة فكان يونس (عليه السلام) يأكل منها ويحتمي بظل أوراقها

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤/ ١٨، ١٩).
(٢) سورة الصافات: الآية: (١٤٥).

العريضة من أشعة الشمس.

وظل هكذا فترة من الزمان حتى استرد صحته وعافيته.

قصته مع الغلام

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن يونس كان يستظل بظل هذه الشجرة، ويأكل منها، وأنها يبست بعد مدة من الزمن، فبكى عليها نبي الله يونس حين يبست، فأوحى الله إليه معاتبًا: **«أتبكى على شجرة أن يبست، ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم»**.

ولما صح جسده، وأصبح قادرًا على المشي والحركة، خرج يمشي، فوجد غلامًا يرعى غنمًا، فسأله من أي الأقوام هو، فقال: إنه من قوم يونس، فطلب منه أن يسلم على قومه، ويخبرهم بأنه لقي يونس.

وكان الغلام حصيفًا نبيهًا عالمًا بما عليه قومه في شأن الكاذب، فقال ليونس: إن تكن يونس، فقد تعلم أنه من كذب ولم يكن له بينة قُتل، فمن يشهد لي؟ قال: تشهد لك هذه الشجرة، وهذه البقعة.

فقال الغلام ليونس: مُرْهُمَا، أى: بالشهادة له.

فقال لهما يونس عليه السلام: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم.

وهذا كله بقدرة الله عز وجل.

فرجع الغلام إلى قومه، وكان له إخوة لهم جاه ومكانة فى قومهم يمتنع بهم ممن يريد إيذاءه، فأتى الملك، وبلَّغه بلقائه بيونس وبلغه سلامه عليه وعلى قومه، ويبدو أنه قد استقر عند الملك وقومه أن يونس هلك، خاصة وأن ركاب السفينة لا بد أنهم قد حدثوا بما كان من غرقه فى البحر وابتلاع الحوت له، فكان إخبار الغلام بما أخبر به كذبًا لا شك عندهم فيه، ولذا فإنه أمر بقتل الغلام فى الحال.

فأخبره الغلام أن عنده دليلاً يدل على صدقه، فأرسل معه بعض خاصته، فلما وصلوا إلى الشجرة والبقعة التى أمرهما يونس بالشهادة له، خاطبهما قائلاً: نشدتكما بالله، هل أشهدكما يونس، قالتا: نعم.

فرجعوا خائفين وجلين، وأخبروا الملك بما سمعوه، فما كان من الملك إلا أنه نزل عن كرسيه، وأمسك بيد

ذلك الغلام، وأجلسه ملكًا في مكانه، وقال له: أنت أحق بهذا المكان مني.

وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن ذلك الغلام حكم أربعين سنة، أقام لهم فيها أمرهم، وصلح فيها حالهم.

والذي يظهر أن يونس إنما أمر الغلام بالسلام على قومه وإخبارهم بحياته، وإشهاد البقعة والشجرة على ذلك، ليدل قومه على أنه لم يكذب عليهم، وأن كل ما كان إنما كان بأمر الله، فشهادة البقعة والشجرة للغلام شهادة ليونس بالنبوة، والنبي صادق لا يكذب[1].

وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2].

فلما استكمل عافيته ردَّه الله إلى قومه الذين تركهم مغاضبًا. وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه، فآمنوا، واستغفروا وطلبوا العفو من الله فسمع

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ١٢٧، ١٢٨).

(٢) سورة الصافات: الآيتان: (١٤٧، ١٤٨).

لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وكانوا مائة ألف يزيدون ولا ينقصون. وقد آمنوا أجمعون.

* **الدروس المستفادة من القصة:**

(١) المؤمن الصادق يحزن ويتفطر قلبه حزنًا وألمًا عندما يرى قومه يعصون ربه (جل وعلا).

(٢) أن الرفق مطلوب فى كل شيء وبخاصة عند الدعوة إلى الله (جل وعلا).

(٣) أن المؤمن عليه أن يدعو إلى الله ولا ينتظر النتائج فالهداية لا يملكها إلا الله (جل وعلا).

(٤) ينبغى للمؤمن أن يكون وقَّافًا عند أمر الله، صابرًا لحكمه، ولا ينبغى له أن يعجل فيما يعلم أن لله فيه أمر.

(٥) أثر التوبة والإيمان فى رفع غضب الله ومقته وانتقامه، كما وقع من قوم يونس لما آمنوا كشف الله عنهم العذاب.

(٦) قد يبتلى الله عباده الصالحين إذا وقع منهم شيء من المخالفة لأمر الله، كما ابتلى يونس عليه السلام

ولكنه ينجيهم بإيمانهم وصلاحهم ودعائهم، كما نجى يونس من بطن الحوت.

(٧) أثر الدعاء والاعتراف بالخطأ في النجاة من الأهوال، فقد نجى الله يونس بدعائه وتسبيحه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

(٨) فيه دلالة على قدرة الله العظيمة، فقد أسكن السفينة ومنعها من الجريان، والسفن حولها تجري، ومنع الحوت من أن يهلك يونس عندما صار في بطنه، وأمره بإلقائه على شاطئ البحر، وأسمع يونس تسبيح الحصا في قعر البحر، وأقدر الشجر والحجر على النطق والشهادة للغلام.

(٩) هذه المخالفات التي وقعت من نبي الله يونس لا تغض من مكانته، ولا تنقص من قدره، فهو من أنبياء الله ورسله الذين اختارهم واصطفاهم وفضّلهم.

(١٠) فضل دعوة ذي النون، وقد أصبح دعاؤه هو الدعاء الذي يطلقه المكروبون، ويدعو به المحزونون، والذين أحاط بهم الغم والهم ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

(١) سورة الصافات: الآيتان: (١٤٣، ١٤٤).

كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

(١١) جواز ركوب البحر كما ركبه يونس عليه السلام.

(١٢) مدى معاناة الرسل عليهم السلام في دعوتهم إلى الله ومواجهة قومهم، ومدى ابتلاء الله لهم وامتحانه إياهم.

(١٣) طاعة المخلوقات لله عز وجل، فالحوت ابتلع يونس كما أمره، ولم يقض عليه، وعندما أمره بإلقائه استجاب لأمره، والحيتان وأسماك البحر، وحجارة البحر كلها تسبح الله، وقد سمع يونس تسبيحها[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٨٧).

(٢) صحيح القصص النبوي (ص: ١٣٦ ، ١٣٧) باختصار.

قصة موسى (عليه السلام)

وتعالوا بنا لنعرف قصة نبى الله موسى (عليه السلام).

كان أهل مصر فى أيام الفراعنة يعبدون الأصنام زمانًا طويلاً.

فلما جاء نبى الله يوسف (عليه السلام) إلى مصر وأصبح عزيز مصر لسنوات طويلة وكان يدعو الناس إلى التوحيد وإلى عبادة الله (جل وعلا) فآمن أهل مصر.

* وبعد ذلك أرسل يوسف إلى أبيه يعقوب (عليهما السلام) وإلى أهله وقرابته فجاءوا من فلسطين وعاشوا فى مصر واختلطوا بالمصريين فتعلم المصريون منهم التوحيد وعاشوا زمانًا طويلاً على الإيمان والتوحيد.

* ولكن بعد وفاة يوسف (عليه السلام) عاد أهل مصر إلى الشرك مرة أخرى وأما بقية أبناء يعقوب (وهو إسرائيل) فقد عاشوا فى مصر.

وتكاثر أبناء إسرائيل وتزايد عددهم وأصبحوا من أمهر الناس فى كل أنواع الحرف والصناعات حتى اعتمد عليهم المصريون.

* وجاء فى تلك الفترة ملك جبار حكم مصر وكان

المصريون يعبدونه - وهو فرعون المذكور فى القرآن.

إن فرعون علا فى الأرض

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾[1].

أى: تجبَّر وعتا وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى، وجعل أهلها شيعًا، أى: قسم رعيته إلى أقسام، وفرق وأنواع، ويستضعف طائفة منهم، هم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الله. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض.

وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأردئها وأدناها ومع هذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2][3].

(١) سورة القصص: الآية: (٤).
(٢) سورة القصص: الآية: (٤).
(٣) قصص الأنبياء (ص: ٣٣٨).

علم أن هلاك مُلكه
على يد غلام من بنى إسرائيل

وكان هذا الملك الجبار يفعل كل هذا فى بنى إسرائيل لأن بنى إسرائيل كانوا يذكرون فيما بينهم أنه سيخرج من بنى إسرائيل غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه فوصل هذا الخبر لفرعون فأحس أن هناك خطراً على عرشه ومُلكه من وجود بنى إسرائيل فى مصر.

ولم يكن يستطيع أن يطردهم لأن عددهم كان يزيد على مئات الألوف فلو طردهم لتحالفوا مع أعدائه ضده وفى ذلك خطر يهدد مُلكه فى مصر.

فابتكر طريقة جهنمية للقضاء على بنى إسرائيل وهى أن يُسخرهم فى الأعمال الشاقة الخطيرة من ناحية .. ومن ناحية أخرى قرر أن يُذبح كل طفل ذكر يولد فى بنى إسرائيل ويترك الإناث حتى لا يتكاثر الرجال وبذلك تضعف قوتهم وينقص عدد الذكور ويزداد عدد الإناث.

❊ ❊ ❊

إنها العناية الإلهية

ولكن القبط (أهل مصر) قالوا لفرعون: لو أنك قتلت كل ذكور بنى إسرائيل فإننا لن نجد بعد ذلك من يخدمنا ويقوم بتلك الأعمال الشاقة . . . فأصدر فرعون قرارًا جديدًا بأن يقتلوا الأطفال الذكور عامًا ويتركوا عامًا .

فحملت أم موسى (عليه السلام) بهارون فى العام الذى لا يُقتل فيه الذكور وولدته علانية بلا خوف . . فلما كان العام الذى يُقتل فيه الذكور وُلد موسى (عليه السلام) فخافت عليه من القتل فكانت تُرضعه فى السر واتخذت له تابوتًا فربطته فى حبل وكانت دارها على النيل مباشرة فكانت تُرضعه فإذا خافت عليه وضعته فى ذلك التابوت (الصندوق الخشبى) وأرسلته فى البحر وهى تمسك بطرف الحبل حتى لا يضيع منها .

لا تخافى ولا تحزنى

فى ظل هذا الجو المشحون بالخوف وُلد موسى (عليه السلام) . . فكانت أمه فى غاية الخوف عليه لا تدرى ماذا تصنع إلى أن جاء الأمر من الله (جل وعلا) .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١) .

* إن جنود فرعون ينتشرون فى كل مكان ولو رأوا موسى (عليه السلام) لقتلوه فى التو واللحظة .

* وهنا قامت أم موسى لتمتثل أمر الله (جل وعلا) فأخذت موسى وأرضعته ثم ألقته فى هذا الصندوق الخشبى وكلها يقين وثقة فى الله أنه سيرد إليها ولدها مرة أخرى .

ألقت أم موسى الصندوق فى النهر وفيه موسى (عليه السلام) . . وهى تعلم أن الله (عز وجل) أرحم بموسى منها .

* سقط الصندوق فى الماء . . وجاء الأمر من الخالق (جل وعلا) لماء النيل أن يحمل هذا الصندوق بكل رحمة وحنية لأن هذا الطفل الرضيع سيكون بعد ذلك رسولاً من أولى العزم الخمسة .

وكما أمر الله النار أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم فكذلك أمر النيل أن

(١) سورة القصص : الآية : (٧) .

يحمل موسى بكل رحمة ورفق وهدوء حتى يوصله إلى قصر فرعون.

موسى (عليه السلام) يصل إلى قصر فرعون

وصل الصندوق إلى الشاطئ أمام قصر فرعون.

وفى تلك اللحظة كانت زوجة فرعون تمشى فى حديقة قصرها الكبير .. وكانت تختلف تمامًا عن فرعون فهى امرأة رقيقة ورحيمة وهو كان جبارًا ..

* وكانت تتمنى أن يرزقها الله ولدًا يملأ عليها حياتها فلقد كانت لا تُنجب ولم تكن تعلم أنها ستسعد فى هذا اليوم بأعظم مفاجأة فى حياتها.

فعندما ذهبت الجوارى ليأتين بالماء من النهر وجدن هذا الصندوق فأخرجنه من النهر وحملنه إلى زوجة فرعون ففتحت الصندوق وما إن رأت موسى (عليه

السلام) حتى أحست بحبه يملأ قلبها .. ولا عجب في ذلك فقد قال تعالى عن موسى (عليه السلام): ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾(١) . فلا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يراه ولا يحبه لأن الله ألقى عليه محبة منه .

* أمسكت زوجة فرعون بموسى (عليه السلام) وهي في غاية السعادة والسرور وذهبت به إلى فرعون فسألها : من أين جاء هذا الطفل الرضيع؟ فأخبرته بالقصة كلها فقال لها : لا بد من ذبحه فإنه من ذكور بني إسرائيل وهذا العام هو عام الذبح .

صرخت زوجته وهي تضم موسى إلى صدرها أكثر :

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾(٢) تذكر فرعون عدم قدرة زوجته على الإنجاب ، فاستجاب لرغبتها وسمح لها أن تربي هذا الطفل في قصره .

أم موسى (عليه السلام) تبكي لفراقه

وفي تلك الفترة كانت أم موسى (عليه السلام) على الرغم من ثقتها في وعد الله (جل وعلا) بأن يرد إليها

(١) سورة طه : الآية : (٣٩).

(٢) سورة القصص : الآية : (٩).

ابنها إلا أنهـا كانت تبكى لفراق طفلهـا الرضيع لكن الله برحمته ثبتها وربط على قلبها وألهمها الصبر والثبات.

الله (جل وعلا) يرد موسى إلى أمه

بعد سـاعات معـدودات بدأ موسى (عليـه السلام) فى البكاء من شدة الجوع فأمرت زوجة فرعون بإحضار المراضع فجاءت مرضعة من القصـر وأخذت موسى لتُرضعه فرفض أن يرضع منها .. فأمـرت زوجة فرعون بإحضار مـرضعة ثانيـة وثالـثة وعاشـرة وهو يرفض فى كل مـرة أن يرضع فاحتارت زوجة فرعون وخافت عليه أن يموت.

* وفى تلك اللحظة كانت أم موسى فى بيـتها تبكى على فراق طفلها وكاد قلبها أن يـذوب حزنًا وكمدًا على فراق ابنها حتى كادت أن تذهب إلى قصر فرعـون لتخبرهم بأنها أمه .. لولا أن الله ربط على قلبها فهدأت وسكنت نفسها واطمأنت.

* لكنها أمـرت أخت موسى (عليه السلام) وقـالت لها: اذهبى بكل هدوء وحـذر إلى مكان قريب من قـصر فـرعون وحاولى أن تعرفى أخبار موسى واحذرى أن يشعر أحدٌ بك.

* وهنا ذهبت أخت موسى بكل حذر وهدوء لتعلم ما الذى حدث، وهناك سمعت بكاء موسى فسألت بعض الحرس فأخبروها بأن هذا الطفل يرفض كل المراضع .. فقالت أخت موسى لحرس فرعون: هل أدلكم على أهل بيت يُرضعونه ويكفلونه ويهتمون بأمره على أكمل وجه؟

ففرحوا بذلك وذهبوا ليخبروا زوجة فرعون التى جاءت وهى فى قمة سعادتها وطلبت منها أن تذهب فوراً لتُحضر المرضعة.

* عادت أخت موسى إلى أمها لتبشرها بهذه البشرى الغالية وأحضرت أمها معها إلى قصر فرعون.

واستأذنت الحرس فأذنوا لها ودخلوا إلى قصر فرعون.

وجاءت زوجة فرعون وقدمت موسى إلى أمه وقالت لها: أرضعيه.

فقامت أمه لتُرضعه فرضع منها وهنا تهلل وجه زوجة فرعون وقالت: خذيه عندك فى البيت وأرضعيه حتى تفطميه ثم أعيديه إلينا بعد ذلك وسنعطيك على ذلك أجراً عظيماً .. فوافقت أم موسى على ذلك.

* عادت أم موسى تحمل طفلها الحبيب.وهى لا تصدق نفسها .. يكاد قلبها أن يطير من شدة الفرح.

* وهكذا ردَّ الله (جل وعلا) موسى لأمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

موسى (عليه السلام) يتربى فى قصر فرعون

وبعدما أتمت أم موسى رضاعته ذهبت به إلى زوجة فرعون وأسلمته لها فكان من أحب الناس إلى قلب زوجة فرعون .. وليس هذا فحسب بل كان كل من يراه لا بد أن يحبه لأن الله (عز وجل) قال: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[1].

* عاش موسى (عليه السلام) فى قصر فرعون حتى كبر .. وكان بيت فرعون يضم أعظم خبراء فى التربية والتدريس لأن مصر فى هذا الوقت كانت أكبر دولة فى الأرض وكان فرعون أقوى ملك فى الأرض.

فشاء الله أن يتلقى موسى (عليه السلام) أفضل أنواع التدريس والتربية وأن يتم ذلك كله فى بيت عدو الله فرعون.

(١) سورة طه: الآية: (٣٩).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن لكل بداية نهـاية . . ولكن نهاية الظلم دائـمًا تكون وخـيمـة، فهـا هو فـرعون الذى عـلا فى الأرض وطغى وقال: أنا ربكم الأعلى سترى كيف كانت نهايته.

(٢) أنه لا يحدث شـيء فى هذا الكون إلا بمشيـئة الله (جل وعلا) . . فها هو موسى (عليه السلام) يولد فى العام الذى يقتل فيه فرعون كل مولود ذكر من بنى إسرائيل ولكن الله نجاه وجعل التابوت يصل إلى قصر فرعون وألقى محبته فى قلب امرأة فرعون ليتربى موسى فى قصر فرعون.

(٣) لقد ورد ذكـر أم موسى وأخته ولم يرد ذكـر أبيه لأن الدور الكبيـر قامت به الأم المبـاركة . . وهذا يوضح منزلة الأم ودورها العظيم فى تربية أولادها.

(٤) أن الآلهـة الباطلة لا تنفع ولا تضـر . . فهـا هو فرعون الذى كـان يدعى الألوهية ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[1] عجز أن يجعل زوجته تحمل بولد.

(٥) أن من أطاع الله (جل وعلا) فإن الله يكرمه فى الدنيا

---

(١) سورة القصص: الآية: (٣٨).

والآخرة.. فها هي أم موسى لما أطاعت أمر ربها وألقت موسى في النهر ثبتها الله وربط على قلبها وأعاد إليها ولدها.

نشأة موسى (عليه السلام)

لقد نشأ موسى (عليه السلام) في قصر فرعون وهو يعلم يقينًا أنه ليس ابنًا لفرعون.. وكان يتعجب من الكبر والبطش الذي كان يراه من فرعون تجاه بني إسرائيل.

فالناس في هذه الآونة كانوا قسمين: أبناء يعقوب (عليه السلام) وهم بنو إسرائيل الذين جاءوا من فلسطين أيام أن كان يوسف (عليه السلام) عزيز مصر.

والأقباط الفراعنة وهم أهل مصر الأصليون.

الله يُشرفه بنعمة النبوة والرسالة

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك

(١) سورة القصص: الآية: (١٤).

وامتنانه عليها، شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، وهو احتكام الخلْق والخُلق، وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين، آتاه الله حكمًا وعلمًا، وهو النبوة والرسالة التى كان بشَّر بها أمه حين قال: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

* لقد ورث موسى - عليه السلام - فقه الدين الذى ورثه من آبائه الأطهار الذين ينتمون إلى أبى الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن - عليه السلام-.

* كرّم الله موسى (عليه السلام) بأشياء كثيرة، فقد كرم الله وجهه، فلم يسجد لإله من آلهة القصر! ومما أكرمه الله به أيضًا أن آتاه بسطة فى القوة والجسم، جعلته لا يخشى أحدًا سوى الله عز وجل، وألقى محبته فى قلوب الناس، وهذا من أعظم المنن[2].

قصة قتله للرجل القبطى

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن

(١) سورة القصص: الآية: (٧).
(٢) نساء الأنبياء (ص: ١٦١).

شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾[1].

* ففى ذات يوم دخل موسى مدينة مصر على حين غفلة من أهلها، حيث كان النهار قد انتصف، وأغلقت الأسواق من شدة الحر، والناس فى قيلولة، وبينما هو يمشى فى ناحية المدينة إذ وجد رجلين يقتتلان ويتصارعان، أحدهما إسرائيلى، والآخر قبطى من قصر فرعون حاكم مصر.

﴿ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾[2] وذلك أن موسى عليه السلام، كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزّوا وصارت لهم وجاهة.

* فاستغاث الإسرائيلى بموسى مستنجدًا به على عدوهما القبطى. فكيف وقع هذا؟ كيف استغاث الإسرائيلى بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال فرعون؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال فى القصر، أو من الحاشية. إنما يقع إذا كان الإسرائيلى على ثقة من أن موسى لم يعد متصلاً

---

(١) سورة القصص: الآية: (١٥).

(٢) سورة القصص: الآية: (١٥).

بالقصر. وأنه قد عرف أنه من بني إسرائيل. وأنه ناقم على الملك والحاشية، ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[1].

والوكز: الضرب بجمع اليد. والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها موت القبطي.

ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به.

ولكنه لم يكن يقصد قتل القبطي، ولم يعمد إلى القضاء عليه. فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته، وعزاها إلى الشيطان وغوايته، فقد كانت من الغضب، والغضب نفخ من الشيطان: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

ويتوجه إلى ربه، طالبًا مغفرته وعفوه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[3].

واستجاب الله إلى ضراعته، وحساسيته، واستغفاره: ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4].

وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف أن ربه غفر له. والقلب

(١) سورة القصص: الآية: (١٥).

(٢) سورة القصص: الآية: (١٥).

(٣)، (٤) سورة القصص: الآية: (١٦).

المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء، فور الدعاء، حين يصل إرهافه وحساسيته إلى ذلك المستوى، وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد .. وارتعش وجدان موسى - عليه السلام - وهو يستشعر الاستجابة من ربه، فإذا هو يقطع على نفسه عهداً، يعده من الوفاء بشكر النعمة التى أنعمها عليه ربه:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[1] ..

فهو عهد مطلق ألا يقف فى صف المجرمين ظهيراً ومُعيناً .. وهو براءة من الجريمة وأهلها فى كل صورة من صورها[2].

فأصبح فى المدينة خائفا يترقب

أصبح موسى (عليه السلام) يمشى فى المدينة خائفًا يترقب .. لقد كان يخشى أن يصل إلى فرعون خبر قتله لهذا الرجل القبطى فيسعى فرعون لقتله بسببه.

فكان يسير فى المدينة وهو يتوقع الشر من فرعون وجنوده فى أى لحظة.

---

(١) سورة القصص: الآية: (١٧).

(٢) الظلال (٥/ ٢٦٨١، ٢٦٨٢) باختصار.

* وكان موسى (عليه السلام) قد وعد ربه بالأمس ألا يدخل فى المشاجرات وألا يكون ظهيراً للمجرمين .. وبينما هو يسير بشوارع المدينة فوجئ بنفس الرجل الذى أنقذه بالأمس وهو ينادى عليه ويستصرخه اليوم لينصره على رجل قبطى آخر فقد كان الرجل مشتبكًا فى عراك مع أحد الأقباط الفراعنة.

فأدرك موسى أن هذا الرجل الإسرائيلى مشاغب فانفعل عليه وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

* لقد قال موسى هذه الكلمة ثم اندفع نحوهما يريد أن يضرب الرجل القبطى فاعتقد هذا الرجل الإسرائيلى أن موسى سيضربه هو وبخاصة بعدما قال له موسى (عليه السلام): ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

فقام هذا الرجل الإسرائيلى وقال له أمام القبطى: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[2].

فتوقف موسى (عليه السلام) وتذكر ما فعله بالأمس

(١) سورة القصص: الآية: (١٨).
(٢) سورة القصص: الآية: (١٩).

وكيف أنه أعطى العهد والوعد لله (جل وعلا) ألا يكون ظهيرًا للمجرمين.

فلما سمع هذا الرجل القبطى قول الإسرائيلى لموسى أنه قتل الرجل القبطى الآخر بالأمس .. أخذ هذه الكلمة وذهب وأخبر فرعون بأن موسى هو الذى قتل الرجل القبطى الذى قُتل بالأمس .. فلما علم ذلك فرعون اشتد حقده وغيظه على موسى (عليه السلام) وعزم على قتله وأرسل جنوده ليُحضروه.

وجاء رجل من أقصى المدينة

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[1].

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[2] أى: وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع فى مشيه. هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[3] أى: قال له يا موسى:

(١)، (٢)، (٣) سورة القصص: الآية: (٢٠).

إن أشراف فرعون، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[1] أي: فاخرج قبل أن يدركوك فأنا ناصح لك من الناصحين ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[2] أي: فخرج من مصر خائفًا على نفسه يترقب وينتظر أن يدركه أحدٌ من جنود فرعون فيأخذه، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[3] أي: خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم - والمراد بهم فرعون وملؤه[4].

نجاة موسى (عليه السلام) من القتل

خرج موسى من مصر مُسرعًا، لم يذهب إلى قصر فرعون ولم يغير ملابسه ولم يأخذ طعامًا للطريق ولم يُعد للسفر عُدته، لم يكن معه دابة تحمله على ظهرها وتوصله، ولم يكن في قافلة، إنما خرج بمجرد أن جاءه الرجل المؤمن وحذره من فرعون ونصحه أن يخرج، اختار طريقًا غير مطروق وسلكه،

(١) سورة القصص: الآية: (٢٠).
(٢)، (٣) سورة القصص: الآية: (٢١).
(٤) صفوة التفاسير (٢/ ٤٣٠) بتصرف.

دخل في الصحراء مباشرة واتجه إلى حيث قدر له الله أن يتجه، لم يكن موسى يسير قاصدًا مكانًا معينًا، هذه أول مرة يخرج فيها من مصر وحده، ويعبر الصحراء وحده.

ظل موسى عليه السلام يسير بنفسية المطارَد حتى وصل إلى مكان، كان هذا المكان هو مَدين، دخل مباشرة يبحث عن ماء يشرب، ووجد بئرًا كبيرة، جلس يستريح عند هذه البئر وكان الناس يسقون منها دوابهم، وكان خائفًا طوال الوقت، يخشى أن يرسل فرعون وراءه من يقبض عليه.

لم يكد موسى يصل إلى مدين حتى ألقى بنفسه قريبًا من البئر، تحت شجرة واستراح، نال منه الجوع والتعب، وسقطت نعله بعد أن ذابت من مشقة السير على الرمال والصخور والتراب، لم تكن معه نقود لشراء نعل جديدة، ولم تكن معه نقود لشراء طعام أو شراب(1).

في أرض مدين

سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء

---

(1) ابن الإسلام (ص: ١٧٨، ١٧٩).

وجلس فى الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شِق تمرة.

هكذا كانت مروءة الرجال

فى مَدين جلس موسى - عليه السلام - عند بئر عظيمة يسقى الناس من مائها أنعامهم ومواشيهم، وكان من عادة الناس أن الغريب إذ قدم بلدة ما، وليس لديه فيها أحد يعرفه فإنّه يتوجَّه إلى المكان الذى يجتمعون فيه لسقياهم، وهناك يتعرف على أحدهم ويكون نزيلاً عنده.

* وحين بلغ موسى - عليه السَّلام - الماء فى مدين، وجد هناك جماعة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم، لكنه وجد من دونهم، وفى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تحبسان وتكفان غنمهما عن الماء كيما تختلط بغنم القوم، وكيما تذهب عن الماء ومواشى الناس، ومن ثم تبدأ هاتان المرأتان تسقيان ماشيتهما بعد ذلك .. وما فعلا هذا إلا لضعفهما ووجود من هو أقوى منهما على الماء، ناهيك بأنهما كانتا تكرهان مخالطة الرجال.

* رأى موسى - عليه السلام - هذه الصورة من حياة أهل مدين على تلك البئر، نسي جوعه، ونسي عطشه وتعبه، وأثاره ذلك المشهد، وأحسَّ بما يشبه الإلهام أن تلكما الفتاتين بحاجة إلى من يساعدهما في عملية سقاية الغنم، وثار في نفسه دافع حب لحماية المستضعفين.

* إن الرحمة بالناس، والإحسان إلى من يعرف الإنسان، وإلى من لا يعرف... من أخلاق الأنبياء والصالحين والصادقين.

عندئذ تقدم موسى - عليه السلام - من الفتاتين وسألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾[1] وما شأنكما؟ ولماذا تدفعان ماشيتكما وتحبسانها عن الماء؟

قالتا: لا نستطيع أن نزاحم الرجال والرعاة، ولهذا السبب فإننا نتأخر عن السقي.

قال موسى: ولِمَ ترعيان؟!

قالتا: إن أبانا شيخ كبير لا يستطيع أن يأتي هو ليرعى ويسقي لضعفه ووهن عظمه وكبره.

وعندما سمع موسى ما قالته المرأتان، لم يتوان في

---

(١) سورة القصص: الآية: (٢٣).

تقديم المساعدة لهما وقال: سأسقى لكما إن أحببتما.

* ونظر موسى، فوجد أن الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة ثقيلة لا يقدر على رفعها إلا بضعة رجال، فرفع موسى تلك الصخرة ثم سقى لهما غنمهما، وردَّ الصخرة كما كانت، وبعد أن سقى موسى لهما، أوى إلى ظلِّ شجرة قريبة من بئر الماء، جلس إلى ظل الشجرة بجسمه البليل الذى أضناه التعب والجوع، أخذ يناجى ربه بلسانه وقلبه، وكان يقول: رب إنى فى هذه الهاجرة، رب إنى فقير، رب إنى وحيد، ضعيف، رب إنى فقير إلى فضلك وكرمك[1].

فجاءته إحداهما تمشى على استحياء

لما رجعت الفتاتان سريعًا بالغنم إلى أبيهما .. تعجب الأب وقال لهما: لقد عُدتما اليوم سريعًا على غير العادة.

فقالت إحداهما: لقد وجدنا اليوم رجلاً كريمًا وقويًا سقى لنا الغنم ولم يطلب أى مقابل لهذا العمل.

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٦٣، ١٦٤).

فقال الرجل الصالح لابنته: اذهبى إلى هذا الرجل وقولى له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[1].. وهكذا يكون أهل الصلاح والتقوى لا يتركون أحدًا من البشر يُحسن إليهم إلا ويكافئوه على عمله.

* ذهبت الفتاة إلى موسى (عليه السلام) وسارت على استحياء وخجل شديد ثم قالت له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[2].

فقام موسى (عليه السلام) وبصره فى الأرض.

* وفى لحظات سريعة وومضات كالبرق، استعرض موسى - عليه السلام - ما فعله قبل قليل؛ إنه لم يسق لهاتين المرأتين غنمهما وهو ينتظر منهما أو من أبيهما أجرًا، إنه عمل ما عمل ابتغاء وجه الله ليس غير، نعم لا يبتغى إلا وجه الله، فالله سيجزيه خير الجزاء.

* طلب منها موسى (عليه السلام) أن تسير خلفه حتى لا يرى أن شيء منها وظل هكذا حتى وصل إلى منزل هذا الرجل الصالح.

---

(١)، (٢) سورة القصص: الآية: (٢٥).

ويستجيب موسى (عليه السلام) لدعوة الرجل الصالح

لقد استجاب نبى الله موسى (عليه السلام) لدعوة هذا الرجل الصالح وذهب إليه فى بيته فأحسن الشيخ استقباله وقدم له الطعام والشراب وأكرمه غاية الإكرام ثم سأله: من أين أنت قادم وإلى أين ستذهب؟ فأخبره موسى (عليه السلام) بقصته كاملة بكل صدق وصراحة.

فطمأنه الشيخ وقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].. فهذه البلاد غير تابعة لأرض مصر فلن يصلوا إليك.

وهنا اطمأن موسى (عليه السلام) وهدأت نفسه وحمد الله (جل وعلا) ثم شكر هذا الرجل الصالح على كرم الضيافة.

* وبهذا أزال الرجل الصالح الخوف عن موسى، وأخبره بأنه أصبح فى مأمن من أن تصل إليه يد فرعون أو يناله أحد من أعوان فرعون، لأن بلاد مدين ليست فى سلطان فرعون، وإنما هى تابعة لملك الكنعانيين، وهم أهل قوة ونجدة، وأولوا بأس شديد.

(١) سورة القصص: الآية: (٢٥).

إن خير من استأجرت القوى الأمين

فلما أراد موسى (عليه السلام) أن ينصرف قامت ابنة هذا الرجل الصالح وهمست في أذن أبيها وقالت له: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾(١).

يا أبى بدلاً من أن أذهب أنا وأختى لنسقى الغنم فاستأجر هذا الرجل القوى الأمين ليكفينا هذا العناء.

سألها الأب: كيف عرفت أنه قوى؟

قالت: رفع وحده الصخرة التى يغطى بها الرعاة البئر، لا يرفعها غير عشرة رجال.

سألها: وكيف عرفت أنه أمين؟

قالت: رفض أن يسير خلفي وسار أمامى حتى لا ينظر إلىَّ وأنا أمشى، وطوال الوقت الذى كنت أكلمه فيه كان يضع عينيه فى الأرض حياءً وأدبًا، فهو أمين لا يعرف الخيانة.

وإذا بهذا الرجل الصالح يقول لموسى (عليه السلام): أريد أن أعرض عليك أمرًا.

فقال موسى (عليه السلام): وما هو؟

(١) سورة القصص: الآية: (٢٥).

قال الرجل الصالح: أريدك أن تتزوج إحدى ابنتى هاتين وأنا أعلم أنك لا تمتلك شيئًا الآن ولذلك سأجعل مهرها أن تعمل عندى فى رعى الغنم ثمان سنين وإن أتممت عشر سنين فهذا كرم منك لن أنساه أبدًا... فوافق نبى الله موسى (عليه السلام) وقال له: هذا اتفاق بينى وبينك والله شاهد على هذا الاتفاق.. فإذا قضيت عندك فى رعى الغنم تلك السنوات الثمانية فهذا هو الاتفاق وإن أتممت عشر سنين فأنا حرٌ بعد ذلك فى أن أمكث معك أو أذهب إلى أى مكان.

فوافق الرجل الصالح على ذلك.. ومكث موسى (عليه السلام) عشر سنين عند هذا الرجل الصالح ثم استأذنه بعد ذلك فى أن يرحل بأهله إلى عشيرته فأذن له الرجل الصالح.

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن من المعانى الإيمانية الجميلة التى نحتاج إليها فى كل زمان ومكان: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»[١] فإن وجدت أخاك مظلومًا فانصره بدفع الظلم عنه وإن وجدته ظالمًا فامنعه من الظلم.. فهذا نصرك إياه.

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٣).

(٢) أنه لا بد للمسافر من زاد .. فإن كان الزاد فى الدنيا هو الطعام والشراب والمال والدابة .. فإن زاد الآخرة هو التقوى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[١].

(٣) أن المسلم لا بد أن يُحذر أخاه من أى خطر يحيط به .. ولقد رأينا كيف جاء الرجل من أقصى المدينة ليحذر موسى من هؤلاء القوم الذين أرادوا قتله.

(٤) أن من أعظم معانى الرجولة إغاثة الملهوف ومساعدة الضعيف .. فقد رأينا كيف أن موسى (عليه السلام) سقى الغنم للفتاتين بلا مقابل وإنما فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله (جل وعلا).

(٥) أنه لا يجوز للمرأة أن تخالط الرجال حتى تستطيع أن تحافظ على نفسها .. ولا تخرج للعمل إلا إذا كانت تحتاج للعمل وليس هناك من ينفق عليها .. فإذا خرجت للعمل تلبس حجابها ولا تتزين أو تتعطر ولا تخالط الرجال سواء كان ذلك فى المواصلات أو العمل.

(٦) أن زينة المرأة الحياء .. ولذلك قال تعالى عن ابنة

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٩٧).

الرجل الصالح حينما ذهبت إلى موسى (عليه السلام) لتخبره بدعوة أبيها ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[1].

(٧) أن المسلم لا بد أن يراقب ربه ويعلم أن الله مطلع عليه .. وقد رأينا كيف أن موسى (عليه السلام) لما ذهب مع الفتاة للقاء أبيها طلب منها أن تمشي خلفه حتى لا يراها.

(٨) أن من إكرام الضيف أن نجعله يشعر بالأمان وأن نزيل عنه الإحساس بالوحشة والغربة وأن نبشره بالخير .. ولذلك قال الرجل الصالح لموسى (عليه السلام): ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

(٩) يجوز للمرأة أن تعرض نفسها على الرجل الصالح ولكن بشكل غير مباشر لا يخدش حياءها .. وقد رأينا كيف أن ابنة الرجل الصالح قالت لأبيها: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[3] ففهم أبوها كلامها وقصدها فقال لموسى (عليه السلام): ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾[4].

(١)، (٢) سورة القصص: الآية: (٢٥).
(٣) سورة القصص: الآية: (٢٦).
(٤) سورة القصص: الآية: (٢٧).

(١٠) «إذا أتاكم من ترضون خُلقه ودينه فزوجوه» هكذا قال النبى ﷺ . . . ولذا عرض الرجل الصالح ابنته على موسى رغم أنه كان لا يملك درهمًا ولا دينارًا لأنه رضى دينه وخُلقه.

الطريق إلى الوادى المقدس

* وتزوج موسى - عليه السلام - ووفَّى للشيخ بما عاهده عليه ومكث يعمل عنده وكان كما وصفته زوجه: القوى الأمين، ووفى بأوفى الأجلين وهو عشر سنين، وبهذا أكد صدق وعده، ووفاء عهده، ونحسب أنه تفانى فى سبيل تحقيق القوة والأمانة.

* وظل موسى - عليه السلام - يرعى الغنم ولكنه صُنع فى تلك الفترة على عين الله فكان يسجد بقلبه وجوارحه فى محراب الوجود وتنطلق روحه فى الأفق البعيد لتتصل بنور النور وتسرح فى رحاب السماوات والأرض.

* وفى موافقة موسى - عليه السلام - على رعى الغنم دليلٌ من الحديث الشريف، عن النبى ﷺ قال:

«ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة»[1].

* جاء يومٌ من الأيام على موسى وهو فى مدين، فإذا به يتحرك فى صدره الحنين إلى الوطن، فقد انتهت الفترة المحددة بينه وبين الرجل الصالح، واستيقظ فى قلب موسى الحنين إلى مصر، .. إلى أمه التى ربط الله على قلبها مرةً أخرى عندما فارقها موسى مهاجرًا إلى مدين، اشتاق موسى إلى أمه وأخته التى قصَّت خبره وهو رضيع، ودلت آل فرعون على من يُرضعه ويكفله .. اشتاق إلى أخيه هارون ذلك الأخ التقى الوفى.

حكى موسى ما بنفسه إلى زوجه قال: إنى اشتقت إلى أمى وأختى وأخى هارون .. وأودُّ أن تستعدى للرحيل إلى مصر فإنَّ أهلى وشيعتى هنالك.

* كانت زوجته - كما أسلفنا - من أكمل نساء عصرها دينًا ووفاء، فسرعان ما استجابت لرغبة زوجها، وأعدت متاعها، وما تحتاج إليه من أدوات السفر، وخرجت مع موسى

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢).

إلى مصر وكانت حاملاً وكانت قد ولدت لموسى ولدين[1].

على أية حـال ها هو ذا عائد فى طريقـه، ومعـه أهله، والوقت ليل، والجو ظلمة؛ وقد ضل الطريق، والليلة شاتية.

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعدٍ نارًا تأجج فى جانب الطور - وهو الجبل الغـربى منه - عن يمينه فـ﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾[2] وكأنه - والله أعلم - رآها دونهم، لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد: ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾[3] أى: لعلى أستـعلم من عندها عن الطريق: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[4].

يا موسى إنى أنا الله رب العالمين

لقد سار موسى (عليه السلام) غيـر بعيد فأبصر من الجهة التى تلى الطور نارًا فامتلأ قلبـه بالسعادة والسرور والتفت إلى زوجه وقـال لها: إنى آنسـت نارًا سأنطلق لعلى آتيكم منـها بخبر أو لعلّى أجدُ أحدًا أسأله عن الطريق الموصلة إلى مصر.

* أمر مـوسى أهله أن يجلسوا مكانهم ليـحضـر لهم ما

(١) نساء الأنبياء (ص ١٧٦ - ١٧٨) بتصرف.
(٢)، (٣)، (٤) سورة القصص: الآية: (٢٩).

يُذهب عنهم البرد ويطرد عنهم الظلام، ذكر الله هذا المشهد الدقيق في تلك الساعة الحرجة: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾(١).

* انطلق موسى مسرعًا في الوادي المقدس يتوكأ على عصاه باتجاه النار التي تراءت له عن بعد، كان الماء قد بلل جسمه، وظل يسير في وادي طوى، بُعد دقائق لاحظ شيئًا غريبًا في هذا الوادي، لم يكن هناك رعدٌ ولا برق ولا رياح، كان الكون قد لفَّه خشوع عجيب، وسكون مفعم بالتسبيح، وصمت عظيم ساكن خاشع.

* أحس موسى بشيء ما يحرك نفسه، لكنه لم يعرف ماهية هذا الشيء.

* اقترب من النار... لم يكد يقترب منها حتى نودي من رب العزة: ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

* ارتعدت فرائص موسى، وتسلل الخوف إلى نفسه، وشعر برغبة مُلحة في الفرار مما سمع ورأى، لكنه تماسك

---

(١) سورة النمل: الآية: (٧).

(٢) سورة النمل: الآية: (٨).

رغم أنه مرتعش من ذلك الموقف، كان الصوت يجيء من كل مكان، ولا يأتي من مكان محدد، أو من جهة محددة، لم يستطع موسى تحديد جهة الصوت.

* مرة أخرى، دنا موسى من النار، ليأخذ منها قبسًا لأهله، فإذا المكان يتسم بالخشوع والرهبة والنور[(١)].

* نظر موسى في النار وعاد يرتعش، وجد شجرة خُضراء داخل هذا النور وكلما زاد تأجُّج النار زادت خضرة الشجرة، المفروض أن تتحول الشجرة إلى اللون الأسود وهي تحترق، لكن النار تزيد واللون الأخضر يزيد، راح موسى يرتجف رغم الدفء، كانت الشجرة في جبل غربي عن يمينه، وكان الوادي الذي يقف فيه هو وادي طُوى.

* وفجأة.. وإذا بالحق (جل وعلا) ينادي عليه: ﴿يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[(٢)].

وكان موسى في وادي اسمه «طوى» فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالوادي المقدس طوى، فأمره أولاً

---

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٧٩، ١٨٠) باختصار.

(٢) سورة طه: الآيتان: (١١، ١٢).

بخلع نعليه تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة.

* ازدادت دهشة موسى، فإذا بالنداء العلوي من رب العالمين يناديه: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[1].

عصا موسى (عليه السلام)

لقد كان جسد موسى (عليه السلام) ينتفض من هيبة وجلال هذا الموقف العظيم إنه يستمع إلى فاطر السماوات والأرض وهو يخاطبه.

وفجأة قال الحق (جل وعلا) لموسى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[2]؟!

تعجب نبي الله موسى (عليه السلام).. فالله يسأله

---

(١) سورة طه: الآيات: (١٣ - ١٦).

(٢) سورة طه: الآيات: (١٧).

وهو الذى يعلم كل شيء فلماذا يسأله؟ لا شك أن هناك حكمة جليلة لا يعلمها موسى (عليه السلام) فأجابه وصوته يرتعش: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[1].

* وكان يكفى موسى (عليه السلام) أن يجيب بكلمة واحدة ﴿هِيَ عَصَايَ﴾[2] لكنه أطال الحديث لأنه يشعر بمتعة عجيبة وهو يتكلم مع ربه (جل وعلا) ويسمعه وهو يتكلم.

* قال الله له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾[3] فألقى موسى عصاه بسرعة وخوف وإذا به يرى العصا وقد تحولت إلى حية عظيمة ضخمة لها أنياب وتتحرك بسرعة كأنها جان.. فما كان من موسى إلا أن ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾[4] هاربًا منها وأخذ يجرى بسرعة ولم يلتفت خلفه فناداه ربه قائلاً له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[5]، ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[6].

(١)، (٢) سورة طه: الآية: (١٨).
(٣) سورة طه: الآية: (١٩).
(٤)، (٥) سورة القصص: الآيات: (٣١).
(٦) سورة النمل: الآية: (١٠).

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾[1] فيقال إنه خاف منها فوضع يده في كُم مدرعته ثم وضع يده في وسط فمها.. فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم، رب المشرقين والمغربين!

معجزة اليد

ثم أمره الله تعالى بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضًا من غير سوء، أي: من غير برص ولا بهق، ولهذا قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾[2] قيل معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يذهب خوفك.

* وفي تلك اللحظة جاء نداء من العلي الحكيم لموسى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[3].

* عرف موسى أنه أمر بالرسالة من رب العالمين،

---

(١) سورة طه: الآية: (٢١).

(٢)، (٣) سورة القصص: الآية: (٣٢).

وعليه تبليغ ما أمر به، فقد اصطفاه الله لنفسه، وكفى؛ . . وسيتم أمر الله بإذن الله.

موسى (عليه السلام) يستعد للقاء فرعون

* والآن، فقد تركنا زوج موسى في خيمتها تنتظر عودة زوجها، لا ندري ما الوقت الذي استغرقه موسى في مناجاته، ولا ندري ماذا دار بذهن زوجته . . كل ما نتوقعه أن الله سبحانه قد ربط على قلبها . . ولم تساورها المخاوف إلى أن عاد زوجها موسى وزفَّ إليها بشارة النبوة والرسالة، ثم انحدر بها إلى مصر(١).

* وهنا أمره الله (جل وعلا) بعد هاتين المعجزتين - العصا واليد - أن يذهب إلى فرعون الطاغية الذي قال: ﴿أنا ربُّكُم الأعلى﴾(٢) من أجل أن يدعوه برفق ولين ويأمره أن يتركه يخرج ببني إسرائيل من مصر ليدخلوا الأرض المقدسة فرارًا من بطش فرعون وإيذائه.

---

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٨٢).

(٢) سورة النازعات: الآية: (٢٤).

وهنا أحس موسى (عليه السلام) بخوف شديد لأنه قتل رجلاً من أقباط مصر فيخشى أن يقتلوه .. فسأل الله (عز وجل) أن يرسل معه أخاه هارون ليكون عونًا له على ذلك.

وهنا يتلقى موسى الاستجابة والتطمين: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾(1).

* بل وطمأنه الله (عز وجل) بأنه سبحانه سيكون معهما يسمع ويرى كل شيء وطمأنه بأن فرعون رغم بطشه وقسوته إلا أنه لن يمسهما بسوء.

واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى

لما قال تعالى لموسى (عليه السلام): ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾(2)، دعا موسى ربه وابتهل: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾(3).

قيل إنه (عليه السلام) لما كان طفلاً صغيرًا ضرب

---

(1) سورة القصص: الآية: (35).

(2) سورة طه: الآية: (24).

(3) سورة طه: الآيات: (25 - 28).

فرعون على لحيته فأراد فرعـون قتله فقالت امرأة فرعون: إنه طفل صغير لا يعرف الفرق بين التمرة والجمرة.

فأراد فرعون أن يختبره حتى يعرف هل كان يقصد ضربه على لحيته أم أنه فعلاً لا يفهم فى هذا السن الصغير.

فأمر بإحـضار طبق فيه تمر وطـبق فيه جمر ثـم أمره أن يأخذ منهما فأراد مـوسى (عليه السلام) أن يأخذ من التمر فـأخذ جبريل بيده إلى الجمرة فأخذها ووضعها على لسانه فأصابه لثغة فى لسانه.

فلما كبر وأراد الله منه أن يذهب إلى فرعون .. سأل الله أن يُذهب بعض هذه اللثغة حتى يستطيع أن يتكلم مع فرعون فيفهم كلامه فاستجاب الله له.

ثم قال مـوسى عليـه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (١).

أى: قد أجبناك إلى جمـيع ما سألت، وأعطيناك الذى طلبت. وهذا من وجاهته عند ربه عـز وجل، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم.

(١) سورة طه: الآيات: (٢٩ - ٣٦).

فقولا له قولاً لينا

بعد ما جاء الأمر من الله (عز وجل) لموسى (عليه السلام) أن يذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون من أجل دعوته ومن أجل إنقاذ بنى إسرائيل من بطش فرعون وتعذيبه .. أخذ موسى طريقه إلى أرض مصر ليواجه بطش أخطر جبابرة عصره وهو يعلم أن فرعون لن يعطيه بنى إسرائيل بغير صراع مرير.

* إن موسى (عليه السلام) ذاهب لدعوة فرعون الطاغية وهو مع ذلك لا ينسى أن يدعوه برحمة كما أمره الله : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[١].

قال الفضل بن عيسى الرقاشى عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه[٢].

وقال قتادة: يا رب إن كان هذا حلمك برجلٍ قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾[٣] فكيف يكون حلمك بعبدٍ سجد لك وقال: «سبحان ربى الأعلى»؟!!

(١) سورة طه: الآيات: (٤٢ - ٤٤).
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٣٦٣، ٣٦٤) باختصار.
(٣) سورة النازعات: الآية: (٢٤).

لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى

وصل موسى (عليه السلام) إلى مصر ودخل على أمه وأخيه فلم يعرفاه فى بادئ الأمر ثم عرفاه وسلما عليه.

ثم قال موسى لهارون (عليه السلام): إن ربى قد أمرنى أن أذهب إلى فرعون لأدعوه إلى الله .. وأمرك ربى أن تعاوننى.

فقال هارون (عليه السلام): سمعًا وطاعة لأمر ربى.

* فذهب موسى وهارون (عليهما السلام) إلى فرعون وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون فغضب وقال: من يجترئ على هذا الصنيع الشديد، فأخبره السدنة والبوابون بأن ها هنا رجلاً مجنونًا يقول إنه رسول الله فقال: علىَّ به فدخل عليه موسى وهارون فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾[1] أى قد جئناك بمعجزة من ربك والسلام عليك إن اتبعت الهدى ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[2] أى: قد

(١) سورة طه: الآية: (٤٧).
(٢) سورة طه: الآية: (٤٨).

أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته[1] .

أمام فرعون .. وجهًا لوجه

بدأ موسى (عليه السلام) يخاطب قلب فرعون بكلمات رقيقة لعل قلبه أن يلين وأن يؤمن برب العالمين.

بدأ موسى يحدثه عن رحمة الله وجنته وأنه لا يريد منه أن يتنازل عن ملكه بل يريد أن يضيف له ملكًا أعظم من ملكه في جنات النعيم إن آمن وأسلم لله (جل وعلا).

* ومع ذلك كان فرعون يستمع إلى كلام موسى (عليه السلام) بازدراء واستهزاء ثم سأل موسى (عليه السلام): ماذا تريد؟

قال موسى: أريد أن ترسل معي بني إسرائيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2] أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربهم وربك، فإنهم من سلالة نبي كريم، إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن[3].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٠٥).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٧).

* فلما قال موسى ذلك ازدراه فرعون وامتن عليه قائلاً له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [(١)].

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التى لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتى اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟ ولتخرج على الملك الذى نشأت فى بيته، وتدعو إلى إله غيره؟!

وما بالك - وقد لبثت فينا من عمرك سنين - لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التى تدّعيها اليوم، ولم تُخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم؟!

ويُذكره بحادث مقتل القبطى فى تهويل وتجسيم: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ [(٢)].. فعلتك البشعة الشنيعة التى لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة! فعلتها ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [(٣)]أى: من الجاحدين.

وهكذا جمع فرعون كل ما حسبه ردًا قاتلاً لا يملك موسى - عليه السلام - معه جوابًا، ولا يستطيع مقاومة.

(١) سورة الشعراء: الآيتان: (١٨، ١٩).
(٢) سورة الشعراء: الآية: (١٩).
(٣) سورة الشعراء: الآية: (١٩).

وبخاصة حكاية القتل، وما يمكن أن يعقبها من قصاص، يتهدده به من وراء الكلمات!

ولكن موسى - وقد استجاب الله دعاءه فأزال حبسة لسانه - انطلق يجيب: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1].

فعلت تلك الفعلة وأنا بعد جاهل، أندفع اندفاع العصبية لقومي، لا اندفاع العقيدة التي عرفتها اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[2] على نفسي. فقسم الله لي الخير، ووهب لي الحكمة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[3]، ثم يجيبه تهكمًا بتهكم. ولكن بالحق ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[4].. فما كانت تربيتي في بيتك وليدًا إلا من جراء استعبادك لبني إسرائيل، وقتلك أبناءهم، مما اضطر أمي أن تلقيني في

(١) سورة الشعراء: الآيات: (٢٠ ، ٢٢).
(٢)، (٣) سورة الشعراء: الآية: (٢١).
(٤) سورة الشعراء: الآية: (٢٢).

التابوت، فتقذف بالتابوت فى الماء، فتلتقطوننى، فأربى فى بيتك، لا فى بيت أبوىّ. فهل هذا هو ما تمنُّه علىَّ، وهل هذا هو فضلك العظيم؟![1]

لقد أحسنت إلى رجلٍ واحد واستعبدت الأمة كلها.

فرعون يجادل موسى (عليه السلام)

ولما علم فرعون أن موسى (عليه السلام) جاءه بالحُجج القوية التى لا مفر منها بدأ يجادله ليصرفه عن مهمته ولكن هيهات هيهات.

قال تعالى حاكيًا عن مجادلة فرعون لموسى (عليه السلام) أنه قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

أى: هو الذى خلق الخلق وقدر لهم أعمالاً وأرزاقًا وآجالاً، وكتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له.

(١) الظلال (٥/ ٢٥٩١).

(٢) سورة طه: الآيتان: (٤٩، ٥٠).

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾[1] يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلِمَ عَبَدَ الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2] أى: هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، ولا يدل على خلاف ما أقول لأنهم جهلة مثلك، وكل شيء فعلوه مستطر عليهم من صغير وكبير، وسيجزيهم عن ذلك ربى عز وجل، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده فى كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربى شيئًا[3].

الداعية الصادق لا يغضب لنفسه أبداً

وها هو الحوار مازال مفتوحًا والجدال ما زال قائمًا بين فرعون وموسى (عليه السلام) .. فلما أحس فرعون أنه لن يستطيع أن

(١) سورة طه: الآية: (٥١).

(٢) سورة طه: الآية: (٥٢).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٣٦٦).

يواجه موسى (عليه السلام) بمثل كلماته وعباراته الصادقة بدأ يتهمه بأشنع التُّهم لكي يغضب موسى لنفسه ويترك دعوته وما جاء إليه ليدافع عن نفسه ولكنه (عليه السلام) لم يلتفت إليه بل مضى يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين.

قال تعالى حاكيًا هذا المشهد المهيب: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

أي: من هذا الذي تزعمُ أنه رب العالمين غيري؟

قال موسى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[2] أي: خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له، فالجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[3] أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة ﴿قَالَ﴾[4] فرعون على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾[5]؟! أي: ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهًا غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾[6]

---

(١) سورة الشعراء: الآية: (٢٣).
(٢)، (٣) سورة الشعراء: الآية: (٢٤).
(٤)، (٥) سورة الشعراء: الآية: (٢٥).
(٦) سورة الشعراء: الآية: (٢٦).

أي: خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ﴿قَالَ﴾[1] فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[2] أي: ليس له عقل في دعواه أن ثم ربًا غيري ﴿قَالَ﴾[3] موسى لقوم فرعون مجيبًا ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4] أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب فإن كان فرعون يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغربًا والمغرب مشرقًا،... ولما انقطعت حُجة فرعون وبُهت، عدل إلى استعمال قوته وسلطانه[5].

لم ينتفع فرعون بتلك الآيات

* ولجأ فرعون إلى القوة والسلطان وهدد موسى (عليه السلام) إن اتخذ إلهًا غيره فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾[6] أي: ببرهان قاطع واضح ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ

(١)، (٢) سورة الشعراء: الآية: (٢٧).
(٣)، (٤) سورة الشعراء: الآيتان: (٢٨).
(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩).
(٦) سورة الشعراء: الآية: (٣٠).

إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[١] أي: ظاهر في غاية الجلاء والعظمة، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مروع ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾[٢] أي: من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[٣] أي: تتلألأ كقطعة من القمر[٤].

وقال في موضع آخر: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[٥].

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[٦] الثعبان هو الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعةً لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذُعر منها ووثب، وصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا.

---

(١) سورة الشعراء: الآية: (٣١، ٣٢).

(٢)، (٣) سورة الشعراء: الآية: (٣٣).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٥) سورة الأعراف: الآيات: (١٠٦ - ١٠٨).

(٦) سورة الأعراف: الآيات: (١٠٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾(١) أي: أخرج يده من درعه تتلألأ من غير برص ولا مرض.

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشيء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتي بيانه في موضعه، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه، وأهل دولته وملته .. ولله الحمد والمنة(٢).

موعدكم يوم الزينة

* قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾(٣).

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله،

(١) سورة الأعراف: الآيات: (٨-١٠).
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٣٦٢) بتصرف.
(٣) سورة طه: الآيات: (٥٦ - ٥٩).

في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى: إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم.

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام: أن يُظهر آيات الله وحُججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس. ولهذا ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾(١) وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾(٢) أي: من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام، كيما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة، لأنه على بصيرة من ربه، ويقين بأن الله سيُظهر كلمته ودينه(٣).

* ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾(٤) أي: والله لقد بصَّرنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوة موسى من العصا، واليد، والطوفان، والجراد، وسائر الآيات التسع ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾(٥) أي: كذب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر،

---

(١)، (٢) سورة طه: الآية: (٥٩).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٣٦٧).

(٤)، (٥) سورة طه: الآية: (٥٦).

وأبى الإيمان والطاعة لعتوه واستكباره ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[1] أي قال فرعون: أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر؟ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾[2] أي: فلنعارضنك بسحر مثل الذى جئت به ليظهر للناس أنك ساحر ولست برسول ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾[3] أي: حدِّد لنا وقت اجتماع ﴿لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾[4] أي: لا نُخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معين ووقت معين[5] ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[6] أي قال موسى: موعدنا للاجتماع يوم العيد - يوم من أيام أعيادهم - وأن يجتمع الناس فى ضحى ذلك النهار[7].

---

(١) سورة طه: الآية: (٥٧).
(٢)، (٣) سورة طه: الآية: (٥٨).
(٤) سورة طه: الآية: (٥٨).
(٥) هذا ما اختاره ابن كثير فى تفسير ﴿مكانًا سُوًى﴾ واختار الطبرى أن المراد مكانًا تستوى مسافته على الفريقين.
(٦) سورة طه: الآية: (٥٨).
(٧) القرطبى (١١/ ٢١٤).

وها هو فرعون يجمع السحرة

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾(١).

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فُضلاء فى فنهم فجُمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجمٌّ غفير.

كانوا اثنين وسبعين ساحرًا مع كل ساحر منهم حبال وعصى.

وحضر فرعون وأُمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بكرة أبيهم. وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم.

قال تعالى: ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾(٢).

* قالوا للناس: هل لكم فى أن تجتمعوا ولا تتأخروا حتى تشاهدوا فوز السحرة على موسى؟ .. والجماهير تحب أن ترى كل ما هو مثير.

---

(١) سورة طه: الآية: (٦٠).

(٢) سورة الشعراء: الآيات: (٣٨ - ٤٠).

* أما السحرة فقد كانوا في غاية الحرص على المال والقرب من فرعون: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[١].

فهؤلاء السحرة كانوا لا يشغلهم دين ولا عقيدة وإنما كان كل ما يشغلهم الأجر والمصلحة .. فوعدهم فرعون بالمال وبما هو أهم من المال .. وعدهم أن يكونوا من المقربين إليه.

في ساحة المواجهة

وهناك في ساحة المواجهة وقف فرعون وحاشيته وحضر موسى وهارون (عليهما السلام) واجتمع الناس من كل مكان وكان يومًا مشهودًا.

وحضر السحرة ومعهم من فنون السحر الكثير والكثير وكانوا في غاية الثقة أنهم سيغلبون موسى (عليه السلام).

ولذلك بدأوا كلامهم مع موسى بأن خيَّروه وقالوا له: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[٢].

وهنا تظهر ثقة موسى بنصر ربه (جل وعلا) فقال

(١) سورة الشعراء: الآيتان: (٤١، ٤٢).
(٢) سورة طه: الآية: (٦٥).

لهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾[1] فألقى السحرة عصيهم وحبالهم وأقسموا بعزة فرعون الطاغية.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[2].

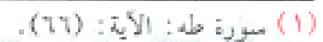
رمى السحرة بعصيهم وحبالهم فإذا المكان يمتلئ بالثعابين فجأة.

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[3].

* لقد سحروا أعين الناس فجعلوها ترى شيئًا خلاف الحقيقة وأثاروا الرهبة والخوف في قلوب الناس حتى إن موسى (عليه السلام) أحس بخوف شديد.

* وفي تلك اللحظة يثبته ربه (جل وعلا) ويذكره بأن معه القوة الكبرى.

﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[4].



(١) سورة طه: الآية: (٦٦).
(٢) سورة الشعراء: الآية: (٤٤).
(٣) سورة الأعراف: الآية: (١١٦).
(٤) سورة طه: الآيتان: (٦٨، ٦٩).



لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق ومعهم الباطل. معك العقيدة ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة. أنت متصل بالقوى الكبرى وهم يخدمون مخلوقًا بشريًا فانيًا مهما يكن طاغية جبارًا.

وهكذا سجد السحرة لفاطر السماوات والأرض

وألقى موسى.. ووقعت المفاجأة الكبرى. والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها، والذين كانوا منذ لحظة يحمس بعضهم بعضًا ويدفع بعضهم بعضًا. والذين بلغت بهم البراعة في فنهم إلى حد أن يخاف موسى ويُخيل إليه - وهو الرسول - أن حبالهم وعصيهم حيات تسعى! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجداناتهم،

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾(١)(٢) .

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها، صارت حية عظيمة ذات قوائم، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعًا وتأخروا عن مكانها وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى، فجعلت تلقفه واحدًا واحدًا فى أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيَّرهم فى أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق، الذى ابتعث موسى (عليه السلام) وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا

(١) سورة طه: الآية: (٧٠).
(٢) الظلال (٤/ ٢٣٤٢).

بلوى: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[1].

آمنتم له قبل أن آذن لكم؟!

فلما رأى فرعون أن هؤلاء السحرة قد أسلموا وجعلوا سيرة موسى وهارون (عليهما السلام) على كل لسان واشتهر أمرهم بين الناس أراد فرعون أن يصد الناس عن سبيل الله بطريقة ماكرة.

قال فرعون: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[2].. كأنه يقول: كان يجب عليكم أن تستأذنونى عندما أردتم أن تؤمنوا بإله موسى.

ثم قال لهم: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾[3]، وقال فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[4].

* وهذا الذى قاله كله كذب فى كذب .. وذلك لأن الناس جميعًا يعلمون أن موسى (عليه السلام) لم ير هؤلاء السحرة قبل ذلك أبدًا وأن الذى جاء بهؤلاء السحرة هو

(١) سورة طه: الآية: (٧٠).
(٢)، (٣) سورة طه: الآية: (٧١).
(٤) سورة الأعراف: الآية: (١٢٣).

فرعون نفسه فكيف يكون موسى هو الذى علمهم السحر.

البطش والتعذيب .. سلاح من لا حُجة له

فلما وجد فرعون أنه لا يمتلك حُجة أمام هذا الموقف العصيب وإذا به يلجأ إلى البطش والتعذيب والقتل فقال لهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾[1] أى: فو الله لأقطعن الأيدى والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[2] أى: لأعلقكم على جذوع النخل وأقتلكم شر قتلة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[3] أى: ولتعلمن أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذابًا وأدوم، هل أنا أم رب موسى الذى صدقتم به وآمنتم ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾[4] أى قال السحرة: لن نختارك ونفضلك على الهدى والإيمان الذى جاءنا من الله على يد موسى ولو كان فى ذلك هلاكنا ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾[5] قسمٌ بالله أى: مقسمين بالله الذى خلقنا

(١)، (٢)، (٣) سورة طه: الآية: (٧١).

(٤) سورة طه: الآية: (٧٢).

(٥) سورة طه: الآية: (٧٢).

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾[1] أى: فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[2] أى: إنما ينفذ أمرك فى هذه الحياة الدنيا وهى فانية زائلة ورغبتنا فى النعيم الخالد.

لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة فلذلك قالوا ما قالوا:

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾[3] أى: آمنا بالله ليغفر الذنوب التى اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصى ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾[4] أى: ويغفر لنا السحر الذى عملناه لإطفاء نور الله ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[5][6].

* والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم ﷺ. فكانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة! ويؤيد هذا قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[7][8].

(١)، (٢) سورة طه: الآية: (٧٢).

(٣)، (٤)، (٥) سورة طه: الآية: (٧٣).

(٦) صفوة التفاسير (٢/ ٢٣٨- ٢٤٠) بتصرف.

(٧) سورة الأعراف: الآية: (١٢٦).

(٨) قصص الأنبياء (ص: ٣٧٣، ٣٧٤) بتصرف.

استعينوا بالله واصبروا

لقد تحيَّر فرعون فلا يدرى ماذا يصنع مع نبى الله موسى (عليه السلام).

وإذا بالملإ والأكابر من قوم فرعون يتآمرون مع فرعون على موسى وقومه: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[1].

إنهم يتآمرون ويحرضون فرعون الطاغية على موسى ومن آمن معه فيقولون له: هل ستترك موسى وقومه يعبدون الله ويتركون عبادة آلهتك وأنت الإله العظيم.. إن هذا سيمثل خطرًا كبيرًا على مُلكك وسيكون سببًا فى انتشار الفساد فى بلادك فلا بد أن تسعى لإيجاد حلٍ فى أسرع وقت!!

إنهم يرون أن عبادة فرعون هى عين الصلاح وأن عبادة الله تجلب الفساد إلى البلاد والعباد!!

* فما كان من فرعون إلا أن انفعل وأحس بأن دعوة موسى (عليه السلام) تمثل خطرًا عظيمًا على مُلكه فأصدر هذا القرار الوحشى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٢٧).

وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١).

* ولم يكن هذا التعذيب جديدًا على بنى إسرائيل فقد كان فرعون يُقتل ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم.

* وهنا بدأ موسى (عليه السلام) يوصى المؤمنين بالصبر والاحتساب والاستعانة بالله (جل وعلا) ويخبرهم بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة لمن يتقى الله ويخشاه.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

* ولكن المشكلة أن أكثر الذين آمنوا مع موسى (عليه السلام) بعد قتل السحرة هم مجموعة من الشباب الصغير وقد امتلأت قلوبهم خوفًا من البطش والتعذيب.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣).

* حاول موسى (عليه السلام) تثبيتهم كثيرًا ليُخرج الخوف من قلوبهم إلا أنهم كانوا قد نفد صبرهم وبدأوا

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٢٧).
(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٢٨).
(٣) سورة يونس: الآية: (٨٣).

يشتكون من العذاب الذى حلَّ بهم. ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾[1].

وكأنهم يقولون: لقد أوذينا كثيرًا قبل مجيئك فلما جئتنا لم يتغير أى شىء فما زال العذاب يحل بنا فى كل وقت وحين.

فأخذ موسى (عليه السلام) يُصبرهم ويُذكرهم بالله ويفتح أمامهم باب الأمل فى أن يُهلك الله فرعون ومن معه ويستخلفهم فى الأرض.

﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقال فرعون ذرونى أقتل موسى

وهل كان فرعون عاجزًا عن ذلك حتى يقول لمن حوله ذرونى أقتل موسى؟! - أى: اتركونى أقتل موسى -.

إنه لا يقصد بهذا الكلام أن يتركوه ليقتله وإنما أراد منهم أن يهيئوا له المناخ العام حتى إذا قتله لا يحزن الشعب لقتله فيثأروا له .. فما كان من بطانة السوء إلا

(١)، (٢) سورة الأعراف: الآية: (١٢٩).

أن قامت بحملة إعلامية خبيثة .. الهدف منها التشكيك في رسالة موسى (عليه السلام).

قال تعالى موضحًا هذه الصورة: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾[1].

* قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾[2] أي قال فرعون الجبار: اتركوني حتى أقتل لكم موسى ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾[3] أي: وليناد ربه حتى يخلصه مني.

* وإنما قال فرعون ذلك على سبيل الاستهزاء .. وكأنه يقول: لا تظنوا أن هناك أي إله غيري فأنا ربكم الأعلى وليس هناك إله ينفع أو يضر غيري!!

صار فرعون واعظًا!!

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٢٧).
(٢)، (٣) سورة غافر: الآية: (٢٦).
(٤) سورة غافر: الآية: (٢٦).

لقد ذكر فرعون السبب الذى دعاه لقتل موسى (عليه السلام) وهو أن وجوده سيُفسد على الناس دينهم ودنياهم!!

فأما فساد الدين: فإن الناس سيتبعون موسى (عليه السلام) ويعبدون رب العالمين (جل وعلا) ويتركون عبادة فرعون!!

وأما فساد الدنيا: فإنه سيجتمع الناس حوله وستحدث الفتن بينهم وبين قوم فرعون.. وهذا كما قال المثل: «صار فرعون واعظًا».

موازين الباطل مقلوبة

إن فرعون يعتقد من داخله أنه هو الذى يهدى الناس إلى طريق الرشاد وأن موسى (عليه السلام) هو الذى يُظهر فى الأرض الفساد!!

هكذا قالها صريحة: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[١].. فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثنى، عن موسى رسول الله - عليه السلام -: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾؟!![٢].

---

(١)، (٢) سورة غافر: الآية: (٢٦).

أليست هى بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟[1].

مؤمن آل فرعون

لما أصر فرعون على قتل موسى (عليه السلام) ما كان من نبى الله موسى إلا أن التجأ إلى الله (جل وعلا) ليحميه من بطش فرعون. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[2].

* وبينما كان فرعون يجلس فى ديوانه مع الملإ والحاشية يدبرون لقتل موسى (عليه السلام) وإذا بالحق (جل وعلا) يُقيض لنبيه موسى (عليه السلام) رجلاً صالحًا مؤمنًا يكتم إيمانه فدافع عن موسى أشد الدفاع فقال فى اجتماعه مع فرعون وحاشيته:

* إن موسى لم يقل أكثر من أن الله ربه، وجاء بعد ذلك بالأدلة الواضحة على كونه رسولاً، وهناك احتمالان لا ثالث لهما: أن يكون موسى كاذبًا، أو يكون صادقًا،

(١) الظلال (٥/ ٣٠٧٨).

(٢) سورة غافر: الآية: (٢٧).

فإذا كان كاذبًا ﴿ فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾[1]، وهو لم يقل ولم يفعل ما يستوجب قتله، وإذا كان صادقًا وقتلناه، فما هو الضمان لنجاتنا من العذاب الذى يعدنا به؟

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾[2].

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفًا منهم على نفسه.

* والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما همَّ فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب.

* ثم وضح لهم هذا الرجل المؤمن أنهم اليوم فى مركز الحكم والقوة ولكن إذا كان موسى نبيًا فقتلتموه فمن ينصركم من عذاب الله وبأسه وعقابه إذا نزل بكم فقد يزول مُلككم إذا قتلتم موسى فإنه ما من دولة

---

(١) سورة غافر: الآية: (٢٨).

(٢) سورة غافر: الآية: (٢٨).

تعرضت للدين إلا كان ذلك سببًا فى زوال مُلكهم.

* كانت كلمات هذا الرجل المؤمن مُقنعة جدًا .. وخصوصًا أنه لا أحد يعلم بإيمانه فهو فى الظاهر يتكلم هذا الكلام خوفًا على فرعون ومُلكه .. ولكنه فى الحقيقة رجل مؤمن يدافع عن نبى الله موسى (عليه السلام).

وها هو يخوفهم بيوم الأحزاب

وما زال الرجل المؤمن يحذرهم من بأس الله تعالى فى الدنيا والآخرة: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾(١).

* ثم يطرق على قلوبهم طرقة أخرى، وهو يُذكرهم بيوم آخر من أيام الله. يوم القيامة. يوم التنادى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(٢).

(١) سورة غافر: الآيتان: (٣٠، ٣١).
(٢) سورة غافر: الآيتان: (٣٢، ٣٣).

وفى ذلك اليوم ينادى الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف .. وينادى أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار .. وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة .. فالتنادى واقع فى صور شتَّى. وتسميته ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾[(١)] تلقى عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصور يوم زحام وخصام .. وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[(٢)] .. وقد يكون ذلك عند فرارهم من هول جهنم، أو محاولتهم الفرار .. ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار.

وصورة الفزع والفرار هى أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين فى الأرض، أصحاب الجاه والسلطان!

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[(٣)] .. ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[(٤)] .. وتلميحًا بأن الهدى هدى الله .. وأن من أضله الله فلا هادى له والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق

(١)، (٢)، (٣) سورة غافر: الآيتان: (٣٢ - ٣٣).
(٤) سورة غافر: الآية: (٢٩).

الهدى ومن يستحق الضلال[1].

وكذلك زين لفرعون سوء عمله

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التى أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها؛ فقد ظل فرعون فى ضلاله، مُصرًا على التنكر للحق. ولكنه تظاهر بأنه آخذ فى التحقق من دعوى موسى، ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها. فاتخذ فرعون لنفسه مهربًا جديدًا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾[2] يا هامان ابن لى بناءً عاليًا لعلى أبلغ به أسباب السماوات، لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[3] .. هكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور، كى لا يواجه

(١) الظلال (٥/ ٣٠٨٠).

(٢) سورة غافر: الآيتان: (٣٦، ٣٧).

(٣) سورة غافر: الآية: (٣٧).

الحق جهرة، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التى تهز عرشه، وتهدد الأساطير التى قام عليها ملكه.

وإن الآخرة هى دار القرار

وأمام هذه المراوغة، وهذا الاستهتار، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة، بعدما دعا القوم إلى اتباعه فى الطريق إلى الله، وهو طريق الرشاد. وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة، وشوَّقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذرهم عذاب الآخرة، وبيَّن لهم ما فى عقيدة الشرك من زيف ومن بُطلان[1].

* قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

❊ ❊ ❊

(١) الظلال (٥/ ٨٢-٣).

(٢) سورة غافر: الآيات: (٣٨ - ٤٠).

ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار

* ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾(١)

أى: ما لى أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان، وتدعوننى إلى الكفر الموصل إلى النار؟ والاستفهام للتعجب كأنه يقول: أنا أتعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والخير، وتدعوننى إلى النار والشر؟ ثم وضح ذلك بقوله: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾(٢) أى: تدعوننى للكفر بالله، وأن أعبد ما ليس لى علمٌ بربوبيته، وما ليس بإله كفرعون ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾(٣)، أى: وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد، العزيز الذى لا يُغلب، الغفار لذنوب العباد ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾(٤) أى: حقًّا إنما تدعوننى لعبادته ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾(٥) أى: لا يصلح أن

---

(١) سورة غافر: الآية: (٤١).

(٢)، (٣) سورة غافر: الآية: (٤٢).

(٤)، (٥) سورة غافر: الآية: (٤٣).

يُعبد لأنه لا يستجيب لنداء داعيه، ولا يقدر على تفريج كربته لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وأنْ مَردَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾(1) أي: وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازى كلاًّ بعمله ﴿وأنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾(2) أي: وأن المسرفين في الضلال والطغيان سيُخلَّدون في النار.

فستذكرون ما أقول لكم

* ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾(3) أي: فستذكرون صدق كلامي عندما يحل بكم العذاب، ... وهو تهديد ووعيد ﴿وأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾(4) أي: أتوكل على الله، وأسلم أمري إليه .. وهذا يدل على أنهم هددوه وأرادوا قتله ﴿إنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(5) أي: مُطلع على أعمالهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾(6) أي: فنجاه الله من شدائد مكرهم، ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به ﴿وحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾(7) أي: ونزل

(1)، (2) سورة غافر: الآية: (43).
(3)، (4)، (5) سورة غافر: الآية: (44).
(6)، (7) سورة غافر: الآية: (45).

بفرعون وجماعته أسوأ العذاب، وهو الغرق في الدنيا، والحرق في الآخرة، ثم فسَّره بقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1] أي: النار يُحرقون بها صباحًا ومساءً..

والمراد بالنار هنا نار القبر وعذابهم في القبور بدليل قوله بعده ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[2] أي: ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا[3].

إقامة الحجة قبل الهلاك

لقد مضى فرعون في غيِّه وضلاله وتهديده.. فقتل الرجال واستحيا النساء وسلط على بني إسرائيل أشد أنواع القهر والعذاب.

وفي نفس الوقت كان موسى (عليه السلام) يُصبِّر قومه الذين آمنوا معه.

وهكذا ظل فرعون في ضلاله وظلمه لهؤلاء المؤمنين.. وفي المقابل ظل موسى وقومه يصبرون على الابتلاء

(١)، (٢) سورة غافر: الآية: (٤٦).
(٣) صفوة التفاسير (٣/ ١٠٤).

ويرجون الفرج من عند الله (جل وعلا).

* فجاء الفرج من عند الله فابتلى فرعون وقومه بأشد أنواع البلاء لعلهم يتذكرون أو يفيقون .. قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾(١).

* لقد قدَّر الله (جل وعلا) أن يشدد على آل فرعون البلاء لأنهم يستحقون ذلك .. ولكي يصرفهم الله عن تدبير المكائد لموسى (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين الذين عذبهم فرعون وآذاهم أشد الإيذاء.

فسلط الله على فرعون وأتباعه من الفراعنة، أعوام الجدب والقحط .. فلقد أجدبت مياه النيل وأجدبت الأرض من حوله ونقصت الثمار وجاع الناس.

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٣٠ - ١٣٣).

لكن العـجيب فى هذا الأمـر أن آل فرعـون كانوا إذا جاءهم الخصب والثمار الكثيرة قالوا: هذا من حسن حظنا فنحن نستحق ذلك وهذا الذى يليق بنا.

وإذا اشتد القحط والجدب قالوا: هذا من شؤم موسى ومن معه.

* فشدد الله عليهم البـلاء وسلط عليهم أنواعًا جديدة من البـلاء لا تخطر عـلى بالهم أبدًا لعلهم يـرجـعـون إلى الله ويُطلقون بنى إسرائيل ويرسلونهم مع موسى (عليه السلام).

* قال الله تـعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[1].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾[2] كثرة الأمطار المغـرقة المتلفة للزروع والثمار.

﴿وَالْجَرَادَ﴾[3] وأما الجراد فمعروف مشهور وهكذا فإن الجراد جند الله أرسله الله عـلى فرعون وقومـه، حتى إنه كان ليأكل مسـامير الأبواب من الحـديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، وأكل الشجر والثمر والزروع.

---

(١)، (٢)، (٣) سورة الأعراف: الآية: (١٣٣).

﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ وقد أرسل الله عليهم القمل.

وأما القُمل فهو السوس.

فدخل معهم البيوت والفُرش، فلم يقر لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

﴿ وَالضَّفَادِعَ ﴾ ثم أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجدوا فيه الضفادع قد غلبت عليه حتى إن الرجل إذا هَمّ أن يتكلم وثب الضفدع فى فيه - فى فمه - .

﴿ وَالدَّمَ ﴾(١) ثم أرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا.

﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ﴾ أى: كل هذه الآيات الظاهرات أرسلها الله عليهم، ليؤمنوا فما آمنوا . . هذا كله ولم ينل بنى إسرائيل من ذلك شيء بالكلية.

---

(١) فتلك هى التسع آيات التى ذكرها الله (جل وعلا) فى سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١] هى: العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وهذا من تمام المعجزة الباهرة، والحجة القاطعة، أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل، فلما بلغهم ذلك: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(1) .

* وهنا طلب آل فرعون من نبي الله موسى أن يدعو لهم ربه (جل وعلا) من أجل أن ينقذهم من هذا البلاء.. وكانوا يعطوه العهود والمواثيق في كل مرة أن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا رفع عنهم هذا البلاء.

* فأخذ موسى (عليه السلام) يدعو الله بأن يكشف ويرفع عنهم البلاء والعذاب .. وما إن ينكشف البلاء حتى ينقضوا العهود والمواثيق ويرجعوا إلى ما كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾(2).

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال

---

(1) سورة الأعراف: الآية: (١٣٤).

(2) سورة الأعراف: الآية: (١٣٥).

والجهل، والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله، مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة، والحجج البليغة القاهرة، التى أراهم الله إياها عيانًا، وجعلها عليهم دليلاً وبرهانًا.

وكلما شاهدوا آية وعاينوها، وتعبوا بسببها، حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به، وليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رُفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه، وأعرضوا عما جاءهم من الحق ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هى أشد مما كانت قبلها وأقوى .. فيقولون ويكذبون، ويعدون ولا يفون: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(١) فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل.

هذا، ... والله العظيم الحليم القدير، لا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم، ... ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم، أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عِبرة ونكالاً وسلفًا لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين(٢).

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٣٤).
(٢) قصص الأنبياء (ص٣٨٦: ٣٨٨) بتصرف.

* قال تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[1].

لم يؤمن معه إلا القليل

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحيَّر العقول، وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون، ولا ينزعون ولا يرجعون.

ولم يؤمن منهم إلا القليل .. قيل: ثلاثة: وهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم، والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصا المدينة، فقال: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ

(١) سورة الأعراف: الآيتان: (١٣٦، ١٣٧).

بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾[1] .

وقيل: بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون، والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾[2] .

فالضمير في قوله: ﴿إلا ذرية من قومه﴾[3] عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته، وجبروته وسلطته.

وعند ذلك قال موسى: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين (84) فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين (85) ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾[4] فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به، والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا[5] بكثرة

---

(1) سورة القصص: الآية: (٢٠).

(2)، (3) سورة يونس: الآية: (٨٣).

(4) سورة يونس: الآية: (٨٤ - ٨٦).

(5) قصص الأنبياء (ص: ٣٩٠ ، ٣٩١).

الصلاة، كما قال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾[1] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. وقيل: معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم، عوضًا عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق فى ذلك الزمان، الذى اقتضى حالهم إخفاءه خوفًا من فرعون وملئه.

دعاء من القلب

ولما تيقن موسى (عليه السلام) من أن فرعون وأتباعه لن يقبلوا الحق الذى جاء به وأنهم جحدوا بآيات الله ظلمًا وعلوًا وتكبرًا وإذا به يدعو عليهم بهذا الدعاء.

﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (٨٨) قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾[2].

﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة﴾ أى: من أثاث الدنيا

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٤٥).

(٢) سورة يونس: الآيتان: (٨٨ ، ٨٩).

ومتاعها ﴿ وَأَمْوَالاً ﴾ أي: جزيلة كثيرة ﴿ فِي ﴾ هذه ﴿ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك؛ ليظن من أغريته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم، واعتنائك بهم. ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾[1] أي: أهلكها. ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾[2] أي: اطبع عليها ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[3] وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله تعالى ولدينه، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[4][5].

* وهكذا توجه نبي الله موسى (عليه السلام) إلى الله بهذا الدعاء .. فما كان منه (سبحانه وتعالى) إلا أنه استجاب دعاءه، وقال له: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾[6] ثم أمره الحق (جل

---

(١)، (٢)، (٣) سورة يونس: الآية: (٨٨).

(٤) سورة نوح: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢١).

(٦) سورة يونس: الآية: (٨٩).

وعلا) بأن يستقيم هو وأخوه هارون (عليهما السلام) فقال تعالى: ﴿ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وجاء الأمر بالخروج ليلاً إلى أرض فلسطين

ويختصر السياق هنا حلقات كثيرة من القصة، ليصل إلى قرب النهاية. حين وصلت التجربة إلى نهايتها، وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ولن يستجيبوا لدعوته؛ ولن يسالموه أو يعتزلوه. وبدا له إجرامهم أصيلاً عميقًا لا أمل فى تخليهم عنه. عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾[2].

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيلة التى جنتها يداه؟ وإلا أن ينفض أمره بين يديه، ويدع له التصرف بما يريد؟

وتلقى موسى الإجابة إقرارًا من ربه لما وصف به القوم.. حقًا إنهم مجرمون..

---

(١) سورة يونس: الآية: (٨٩).

(٢) سورة الدخان: الآية: (٢٢).

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾(١)(٢).

* جاء الأمر الإلهى إلى موسى (عليه السلام) ومن معه بالخروج ليلاً من أرض مصر إلى أرض فلسطين .. وكانت هذه الخطوة هى بداية النهاية حيث كان بعدها هلاك فرعون وأتباعه فتعالوا بنا، لنرى كيف كانت نهاية هذا الطاغية الذى ادَّعى الألوهية.

* أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج من مصر مع بنى إسرائيل، وأن يكون رحيلهم ليلاً، بعد تدبير وتنظيم لأمر الرحيل، ونبأه أن فرعون سيتبعهم بجنده، وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو فى الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات).

وبلغت الأخبار فرعون أن موسى قد صحب قومه وخرج، فأرسل أوامره فى مدن المملكة لحشد جيش عظيم، ليدرك موسى وقومه، ويفسد عليهم تدبيرهم:

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ

(١) سورة الدخان: الآيتان: (٢٣، ٢٤).
(٢) الظلال (٥/ ٣٢١٣).

(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[١] .

إن فرعون هنا يعلن التعبئة العامة، وهذا من شأنه أن يشكل صورة في الأذهان، أن موسى وقومه يشكلون خطرًا فعليًا على فرعون وملكه، فكيف يكون إلهًا من يخشى فئة صغيرة يعبدون إلهًا آخر؟!

لذلك كان لا بد من تهوين الأمر وذلك بتقليل شأن قوم موسى وحجمهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾[٢] لكننا نطاردهم لأنهم أغاظونا، وعلى أي حال، فنحن حذرون مستعدون ممسكون بزمام الأمور.

فأرسل فرعون في المدائن حاشرين

وهكذا خرج موسى عليه السلام وأتباعه امتثالاً لأمر الله (عز وجل) .. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حُليًّا كثيرًا.

وضلوا الطريق فتعجب نبي الله موسى، وقال لمن معه: ما هذا؟ فأخبروه أن يوسف (عليه السلام) كان قد أوصى

---

(١) سورة الشعراء: الآيات: (٥٣ - ٥٦).

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٥٤).

بنقل جثمانه بعد موته من أرض مصر إلى الأرض المقدسة فسأل موسى (عليه السلام) فهل هناك من يعرف أين جسده؟ فقالوا: نعم امرأة عجوز تعيش هنا .. فدلتهم المرأة على قبره، فأخذوا جسده معهم إلى الأرض المقدسة.

* جيَّش فرعون الجيوش، وجمع الجموع، وخرج مسرعًا بجيشه يطارد موسى وقومه .. لقد خرجوا يتبعون خُطا موسى وقومه ويقفون أثرهم، فكان خروجهم هذا هو الأخير، وكان إخراجًا لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم! لذلك يذكر هذا المصير عقب خروجهم من أجل قتل المؤمنين، تعجيلاً بالجزاء على الظلم والبطر والبغى.

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[١].

وقطع موسى الطريق حتى وقف أمام البحر، وبدأ جيش فرعون يقترب، وظهرت أعلامه، وامتلأ قوم موسى بالرعب، كان الموقف حرجًا وخطيرًا، إن البحر أمامهم والعدو وراءهم

(١) سورة الشعراء: الآيات: (٥٧ - ٥٩).

وليس معهم سفن أو أدوات لعبور البحر، كما أنه ليست أمامهم فرصة واحدة للقتال، إنهم مجموعة من النساء والأطفال والرجال غير المسلحين، سيذبحهم فرعون عن آخرهم.

صرخت بعض الأصوات من قوم موسى: سيدركنا فرعون ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1][2].

موسى (عليه السلام) ..
وثقته بربه (جل وعلا)

لقد بلغ الكرب مداه، وإن هى إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين!

ولكن موسى الذى تلقَّى الوحى من ربه، لا يشك لحظة، وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة وإن كان لا يدرى كيف تكون. فهى لا بد كائنة والله هو الذى يوجهه ويرعاه.

﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[3].

كلا .. فى شدة وتوكيد .. كلا لن نكون مدركين..

(١) سورة الشعراء: الآية: (٦١).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) سورة الشعراء: الآية: (٦٢).

كلا لن نكون هالكين . . كلا لن نكون مفتونين . . كلا لن نكون ضائعين ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[(١)].

بهذا الجزم والتأكيد واليقين[(٢)].

لم يكن موسى يدرى كيف ستكون النجاة، لكن قلبه كان ممتلئًا بالثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، فالله هو الذى يوجهه ويرعاه، وفى اللحظة الأخيرة، يجيء الوحى من الله ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[(٣)] فضربه، فوقعت المعجزة ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[(٤)] وتحقق المستحيل فى منطق الناس، لكن الله سبحانه وتعالى إن أراد شيئًا قال له: كُن فيكون.

ظهر طريق يابس وسط البحر، الأمواج كالسورين على جنبتى الطريق، وهرع موسى وقومه يسيرون فى هذا الطريق الممهد داخل البحر والأمواج من حولهم، سبحان الملك!! ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الشعراء: الآية: (٦٢).

(٢) الظلال (٥/٢٥٩٨).

(٣)، (٤) سورة الشعراء: الآية: (٦٣).

(٥) سورة الشعراء: الآية: (٦٣).

غرق فرعون.. فهل من معتبر؟

ووصل فرعون إلى البحر، شاهد هذه المعجزة، شاهد في البحر طريقًا يابسًا يشقه نصفين، وموسى وقومه يسيرون في هذا الطريق اليابس في وسط البحر في أمان تام، ووقف فرعون يتأمل موسى وقومه والأمواج من حولهم والأرض يابسة تحت أقدامهم، ولم يفكر لحظة، أسرع خلفهم يطاردهم، وطمع فرعون في إدراكهم، فأمر جيشه بالتقدم، وحين انتهى موسى من عبور البحر، وأوحى الله إلى موسى أن يترك البحر على حاله ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾[1]، وكان الله سبحانه وتعالى قد قدَّر إغراق فرعون وإنهاء أمره، فما أن صار فرعون وجنوده في منتصف البحر، حتى أمر الله سبحانه وتعالى البحر، فانطبقت الأمواج على فرعون وجيشه، وغرق فرعون وجيشه، غرق العناد ونجا الإيمان بالله.

ولما عاين فرعون الغرق، ولم يعد يملك النجاة قال:

﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]

(١) سورة الدخان: الآية: (٢٤).

(٢) سورة يونس: (٩٠).

سقطت عنه كل الأقنعة الزائفة، فلم يكتف بأن يعلن إيمانه، بل والاستسلام أيضًا ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(١) لكن بلا فائدة، فليس الآن وقت اختيار، بعد أن سبق العصيان والاستكبار.

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢)؟!

انتهى وقت التوبة المحدد لك وهلكت، انتهى الأمر ولا نجاة لك، سينجو جسدك وحده، لن تأكله الأسماك، ولن يحمله التيار بعيدًا عن الناس، بل سينجو جسدك، لتكون آية لمن خلفك، وكان جبريل عليه السلام يضع في فم فرعون الطين وهو يحاول النجاة من الغرق حتى لا ينجو،... فعن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل: يا محمد! فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر، فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة»(٣).

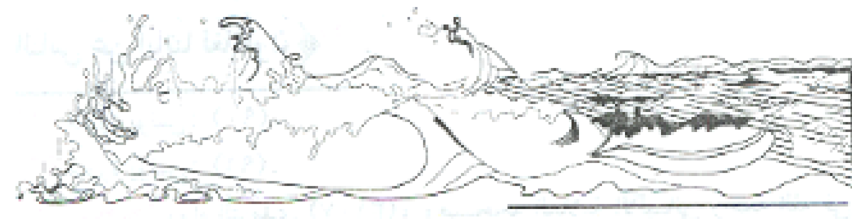
﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(٤).

(١) سورة يونس: (٩٠).
(٢) سورة يونس: (٩١).
(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣١٠٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٢٠٦).
(٤) سورة يونس: (٩٢).

أسدل الستار على طغيان فرعون، ولفظت الأمواج جثته إلى الشاطئ، بعد ذلك، نزل الستار تمامًا على الفراعنة، لا يحدثنا القرآن الكريم عما فعلوه بعد سقوط نظام فرعون وغرقه مع جيشه، لا يحدثنا عن ردود فعلهم بعد أن دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يُشيدون، لا نعلم عنهم شيئًا أبدًا، وكأنهم سقطوا تمامًا من التاريخ والأحداث: ويتحدث فقط عن المؤمنين الذين صاحبوا موسى خطوة بخطوة[1].

فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية

قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[2].. ويا لها من آية والله.



(١) ابن الإسلام (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) سورة يونس: (٩٢).

قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه .. ليتحققوا بذلك من هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال: ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ** ﴾ أى: مصاحبًا درعك المعروفة بك، ﴿ **لِتَكُونَ** ﴾ أى: أنت آية ﴿ **لِمَنْ خَلْفَكَ** ﴾ أى: من بنى إسرائيل ومَن بعدهم، ودليلاً على قدرة الله الذى أهلكك[1].

* قلت: وفرعون الذى نذكر قصته مازالت جثته موجودة فى المتحف المصرى بالتحرير ولقد رأيت صورة له عندما تسرب لجسده بعض العطب والعفونة فخافوا عليه من العطب فنزعوا الأغطية من على وجهه وصوروه صورة فوتوغرافية ونشروها فى إحدى المجلات ثم أرسلوا جثته لمعالجتها فى فرنسا فلما نظرت إلى صورته التى فى المجلة قلت: والله لو نظر إليه أى إنسان لظن أنه لم يمت إلا من ساعة واحدة فقط فمازال الشعر فى رأسه وحواجبه كما هو لم يسقط.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١١٦٨)، تفسير الطبرى (١١/ ١١٣ ، ١١٤).

وهكذا ظل جسده باقيًا إلى تلك الساعة، بقدرة الخالق جل وعلا.

ليكون ذلك آية للناس فى كل زمان... فهو القائل سبحانه: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[1].

وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء.

* عن ابن عباس قال: قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذى تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبى ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا»[2].

آسيا امرأة فرعون

كانت امرأة فرعون تعيش فى نعيم لا يخطر على قلب بشر فى قصر فرعون الطاغية.. وكانت تبغض استكباره وتجبره وقسوة قلبه.

(١) سورة يونس: الآية: (٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٩٧)، ومسلم (١١٣٠).

* وفي يوم من الأيام لما وجدوا موسى (عليه السلام) وهو طفل رضيع وذهبوا به إلى امرأة فرعون أحبته حبًّا شديدًا.

يقول الله تعالى في شأنها: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ..﴾[(١)].

* فلما أراد فرعون أن يقتله دافعت عنه وقالت له: أريده لنفسي ... وكانت لا تنجب فوهبه لها فرعون.

* وتأمل معي قولها عن موسى (عليه السلام).

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ .. وقد أنالها الله ما رجت من النفع، أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها بسببه جنته[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[(٣)].

ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على المُلك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذى كانت فيه[(٤)].

---

(١) سورة القصص: الآية: (٩).

(٢) البداية والنهاية / للحافظ ابن كثير (١/ ٢٢٤).

(٣) سورة التحريم: الآية: (١١).

(٤) فتح الباري (٦/ ٥١٦).

كانت امرأة فرعون تُعذَّب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

قال ابن جرير: كانت امرأة فرعون تسأل: مَن غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في الجنة، فمضت على قولها، وانتُزعت روحها[1].

* ولذا أثنى عليه النبي ﷺ كثيرًا.

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «كَمَل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبُك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون،

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»[1].

* ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثلٌ للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورة؛ فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذٍ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان، ولم تُعرض عن هذا النعيم فحسب، بل اعتبرته شرًّا ودنسًا وبلاءً، تستعيذ بالله منه، وتطلب النجاة منه، وهي امرأة واحدة، في مملكة عريضة قوية.

ماشطة ابنة فرعون

قال رسول الله ﷺ: «لما كانت الليلة التي أُسرى بي فيها أتت عليَّ رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل! ما هذه الرائحة الطيبة؟» فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها.

قال: قلت: «وما شأنها؟» قال: بينما هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقط المدرى - المشط - من يدها فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا

(١) صحيح: رواه أحمد (١١٩٨٣) والترمذي (٣٨٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٤٣).

ولكن ربى ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم، فأخبرته، فدعاها، فقال: يا فلانة! وإن لك ربًا غيرى؟ قالت: نعم ربى وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأُحميت، ثم أمر بها أن تُلقَى هى وأولادها فيها، قالت له: إن لى إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدى فى ثوب واحد وتدفننا.

قال: ذلك لك علينا من الحق.

قال: فأمر بأولادها فأُلقوا بين يديها واحدًا واحدًا، إلى أن انتهى ذلك إلى صبى لها يرضع، وكأنها تقاعست من أجله. قال: يا أمه! اقتحمى، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت».

وهكذا يكون حال أهل التوحيد والإيمان يشتد عليهم البلاء فى الدنيا ليسعدوا بالراحة الأبدية فى جنة الرحمن (جل وعلا).

وهكذا يكون ثبات أهل التوحيد والإيمان .. فهم أكثر الناس ثباتًا أمام المحن والفتن والابتلاءات وهم أكثر الناس رضًا بقضاء الله لأنهم ينظرون إلى الدنيا كلها بنظرة

أهل الإيمان الذين يعلمون يقينًا أن الدنيا بكل ما فيها لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

ويعلمون أن الله سيَجبر كسر المؤمن مع أول غمسة فى الجنة عندما يحط المؤمن رَحله فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

* الدروس المستفادة من هذه القصة:

(١) أن المسلم إذا وعد فلا بد أن يفي بوعده .. ولقد رأينا كيف أن موسى (عليه السلام) طلب منه الرجل الصالح أن يتزوج ابنته مقابل أن يرعى غنمه لمدة لا تقل عن ثمانِ سنوات ولا تزيد عن عشر سنوات فاختار موسى أكمل الأجلين ومكث عنده عشر سنوات.

(٢) أن المسلم لا ينسى أمه وأبيه وأسرته الغالية .. ولقد رأينا كيف أخبر موسى زوجته بشوقه للقاء أمه وأخته بعد هذا الغياب الطويل.

(٣) أن الله يخلق ما يشاء ويختار .. وأنه يصطفى من عباده من يشاء ولقد اختار الله (جل وعلا) نبيه موسى (عليه السلام) ليكلمه وليكون منذ هذه اللحظة كليم الله.

(٤) أن المسلم لا بد أن يختار الرفيق قبل الطريق .. ولذا لما أمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون سأل الله أن يُعينه بأخيه هارون فاصطفى الله هارون ليكون نبيًّا فكانت أعظم هدية يقدمها موسى لأخيه هارون (عليهما السلام).

(٥) أنه ما كان الرفق في شيء إلا زانه .. فالداعية لابد أن يكون رفيقًا ورحيمًا في دعوته .. ولقد رأينا كيف أن الله (عز وجل) لما أرسل موسى وهارون (عليهما السلام) إلى فرعون الطاغية .. قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[١].

(٦) أن المهمات الضخمة لا يقوم بها إلا أهل الإيمان والتقوى وأصحاب الهمة العالية الذين استعانوا بالله (جل وعلا) وتأهلوا لتحمل المشاق.

(٧) أن من كان الله معه فلا ينبغي أن يخشى أحدًا من البشر ولذا لما خاف موسى وهارون من بطش فرعون قال لهما تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٢].

---

(١) سورة طه: الآية: (٤٤).

(٢) سورة طه: الآية: (٤٦).

(٨) أن الأنبياء والعلماء هم أشجع الناس قلوبًا وذلك لأنهم يعلمون حقيقة الدنيا وضعف ومهانة أهل الباطل فلا يخافون من تهديدهم ولا من تخويفهم.

(٩) أن الداعية الصادق لا يغضب لنفسه أبدًا .. فلقد رأينا كيف كان موسى (عليه السلام) يعرض قضية التوحيد على فرعون .. وفرعون يستهزئ به ويريد أن يصرفه عن هذه القضية لكن موسى (عليه السلام) لم يلتفت لاستهزاء فرعون بل استمر فى عرض قضية التوحيد بكل ثقة ويقين.

(١٠) أن اللجوء إلى البطش والعنف سلاح مَن لا سلاح له .. فلقد رأينا كيف أن فرعون لما عجز عن مواجهة موسى (عليه السلام) قال له: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾(١).

(١١) أن من استشعر حلاوة الإيمان هانت عليه التضحيات واستعذب العذاب فى سبيل الله .. ولقد رأينا سحرة فرعون كيف كانوا فى غاية الحرص على المال والقرب من فرعون .. فلما آمنوا وذاقوا حلاوة الإيمان

(١) سورة الشعراء: الآية: (٢٩).

آثروا أن يُقتلوا عن أن يعودوا إلى الكفر مرة أخرى.

(١٢) أن المؤمن لا بد أن يقول كلمة الحق ولا يخشى في الله لومة لائم .. وقد رأينا مؤمن آل فرعون كيف بذل النصيحة خالصة لوجه الله ولم يخش من بطش فرعون وجبروته.

(١٣) أنه لا بد للظالم من نهاية تجعله عبرة لمن يعتبر.. ولقد رأينا كيف كان هلاك فرعون عبرة إلى يوم القيامة لكل من بغى وتكبر وادَّعى أنه إله من دون الله.

(١٤) أن الحياة الحقيقية وأن النعيم الحقيقى لن يكون فى الدنيا وإنما يكون فى الجنة .. ولذا رفضت امرأة فرعون أن تعيش فى قصر فرعون الذى كفر بالله (جل وعلا) وسألت الله أن يبنى لها قصراً فى الجنة فجعلها الحق (جل وعلا) ترى قصرها فى الجنة قبل أن تموت.

- ورأينا كيف ضحت ماشطة ابنة فرعون بنفسها وأولادها ليكونوا صُحبة يوم القيامة فى جنة الرحمن التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.



معاناة موسى (عليه السلام) مع بنى إسرائيل

وعلى الرغم من أن فرعون قد مات إلا أن جرائمه تركت آثارها فى نفوس بنى إسرائيل كما تركت آثارها من قبل فى نفوس الأقباط المصريين .. فأما بالنسبة للأقباط المصريين فلقد استخف فرعون بعقولهم ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[1] .. لقد استخف بحريتهم وعقولهم وآدميتهم فأطاعوه .. لماذا؟ قال الله تعالى عن سبب ذلك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[2].

فالفسق يجعل الإنسان لا يعلم مصلحته الدينية والدنيوية وقد يوقع صاحبه فى المهالك .. وهذا الذى حدث لقوم فرعون.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾[3].

* وأما بالنسبة لبنى إسرائيل فلقد تعودوا على الذل لغير الله فأفسد فرعون فطرتهم فكانوا بعد ذلك سببًا فى

---

(١)، (٢) سورة الزخرف: الآية: (٥٤).

(٣) سورة الزخرف: الآيتان: (٥٥، ٥٦).

معاناة نبى الله موسى (عليه السلام).

وسنرى فيما يلى كيف كانت معاناة موسى (عليه السلام) مع بنى إسرائيل.

اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة

لقد عانى نبى الله موسى (عليه السلام) أشد المعاناة فى دعوته لبنى إسرائيل فلقد علمنا كيف أن بنى إسرائيل كانوا يعيشون فى ذل وهوان من فرعون وقومه فأكرمهم الله بهلاك فرعون أمام أعينهم وأخرجهم إلى الأرض الطاهرة ليعيشوا وينعموا بالعزة والحرية والكرامة مع نبى الله موسى (عليه السلام).

* وكانوا منذ لحظات قد شاهدوا بأنفسهم كيف أن الله (عز وجل) قد أنجاهم من البحر وأغرق فرعون وقومه أمام أعينهم .. وما إن أنجاهم الله وشق لهم البحر حتى مروا على قوم يعبدون الأصنام .. وبدلاً من أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وإذا بهم يقولون لموسى (عليه السلام): اجعل لنا إلهًا مثل هذا.

قال تعالى مصوراً هذا المشهد: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[١].

* لقد اشتاقوا وعاودهم الحنين لأيام الشرك التي عاشوها في ظل فرعون فما كان من نبي الله موسى (عليه السلام) إلا أن أنكر عليهم ذلك قائلاً: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[٢].

لا بد من الإعداد الصحيح

لقد كانت مهمة سيدنا موسى (عليه السلام) تتم على مراحل متعددة.

فأول مرحلة هي تخليص بني إسرائيل من بطش فرعون

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان: (١٣٨، ١٣٩).

(٢) سورة الأعراف: الآيات: (١٣٩- ١٤١).

وقد تمت بفضل الله (عز وجل) وسار بهم موسى (عليه السلام) إلى الأرض المقدسة لكنهم لم يكونوا على استعداد للمهمة الكبرى ألا وهى مهمة إقامة هذا الدين العظيم فى الأرض.

والدليل على أنهم لم يكونوا على استعداد لهذه المهمة.. أنهم فشلوا فى أول اختبار.. فما إن رأوا قومًا يعبدون صنمًا حتى سألوا موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه مثله.. لقد اهتزت عقيدتهم من أول لحظة فكان لا بد من فترة للإعداد والتربية.

ومن أجل ذلك كانت مواعدة الله لنبيه موسى (عليه السلام) ليلقاه فقد كانت هذه المواعدة إعدادًا نفسيًا لموسى ليتهيأ للمهمة الكبرى.

قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

* لقد كانت فترة الإعداد هذه ثلاثين ليلة وأضيف إليها عشر ليال فأصبحت أربعين ليلة ينعزل فيها نبى الله موسى

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٤٢).

(عليه السلام) عن شواغل الدنيا فتصفوا روحه وتتقوى عزيمته ويروض فيها نفسه على هذا اللقاء الموعود.

* لقد ذكر الله تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة فصامها موسى (عليه السلام) فلما تم الميقات استاك بقشرة شجرة فأمره الله تعالى أن يكملها أربعين.

* وذهب موسى (عليه السلام) واستخلف فى قومه أخاه هارون (عليه السلام)، وجعله أميرًا عليهم.. وكان هارون نبيًا أرسله الله مع موسى.

* لقد كان موسى (عليه السلام) بصيامه أربعين ليلة يقترب من ربه أكثر وأكثر وكان يزداد حبًا لله (جل وعلا) بتكليمه إياه... وقد كان موسى (عليه السلام) يشعر بفضل ربه وكرمه وحبه إياه مما دفعه إلى أن يسأل الله الرؤية.

موسى (عليه السلام) يطلب رؤية ربه (جل وعلا)

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[١].

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٤٣).

هكذا يطلب موسى (عليه السلام) من ربه (جل وعلا) أن يراه . . يطلب ذلك بكل بساطة وتلقائية وعفوية من شدة حبه لله (جل وعلا).

* ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾[1] أي: في الوقت الذي أُمر بالمجيء فيه ﴿وكلمه ربه﴾[2] أي: كلمه الله من وراء حجاب، إلا أنه أسمعه الخطاب، فناداه وناجاه، وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع.

ولما أُعطي هذه المنزلة العالية والمرتبة السنية، وسمع الخطاب، سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار: ﴿رب أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾[3] ثم بيَّن تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى؛ لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتًا وأشد ثباتًا من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمن . ولهذا قال: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾[4][5] .

* ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا﴾[6] اندك الجبل وتفتت وصار ترابًا.

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (١٤٣).

(٥) قصص الأنبياء (ص: ٤١٧).

(٦) سورة الأعراف: الآية: (١٤٣).

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1] أي: مغشيًا عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾[2] تنزيهًا وتعظيمًا وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات.... ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[3] أي: تبت إليك من سؤالك الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، أي: أول المؤمنين من بني إسرائيل[5].

الله يصطفي موسى (عليه السلام)

ثم خاطب الله (عز وجل) نبيه وكليمه موسى (عليه السلام) قائلاً له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[6] أي: اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية وبتكليمي إياك بدون واسطة ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾[7] أي: خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[8] واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم.. والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (١٤٣).
(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٧).
(٦)، (٧)، (٨) سورة الأعراف: الآية: (١٤٤).

أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحداً من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] أي: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام مبينة للحلال والحرام كل ذلك في ألواح التوراة ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2] أي: ليتعظوا بها ويزدجروا وتفصيلاً لكل التكاليف الشرعية ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾[3] أي: خذ التوراة بجد واجتهاد شأن أولي العزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾[4] أي: وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص، والصبر أفضل من الانتصار[5].

* لقد انتهى ميقات موسى (عليه السلام) مع ربه (جل وعلا) .. ولم يكن على وجه الأرض إنسان أسعد من نبي الله موسى فلقد كلمه ربه (جل وعلا) واصطفاه وأكرمه غاية الإكرام.

---

(١)، (٢) سورة الأعراف: الآية: (١٤٥).

(٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (١٤٥).

(٥) صفوة التفاسير (١/ ٤٧٠).

قصة موسى (عليه السلام) والسامرى

لما انتهى موسى (عليه السلام) من ميقات ربه وانحدر من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة التى كتبها الله له وكان فى قمة سعادته بتكليم ربه وتكريمه له وإذا به يعلم من ربه (جل وعلا) نبأً يسؤوه فعاد إلى قومه غضبان أسفًا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾[1].

* لقد تذكر موسى (عليه السلام) المعاناة التى عاشها مع بنى إسرائيل وكيف أنه تعب فى تعليمهم وتربيتهم وتثبيتهم . . وكان يظن أنهم يسيرون على أثره.

* وكانت فتنة السامرى قد وقعت بمجرد خروج موسى إلى ميقات ربه. . . . وتفصيل هذه الفتنة أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر أخذوا معهم الكثير من حُلى الفراعنة وذهبهم.

فقد كانت نساء بنى إسرائيل قد استعرن هذا الذهب

---

(١) سورة طه: الآيات: (٨٣ - ٨٦).

للتزين به فلما أرادوا الخروج حملوه معهم فلما كتب الله لهم النجاة من بطش فرعون وتعذيبه سألوا علماءهم عن حكم هذا الذهب الذى أخذوه من الفراعنة بغير حق فأمرهم العلماء بالتخلص من الذهب .. فاستجابت النساء وألقوا بهذا الذهب والحُلى وقذفوا بها لأنها حرام.. فأخذها السامرى وكان أحد علمائهم وصنع منها تمثالاً على شكل عجل وكان السامرى عنده مهارة عجيبة فى النحت فصنع عجلاً مجوفًا من الداخل وأخذه ووضعه فى اتجاه الريح فإذا دخل الهواء من الفتحة الخلفية وخرج من الأنف أحدث صوتًا يشبه صوت خوار العجول الحقيقية.

ويقال: إن السر فى هذا الخوار أن السامرى كان قد رأى جبريل (عليه السلام) عندما نزل إلى الأرض وكان راكبًا فرسًا - وذلك فى معجزة شق البحر - فأخذ قبضة من التراب الذى سار عليه الفرس وخلطها بالذهب الذى صنع منه العجل الذهبى فلما صنعه خار العجل كالعجول الحقيقية.

وخرج السامرى على بنى إسرائيل ليريهم هذا العجل الذهبى.

فسألوه: ما هذا الذى صنعته يا سامرى؟

قال: هذا إلهكم وإله موسى.

قالوا: كيف يكون هذا إلهه وقد ذهب موسى لميقات إلهه.

قال السامرى: لقد نسى موسى...، ذهب للقاء ربه هناك، بينما ربه هنا.

وهبَّت موجة من الرياح فدخلت من دُبر العجل الذهبى وخرجت من فمه فخار العجل، وصاح بنو إسرائيل مهللين كالأطفال، وعبد بنو إسرائيل هذا العجل.

* وفى يوم من الأيام خرج هارون (عليه السلام) على بنى إسرائيل فوجدهم يعبدون العجل الذهبى فغضب غضبًا شديدًا، وأخذ ينهاهم عن هذا المنكر الأكبر ويحذرهم ويهددهم ويُذكرهم بالله (جل وعلا) ولكن القوم انقسموا إلى فريقين: فمنهم القلة المؤمنة الصابرة الذين ثبتوا على الحق وعلموا أنه ليس هناك من يستحق العبادة إلا الله (جل وعلا).. ولكن أكثر الناس عبدت العجل الذهبى من دون الله (جل وعلا).



* وظل هارون (عليه السلام) ينصح لهم ويقول لهم:
﴿ يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾[(١)].

هذا ليس ربكم ولا رب موسى .. فربكم هو الرحمن الرحيم.

ولكن القوم لم يستجيبوا لهارون (عليه السلام) .. فأخذ هارون يُذكرهم بما أكرمهم الله به من إنقاذهم من بطش فرعون وإنقاذهم من البحر وإغراق فرعون أمام أعينهم لكنهم رفضوا كل ذلك وقالوا كلمتهم الأخيرة.

﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾[(٢)].

* كان من الواضح أن هارون (عليه السلام) كان سهلاً لينًا ولذلك كان القوم لا يخافون منه .. وكان من الممكن أن يقوم هارون بتحطيم العجل الذهبي لكنه خشي أن تثور فتنة كبيرة بين القوم فآثر هارون أن ينتظر حتى يرجع موسى (عليه السلام) فهو قادر بقوته وشخصيته القوية أن يقف أمام هؤلاء القوم ويمنعهم من هذا الشرك الذي وقعوا فيه دون أن يكون هناك فتنة أو أي إراقة للدماء.

---

(١) سورة طه: الآية: (٩٠).
(٢) سورة طه: الآية: (٩١).

* وقف القوم يرقصون حول العجل الذهبى . . وإذا بموسى (عليه السلام) يرجع وهو فى قمة الغضب والحزن فسمع صياح القوم وهم يرقصون حول العجل وما إن رأوه حتى توقفوا جميعًا ودبَّ الرعب فى قلوبهم وساد صمت عجيب فصرخ فيهم موسى قائلاً: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾[1].

بئس ما صنعتم فى غيابى . . بئست الخيانة أن تغيروا دينكم بهذه السهولة.

* وفى تلك اللحظة من الغضب العارم الذى انتاب موسى (عليه السلام) وإذا به يُلقى الألواح غضبًا على قومه الذين أشركوا بالله (جل وعلا).

ثم اتجه موسى نحو هارون وهو فى قمة الغضب لله (سبحانه وتعالى) وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وجذبه بشدة قائلاً له: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[2].

كأنه يريد أن يقول: حتى أنت يا هارون!! . . . كيف عصيت

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).
(٢) سورة طه: الآيتان: (٩٢، ٩٣).

أمرى؟.. كيف تسكت على هذه الفتنة الكبيرة؟ .. كيف تركتهم يعبدون العجل ولم تُنكر عليهم أو تخرج وتتركهم؟

* وإذا بهارون يتحدث إلى أخيه موسى ويرجو منه أن يترك رأسه ولحيته وهو يذكره بأنهما أبناء أم واحدة ليكون ذلك أدعى لاستحضار كل مشاعر الرحمة والحنان.

﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾(١).

وهكذا نجد هارون أهدأ أعصابًا وأملك لانفعاله من موسى، فهو يلمس فى مشاعره نقطة حساسة. ويجىء له من ناحية الرحم وهى أشد حساسية، ويعرض له وجهة نظره فى صورة الطاعة لأمره حسب تقديره؛ وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعًا، بعضها مع العجل، وبعضها مع نصيحة هارون. وقد أمره بأن يحافظ على بنى إسرائيل ولا يُحدث فيهم أمرًا. فهى كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى(٢).

(١) سورة طه: الآية: (٩٤).
(٢) الظلال (٤/ ٢٣٤٨).

* وهنا استطاع هارون أن يوضح موقفه لموسى (عليهما السلام).

وأخبره بأن القوم استضعفوه وكادوا أن يقتلوه عندما أنكر عليهم ذلك وطلب من أخيه موسى أن يترك لحيته ورأسه حتى لا يُشمت به الأعداء ويستخف به القوم.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

وهنا أدرك موسى أنه قد تعجَّل في حكمه على أخيه هارون وأنه نسي في غضبه أن هارون نبي كريم لا يمكن أن يرضى بوقوع القوم في الشرك وأنه قد أنكر عليهم لكنه لم يستطع وحده أن يوقف هذا الطوفان من الشرك . . فترك موسى رأس أخيه ولحيته واستغفر الله لنفسه ولأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2].

* ثم نظر موسى إلى القوم الذين عبدوا العجل الذهبي وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).
(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥١).

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾[1] .

كأنه يريد أن يقول لهم: هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . . لقد أنعم الله عليكم وأكرمكم ونصركم على أعدائكم وأنجاكم من بطش فرعون ووعدكم بالجنة والنعيم المقيم إن عبدتموه فلماذا فعلتم كل هذا؟

ثم أخبرهم بالعاقبة الوخيمة لهذه الفعلة الشنيعة فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[2] .

* وهنا أحس القوم بتلك الجريمة التى وقعوا فيها وكيف أن موسى (عليه السلام) بذل معهم الكثير والكثير من أجل أن يكونوا مؤمنين صالحين ومن أجل أن يحملوا أمانة التوحيد فى الأرض . . ثم يرى الثمرة المريرة منهم بأن يعبدوا العجل لمجرد غياب موسى عنهم أربعين يومًا .

لقد أحسوا بأنهم أخطأوا خطأً كبيرًا وندموا على ما فعلوه .

---

(١) سورة طه: الآية: (٨٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٢).

جزاء السامرى

وهنا علم موسى (عليه السلام) أنه لا بد أن يقضى على الفتنة من جذورها ولذلك توجه إلى السامرى الذى صنع لهم العجل الذهبى ليعبدوه وهو فى قمة الغضب ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾[1]؟ . . ما حملك على ما صنعت؟

قال السامرى بكل عُجب وغرور: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾[2] . . وهذه هى لغة أهل الكبر . . بصرت ولم يُبصروا . . وفهمت ولم يفهموا . . وعرفت ولم يعرفوا!!

* ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[3] . . زعم أنه رأى جبريل (عليه السلام) وهو راكب فرسًا فلا تضع قدمها على شىء إلا دبَّت فيه الحياة . . وأنه قبض حفنة من التراب الذى سار عليه جبريل وألقاها على الذهب ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[4].

* هكذا يعترف السامرى أن نفسه الأمارة بالسوء هى التى سولت له أن يصنع هذا العجل الذهبى حتى يوقع الناس فى الشرك بالله (جل وعلا).

---

(١) سورة طه: الآية: (٩٥).

(٢)، (٣)، (٤) سورة طه: الآية: (٩٦).

* ولذلك لم يناقشه نبى الله موسى (عليه السلام) فى هذا الكلام لأنه كلام لا يستحق الرد عليه وإنما أخبره بثمرة هذا العمل الخبيث والجريمة المنكرة وأخبره بحكم الحق فى هذه الجريمة: ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ﴾(١).

حكم موسى على السامرى بالوحدة فى الدنيا.

يقول بعض المفسرين: إن موسى دعا على السامرى بأن لا يمس أحدًا، معاقبة له على مسِّه ما لم يكن ينبغى له مسُّه.

ونعتقد أن الأمر أخطر كثيرًا، . . . إن السامرى أراد بفتنته ضلال بنى إسرائيل وجمعهم حول عجله الوثنى والسيادة عليهم، وقد جاءت عقوبته مساوية لجرمه، لقد حكم عليه بالنبذ والوحدة، هل مرض السامرى مرضًا جلديًا بشعًا صار الناس يأنفون من لمسه أو مجرد الاقتراب منه؟ هل جاءه النبذ من خارج جسده؟ لا نعرف ماذا كان من أمر فى الأسلوب الذى تمت به وحدة السامرى ونبذ

(١) سورة طه: الآية: (٩٧).

المجتمع له، . . . كل ما نعرفه أن موسى أوقع عليه عقوبة رهيبة، كان أهون منها القتل، فقد عاش السامرى منبوذًا محتقرًا لا يلمس شيئًا ولا يمس أحدًا ولا يقترب منه مخلوق، هذه هى عقوبته فى الدنيا، ويوم القيامة له عقوبة ثانية أخطر وأرعب، إنه أراد أن يكون زعيمًا مخترعًا مشهورًا يتبعه الناس ويطيعونه ويعظمونه، فعوقب بنقيض قصده: الوحدة والانفراد . . وألا يقترب منه أحد . . .[1].

* ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ﴾[2] أى: معبودك ﴿الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾[3] أى: أقمت على عبادته - يعنى: العجل - ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾[4] قال ابن عباس: سَحَلَه بالمبرد وألقاه على النار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا﴾[5] فى شاطئ النهر.

وفى هذا الحديث بيان للكيفية التى نسف بها موسى العجل، فقد أمر ببرده بالمبارد، كى يرى بنو إسرائيل تفاهة العجل الذى عبدوه، وتحول العجل إلى مسحوق دقيق كان يُذرى فى النهر الذى كانوا بجانبه، ومن عجيب صنع الله

(١) ابن الإسلام (ص: ٢١٨).
(٢)، (٣)، (٤)، (٥) سورة طه: الآية: (٩٧).

أن كل الذين عبدوا العجل اصفرت وجوههم عندما شربوا من ماء النهر، وأصبحت بلون الذهب[1].

وهكذا كانت توبتهم

لقد أثبت لهم موسى (عليه السلام) أن العجل الذى كانوا يعبدونه من دون الله (جل وعلا) لا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه الأذى .. والدليل على ذلك أن موسى (عليه السلام) جعله رمادًا ونسفه فى البحر أمام أعينهم فكيف يكون إلهًا!!

ثم قال لهم موسى (عليه السلام) بصوت مرتفع: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2].

* وبعد أن نسف موسى (عليه السلام) ذلك الصنم وأبلغ السامرى بعقوبته فى الدنيا والآخرة أخبر الذين عبدوا العجل أن أمامهم حلٌّ واحد للتوبة وهو أن يقتل المطيع من بنى إسرائيل كل من عصى وعبَد العجل من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١١٠).
(٢) سورة طه: الآية: (٩٨).

بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

فيقال: إنهم أصبحوا يومًا وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف، وألقى الله عليهم ضبابًا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفًا، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾(٢)(٣).

رفع الجبل فوق بني إسرائيل

لقد عاد نبي الله موسى (عليه السلام) إلى دعوته وجهاده وبدأ يقرأ ألواح التوراة على بني إسرائيل وأمرهم أن يأخذوا بأحكام التوراة بكل قوة؛ ولكن القوم بدؤوا في مساومته. وقالوا: انشر علينا الألواح فإن كانت أوامرها سهلة قبلناها .. فيا تُرى ما الذي حدث؟

---

(١) سورة البقرة: (٥٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٤).

(٣) قصص الأنبياء: (ص ٤٢٥ ، ٤٢٦) بتصرف.

قال تعالى مصورًا هذا المشهد المهيب: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم. فقالوا: انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها. فقال: بل اقبلوها بما فيها فراجعوه مرارًا، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رءوسهم حتى صار كأنه ظُلَّة - أى: غمامة - على رءوسهم، وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك... وأُمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنة لليهود إلى اليوم، يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب[2].

* وهكذا تعرف من طبيعة بنى إسرائيل أنهم قوم فى غاية العناد والاستكبار وأنهم لا يُسلمون وجوههم لله إلا بالشدة ودق الأعناق.

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٧١).

(٢) قصص الأنبياء: (ص: ٤٣٥).

واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا

قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾[1].

اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً.

وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، وصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم.

فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وقّته له ربه، وكان لا يأتي إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله، فقال: أفعل.

فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبل كله، ودنا موسى فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه

(١) سورة الأعراف: الآية: (١٥٥).

الحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل.

فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾(١)(٢).

* بعد كل هذه الآيات والمعجزات يقولون: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة!!

* هنا غضب الله عليهم فأخذتهم الرجفة، وهى الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعًا. فقام موسى يناشد ربه، ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾(٣) أى لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا برآء مما عملوا.

قال ابن عباس: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل. وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾(٤) أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك، يعنى أنت الذى قدَّرت هذا، وخلقت ما كان من أمر العجل اختبارًا، تختبرهم به كما

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٥٥).

(٢) صحيح القصص النبوى (ص: ٤٢٧).

(٣)، (٤) سورة الأعراف: الآية: (١٥٥).

﴿قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾[1] أي اختبرتم.

ولهذا قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾[2] أي من شئت أضللته باختبارك إياه، ومن شئت هديته، لك الحكم والمشيئة لا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت[3].

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[4].

البشرى بنبوة محمد ﷺ

لما توجه نبي الله موسى (عليه السلام) إلى الله (عز وجل) بهذا الدعاء وبتلك الكلمات ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[5] يعني تبنا إليك ورجعنا وندمنا على ما فعلنا .. رضي الله عنه وغفر لقومه فأحياهم بعد موتهم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[6].

---

(١) سورة طه: الآية: (٩٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٥).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٤٢٧).

(٤)، (٥) سورة الأعراف: الآيتان: (١٥٥، ١٥٦).

(٦) سورة البقرة: الآية: (٥٦).

* ولأول مرة يستمع السبعون - الذين اختارهم موسى (عليه السلام) فأخذتهم الصاعقة ثم أحياهم الله - إلى تلك البشرى بنبوة محمد بن عبد الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

* فهكذا كانت البشرى بنبوة سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ.

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن الفسق يجعل الإنسان لا يعلم مصلحته الدينية والدنيوية بل قد يوقع صاحبه فى المهالك، كما حدث لقوم فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[٢].

(١) سورة الأعراف: الآيتان: (١٥٦، ١٥٧).
(٢) سورة الزخرف: الآية: (٥٤).

(٢) أن من طبيعة بنى إسرائيل الغدر والخيانة وعدم الوفاء .. فبعد أن أكرمهم الله بنعمة الحرية وأهلك فرعون أمام أعينهم وشق لهم البحر حتى مروا على قوم يعبدون الأصنام فطلبوا من موسى (عليه السلام) أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه من دون الله.

(٣) أن هذا الموقف يحتاج إلى حزم وصرامة وشدة حتى لا يعود هؤلاء القوم إلى الشرك مرة أخرى.

(٤) أن الصيام مدرسة عظيمة لإعداد الروح لترتقى إلى أعلى درجات الإيمان والتقوى .. ولذا صام موسى (عليه السلام) أربعين يومًا لتصفو روحه وتقوى عزيمته ويزداد إيمانًا وتقوى ليتهيأ لهذا اللقاء الموعود.

(٥) أن أعظم نعمة فى الآخرة هى النظر إلى وجه الله (جل وعلا) ولذا سأل موسى ربه أن يجعله يفوز برؤيته ولكن موسى (عليه السلام) لم يكن يعلم أن رؤيته لربه فى الدنيا مستحيلة وأنه لن يراه إلا فى الجنة.

(٦) الأنبياء يغضبون كما يغضب البشر ولكنهم لا يغضبون لأنفسهم وإنما يغضبون لله (جل وعلا) .. ولذلك

غضب موسى (عليه السلام) لما علم أن السامرى صنع لبنى إسرائيل عجلاً ليعبدوه من دون الله (جل وعلا).

(٧) أن المجرم يكون جزاؤه من جنس عمله .. فلقد رأينا كيف أن السامرىّ لما مسَّ التراب الذى سار عليه فرس جبريل (عليه السلام) ووضعه على الذهب الذى صنع منه العجل الذهبى .. كان جزاؤه أن يعيش وحيدًا منبوذًا فى الدنيا لا يمس أحدًا ولا يمسه أحد.

(٨) أن من نعم الله على أمة الإسلام أن جعل توبتهم سهلة ميسورة فلو أذنب العبد ذنوبًا كالجبال ثم تاب واستغفر فيما بينه وبين الله لتاب الله عليه وبدل سيئاته حسنات .. أما توبة الله على بنى إسرائيل لما عبدوا العجل فلقد كانت توبته عليهم أن يأخذ المؤمنون الذى رفضوا عبادة العجل سيوفهم ليقتلوا بها كل من عبدوا العجل فقتلوا فى يوم واحد سبعين ألفًا .. فالحمد لله على نعمة الإسلام.

(٩) أن بنى إسرائيل لا تنفع معهم الرحمة ولا الرفق.. ولذا لما عرض عليهم موسى (عليه السلام) التوراة ليأخذوا بأحكامها رفضوا، فأمر الله الملائكة فرفعوا

الجبل فوق رؤوسهم وقيل لهم: إن لم تقبلوا التوراة سيسقط الجبل فوق رؤوسكم فوافقوا وقبلوا التوراة.

(١٠) أن البشرى بنبوة محمد ﷺ جاءت في الكتب السابقة لتكون حُجة على أصحابها إذا أدركوا بعثة محمد ﷺ.

قصة بقرة بنى إسرائيل

وها هى قصة بقرة بنى إسرائيل التى توضح لنا كيف كانت نفوس بنى إسرائيل خبيثة ملتوية عنيدة .. فكلما جاءهم الأمر من الله (جل وعلا) كانوا أحرص الناس على مخالفة أوامر الله (جل و علا).

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ

وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

* والقصة تتلخص فى أنه كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال، وكان شيخًا كبيرًا وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطرق، ويقال على باب رجل منهم.

فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبى الله؟ فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى عليه السلام.

فقال موسى عليه السلام: «أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به» فلم يكن عند أحد منهم علم منه، وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز وجل.

فسأل ربه عز وجل فى ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا

(١) سورة البقرة: الآيات: (٦٧ - ٧٣).

هُزُوًا﴾[1] يعنون: نحن نسألك عن أمر هذا القتيل، وأنت تقول لنا هذا؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[2] أى: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلىَّ، وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى أن أسأله فيه.

فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكن شددوا فشدد عليهم.

فسألوا عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سنها، فأجيبوا بما عزّ وجوده عليهم والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان، وهى الوسط النصف بين الفارض - وهى: الكبيرة - والبكر - وهى: الصغيرة - ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها، فأمروا بصفراء فاقع لونها، أى: مشرب بحمرة تسر الناظرين، وهذا اللون عزيز، ثم شددوا أيضًا ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٦٧).

تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾(١)(٢).

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾(٣).

وهذه الصفات أضيق من الأولى فقد أمرهم موسى (عليه السلام) بذبح بقرة ليست مُذللة أو مُعدة لحرث ولا لسقى الأرض بالساقية . . سالمة من العيوب.

﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾(٤) أي: ليس فيها أي لون يخالف لونها بل هي صفراء خالصة الصفرة، فلما حددها بهذه الصفات، وخصها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾(٥).

ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًا بأبيه، فطلبوها منه.

فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا فأخذوها بملء جلدها ذهبًا.

فأمرهم نبي الله بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾(٦)



(١) سورة البقرة: الآية: (٧٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٢٦٧ - ٢٧٠) وتفسير البغوي (١/ ٨١ - ٨٣).

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة البقرة: الآية: (٧١).

أى: وهم يترددون فى أمرها، ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها... قيل: بلحم فخذها، وقيل: بالعظم الذى يلى الغضروف وقيل: بالبضعة التى بين الكتفين، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى، فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبى الله موسى: مَن قتلك؟ قال: قتلنى ابن أخى، ثم عاد ميتًا كما كان.

قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1].

أى: كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له، كذلك أمره فى سائر الموتى، إذا شاء إحياءهم أحياهم فى ساعة واحدة كما قال: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[2][3].

قصة موسى والخضر (عليهما السلام)

قام موسى (عليه السلام) فى يوم من الأيام يخطب فى بنى إسرائيل ليدعوهم إلى الله ويذكرهم ويرقق قلوبهم بالمواعظ الغالية فكان حديثه شيقًا رائعًا جذب قلوب الناس من حوله.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٧٣).

(٢) سورة لقمان: الآية: (٢٨).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٤٣٨).

وبعد أن انتهى من موعظته قام واحد من بنى إسرائيل وسأله: هل هناك على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله؟!

فقال موسى (عليه السلام): لا.

وإذا بجبريل (عليه السلام) ينزل فى تلك اللحظة ليخبر موسى (عليه السلام) بأن الله (عز وجل) يعتب عليه أنه لم يرد العلم إلى الله ويقول: الله أعلم.

ثم أخبره أن الله يقول له: إن عبدًا من عبادى بمكان يقال له: مجمع البحرين هو أعلم منك يا موسى.

هنا اشتاق موسى (عليه السلام) لرؤية هذا الرجل الذى هو أعلم منه .. واشتاقت نفسه للتزود من العلم، وقال: يا رب كيف أصل إلى هذا الرجل؟ فأمره الله (عز وجل) أن يحمل حوتًا فى مكتل - أى: يحمل سمكة فى سلة - ويسير فى البحر فإذا جاءت اللحظة التى تعود فيها الحياة للحوت ويقفز فى البحر فسوف يجد هناك هذا العبد العالم.

* وانطلق موسى (عليه السلام) بعدما أخذ الحوت فى المكتل وأخذ معه فتاه يوشع بن نون - الذى صار نبيًّا بعد موسى (عليه السلام) - وحمل الفتى السلة التى فيها

الحوت وانطلقا ليبحثا عن هذا الرجل العالم.

وليس لديهم أى علامة على مكان هذا العالم سوى أن تعود الحياة للسمكة وهروبها إلى البحر.

* وكان موسى (عليه السلام) عنده عزم وإصرار على أن يصل إلى هذا العالم ولو ظل مسافراً سنوات طويلة.

قال تعالى: ﴿وإذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[(١)].

* المهم أنه وصل موسى (عليه السلام) وفتاه يوشع إلى صخرة كبيرة بجوار البحر وقد تعبا من السفر .. ونام موسى (عليه السلام) وبقى يوشع سهرانًا يحرس نبى الله موسى (عليه السلام).

وفجأة ساقت الرياح موجة عالية على الشاطئ فجاء رذاذ الماء على الحوت فدبَّت فيه الحياة وقفز إلى البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾[(٢)] .. وكانت عودة الحياة إلى الحوت وهروبه إلى البحر علامة أعلم الله بها موسى (عليه السلام) لتحديد المكان

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٠).
(٢) سورة الكهف: الآية: (٦١).

الذى سيجد فيه هذا العالم الجليل الذى جاءه موسى ليتعلم منه.

* قام موسى (عليه السلام) من نومه ولم يعرف أن الحوت قد دبت فيه الحياة وهرب إلى البحر .. ونسى فتاه يوشع أن يخبره بما حدث.

وسار موسى وفتاه ليلتهما ويومهما حتى إذا كانا من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا فقد شعرت بالتعب الشديد.

وهنا تذكر الفتى تلك اللحظة التى دبت فيها الحياة فى الحوت فهرب إلى البحر وذلك عندما كانا عند الصخرة.. فأخبر موسى بما حدث واعتذر إليه بأن الشيطان هو الذى أنساه أن يذكر له ما حدث رغم غرابة ما حدث أمام يوشع فقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة على الماء وكأنه يتلوى على الرمال فيترك عليها أثرًا.

* هنا أحس موسى (عليه السلام) بسعادة غامرة عندما علم أن الحوت هرب إلى البحر لأن معنى ذلك أنه قد وصل إلى المكان الذى يريده ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[1].

وعاد موسى (عليه السلام) وفتاه يبحثان عن المكان

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٤).

الذى هرب فيه الحوت.

وبعد بحث طويل وصل موسى إلى المكان الذى هرب فيه الحوت فى البحر.

وصل هو وفتاه إلى الصخرة التى ناما عندها وهناك وجدا رجلاً مُسجًى بثوب ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾[1].

فسلم عليه موسى (عليه السلام).

فقال له الخضر: وهل بأرضك سلام؟ .. من أنت؟

فقال موسى: أنا موسى.

فقال الخضر: موسى نبى بنى إسرائيل .. عليك السلام يا نبى بنى إسرائيل.

ثم قال له الخضر: وماذا تريد منى يا موسى؟

قال موسى: أتيتك لتعلمنى مما عُلمت رشدًا.

فقال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيديك يا موسى؟!

ثم قال له: يا موسى إنى على علم من علم الله لا تعلمه أنت .. وأنت على علم من علم الله لا أعلمه أنا.

(١) سورة الكهف: الآية: (٦٥).

فقال له موسى: هل اتبعك على أن تعلمنى مما عُلّمت رُشدًا؟.

فقال لـه الخضر: ﴿إنك لن تستطيع معي صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾[1].

أى أنك ستجد فـى تصرفاتى أشياء لا تفهم لهـا سببًا ولا تدرى لها علة ولذلك فلن تصبر معى يا موسى.

* فاحتمل مـوسى تلك الكلمات وعاد يرجوه أن يأذن له بصحبته ليتعلم على يديه فقال له: ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾[2].

- وتأمل معى كيف كان تواضـع موسى (عليه السلام) للخضر (عليه السلام).

* وهنا اشترط الخضر على موسى (عليهما السلام) شرطًا من أجل أن يكون فى صحـبته وهـو ألا يسأله عن أى شيء حتى يحدثه هو عنه.. فوافق موسى على هذا الشرط.

﴿قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾[3].

(١) سورة الكهف: الآيتان: (٦٧، ٦٨).
(٢) سورة الكهف: الآية: (٦٩).
(٣) سورة الكهف: الآية: (٧٠).

* وانطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر يتكلمان وفجأة مرت أمامهما سفينة فكلما أصحابها أن يحملوهما فوافق أصحاب السفينة وبخاصة أنهم عرفوا الخضر (عليه السلام) فحملوهما بغير أجر إكرامًا للخضر.

فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر.

* وبعد أن وصلوا جميعًا إلى الشاطئ فوجيء موسى (عليه السلام) بأن الخضر (عليه السلام) أخذ فأسًا حين غادر الناس السفينة وأخذ يخرق السفينة فاقتلع لوحًا من ألواحها وألقاه في البحر .. فتعجب نبي الله موسى (عليه السلام) وقال للخضر (عليه السلام) لقد حملنا أصحاب السفينة بغير أجر وأكرمونا غاية الإكرام ثم أنت تخرق لهم سفينتهم التي يعملون عليها لتغرقهم في البحر فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

- لقد كان هذا التصرف الذي فعله الخضر عجيبًا من وجهة نظر موسى (عليهما السلام).

* وهنا قام الخضر ليُذكر موسى بالعهد الذى أخذه عليه .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾(١) .

وهنا اعتذر موسى للخضر لأنه فعل ذلك نسيانًا وطلب منه ألا يؤاخذه على ذلك ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾(٢) . فطلب منه أن يصبر عليه .

* ومرة أخرى يسير موسى مع الخضر (عليهما السلام) فمرًا على حديقة يلعب فيها الصبيان .. ولما شبع الأطفال من اللعب وتعبوا جلسوا جانبًا وناموا .. وفجأة قام الخضر بقتل غلام منهم فثار موسى وظل يسأل الخضر : ما ذنب هذا الغلام وما جريمته حتى تقتله؟!

فقام الخضر يُذكّر موسى للمرة الثانية بالعهد الذى أخذه عليه، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾(٣) .

- ويعتذر موسى للمرة الثانية بأنه فعل ذلك نسيانًا وأعطاه العهد بأن لن يسأله مرة أخرى .. فإذا سأله مرة أخرى فله الحق أن يفارقه هذه المرة.

---

(١) سورة الكهف : الآية: (٧٢).

(٢) سورة الكهف : الآية: (٧٣).

(٣) سورة الكهف : الآية: (٧٥).

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾(١) .

* وللمرة الثالثة والأخيرة يسير موسى مع الخضر (عليهما السلام)، فدخلا قرية كان أهلها على درجة عالية من البُخل . . فلما نفد الطعام الذى معهما طلبا من أهل القرية أن يقدموا لهما طعامًا فرفضوا أن يضيفوهما أو يقدموا لهما طعامًا . . ومرت الساعات عصيبة عليهما بلا طعام ولا شراب .

فجلس موسى والخضر (عليهما السلام) بجوار جدار مائل يكاد أن يسقط وفجأة قام الخضر ليصلح هذا الجدار ويبنيه من جديد .

فتعجب موسى من فعل الخضر . . كيف يقوم ويبنى الجدار فى تلك القرية التى بخل أهلها أن يقدموا لهم الطعام والشراب قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾(٢) .

* وهنا انتهى الأمر . . وكان الفراق بين موسى والخضر (عليهما السلام) .

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٦) .

(٢) سورة الكهف: الآية: (٧٧) .

قال الخضر لموسى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1].

* لقد حذر الخضر موسى (عليه السلام) من السؤال عن أى شيء يراه حتى وإن كان أمرًا غريبًا ولكن موسى (عليه السلام) كان لا يتمالك نفسه من السؤال وبخاصة أنه يرى أشياء غريبة.. ولكنه لم يعلم أن الخضر كان لا يفعل أى شيء إلا بوحى من الله (جل وعلا) ولم يكن يفعل أى شيء من تلقاء نفسه.

* ويبدأ الخضر يكشف لموسى (عليهما السلام) أسرار تلك الأشياء والأفعال التى كان يتعجب منها.

* فأخبره أولاً عن أمر السفينة التى خرقها رغم أن أصحاب السفينة أكرموهما وحملوهما بدون أجر.. فقد يظن موسى (عليه السلام) أن خرق السفينة مصيبة كبيرة لأصحابها لكن الخضر (عليه السلام) أخبره أنه فعل ذلك لأن الملك الظالم الذى كان يحكم البلاد كان فى هذه الأيام يستولى على كل سفينة سليمة خالية من العيوب فأراد الخضر أن يخرقها حتى يتركها الملك ثم يصلحها

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٨).

أصحابها بعد ذلك .. ومن المعلوم أن إصلاح لوح فى السفينة خير من ضياع السفينة كلها .. وبذلك استطاع الخضر أن يكون سببًا فى حفظ السفينة من الضياع وبذلك يبقى مصدر رزق هذه الأسرة كما هو فلا يموتون من الجوع ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾(١) .

* ثم وضح له السر فى قتل هذا الغلام .. فقد يعتبر موسى (عليه السلام) أن قتل الغلام مصيبة كبيرة بالنسبة لوالديه غير أن الخضر (عليه السلام) وضح له أن هذا الغلام طُبع كافرًا وأنه كان سيرهق والديه عندما يكبرا وسيكون عاقًّا لهما وأن موته سيكون رحمة لهما وأن الله (عز وجل) سيرزقهما بدلاً منه غلامًا يرعاهما ويُحسن إليهما فى سن الشيخوخة والضعف.

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ⁽٨٠⁾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾(٢) .

* ثم وضح السر فى بناء الجدار من غير أن يطلب

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٧٩).

(٢) سورة الكهف: الآيتان: (٨٠، ٨١).

أجرًا من أهل القرية.

فأخبره أن الجدار الذى بناه بدون أجر كان تحته كنز لغلامين يتيمين فى المدينة وكان الجدار يكاد أن يسقط .. ولو سقط الجدار لظهر الكنز الذى تحته فأخذه أهل القرية البُخلاء ولم يستطع الغلامان أن يحصلا على كنزهما فلذلك بنى لهما الجدار ليحفظ لهما كنزهما حتى يكبرا فيستخرجا الكنز بإذن الله (جل وعلا).

ولما كان أبوهما صالحًا فقد نفعهما الله بصلاحه فى طفولتهما وضعفهما، فأراد ربهما أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[1].

* ثم وضح له الخضر أن هذا كله لم يفعله من تلقاء نفسه، وإنما كان ذلك كله بوحى من الله (جل وعلا) .. ولذا قال له: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[2].

* ثم اختفى هذا العالم العابد الخضر (عليه السلام) بعد

(١)، (٢) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

أن تعلم منه موسى (عليه السلام) درسين فى غاية الأهمية:

١- تعلم منه ألا يغتر بعلمه فإنه فوق كل ذى علم عليم.

٢- تعلم منه ألا يتسرع ولا يتكلم إلا بما يعلم.

الطريق إلى بيت المقدس

ها هو موسى (عليه السلام) يحرض بنى إسرائيل على الجهاد فى سبيل الله ودخول بيت المقدس الذى كان بأيديهم فى زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزالوا فيها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قومًا من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى ﷺ بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشَّرهم بالظفر عليهم فنكلوا وعصوا أمره، فعوقبوا بالذهاب فى التيه، والتمادى فى سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد، مدة أربعين عامًا عقوبة لهم، على تفريطهم فى أمر الله[١].

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤، ٣٥) بتصرف.

ذكَّرهم بالنعمة
قبل أن يأمرهم بالتكليف

ولكنه (عليه السلام) قبل أن يأمرهم بالتكليف ذكَّرهم بنعم الله عليهم.

قال تعالى مُخبراً عن هذا المشهد المهيب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[1].

أي: كلما قُبض نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده حتى عيسى عليه السلام الذي هو خاتم أنبياء بني إسرائيل ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء من الرسل كافة: محمد بن عبد الله ﷺ.

* وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾[2] قال ابن عباس: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سُمِّي ملكًا.

وقد ورد في الحديث: «من أصبح منكم معافى في جسده، آمنًا

---

(١)، (٢) سورة المائدة: الآية: (٢٠).

في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[2] يعني: عالمي زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم.

* ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾[3] أي: المطهرة - وهي بيت المقدس - ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[4] أي: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنها وراثة من آمن منكم، ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾[5] أي: لا تنكلوا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾[6] أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة قومًا جبارين أهل قوة هائلة شديدة، فلا نقدر على حربهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٠٤٢).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٢٠).

(٣)، (٤)، (٥) سورة المائدة: الآية: (٢١).

(٦) سورة المائدة: الآيتان: (٢١، ٢٢).

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾(١) أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله، ومتابعة رسول الله ﷺ، حرضهم رجلان - لله عليهما نعمة عظيمة -، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه، ويقال إنهما يوشع بن نون، وكالب ابن يوفنا.. فقالا: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٢) أي: إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم، ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم، فلم ينفع ذلك فيهم شيئًا ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(٣) وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم ﷺ(٤).

فلما نكل بنو إسرائيل عن القتال، غضب عليهم موسى عليه السلام وقال داعيًا عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾(٥) أي: ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله

(١)، (٢) سورة المائدة: الآية: (٢٣).
(٣) سورة المائدة: الآية: (٢٤).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤، ٣٥) بتصرف.
(٥) سورة المائدة: الآية: (٢٥).

ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1] يعني: اقض بيني وبينهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[2].

لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسيرون دائمًا لا يهتدون للخروج منه... وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة.

وأنزلنا عليكم المن والسلوى

وفي فترة التيه امتن الله على بني إسرائيل بنعمه التي لا تُعد ولا تُحصى.

فكان من بين ذلك أنه أرسل لهم الغمام ليظللهم من حر الشمس وأكرمهم بالمن والسلوى والصخرة التي تتفجر منها المياه.

وكانت صخرة صماء تُحمل معهم على دابة فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينًا تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيّد الله بها موسى بن

(١) سورة المائدة: الآية: (٢٥).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٢٦).

عمران . . . وهناك نزلت التوراة وشُرعت لهم الأحكام[(١)].

قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[(٢)].

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾[(٣)] أي: ستَرناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظُّلَّة ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾[(٤)] أي: أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب من غير كدٍّ ولا تعب، والمنُّ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه، والسلوى: طير يشبه السماني لذيذ الطعم ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[(٥)] أي: وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[(٦)] أي: أنهم كفروا هذه النعم الجليلة، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم[(٧)].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[(٨)].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/٣٦).
(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة البقرة: الآية: (٥٧).
(٧) صفوة التفاسير (١/ ٦٠).
(٨) سورة البقرة: الآية: (٦٠).

يُذكِّر الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بنعمته عليهم بإجابة موسى عليه الصلاةُ والسلام حين استسقى لهم فيسَّر الله الماء.

وأخرجه سبحانه لهم من الحجر وفجَّر لهم منه اثنتى عشرة عينًا لكل سبط من أسباطهم عين قد عرفوها. وقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾[1] أى: كلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذى أنبعه الله بلا سعى منكم ولا كدّ، واعبدوا الله الذى سخّر لكم ذلك ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] أى: ولا تقابلوا النعم بالعصيان، فتُسلبوها.

أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير

وما زلنا نرى العجب العُجاب من بنى إسرائيل .. وكيف كان صبر نبى الله موسى عليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٦٠).

فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[1].

يُذَكِّر الله بنى إسرائيل بنعمته فى إنزاله عليهم المن والسلوى طعامًا طيبًا نافعًا.

ورغم ذلك تضجروا من هذا الرزق وهذا الطعام الشهى الجميل واشتاقوا إلى البصل والثوم والفول والعدس.. وكانت كلها أطعمة مصرية بسيطة جدًّا.

فأخذ موسى (عليه السلام) يوضح لهم أنهم بذلك يظلمون أنفسهم لأنهم سيتركون الطعام الشهى ويحنون للأطعمة الرديئة ... وكأنهم يريدون أن يتذكروا أيام الذل والهوان التى عاشوها أيام فرعون.

ولذا قال لهم موسى (عليه السلام): ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[2].

* وقوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾[3] والمعنى: أن اهبطوا

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٦١).

(٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٦١).

مصرًا من الأمصار لا (مصر فرعون) لأن موسى عليه الصلاة والسلام قال لهم: هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز المنال، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوى مع دناءته وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه[1].

قصة الحجر
الذى أخذ ثياب موسى (عليه السلام)

كان موسى عليه السلام شديد الحياء، والحياء خُلق كريم، وكان رسولنا ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها، ومدح الرسول ﷺ الحياء، فقال فيه: **«الحياء خير كله»**[2].

وكان يجوز لبنى إسرائيل أن يغتسل رجالهم عراة، ينظر أحدهم إلى الآخر،... ولشدة حياء موسى كان يغتسل وحده، ولا يُبدى شيئًا من عورته ولا جسده.

وقد أشاع عنه بعض الجهال الذين لا يَسلم من أذاهم أحد، حتى الرسل والأنبياء، فزعموا كذبًا وزورًا أن سبب

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٦١).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦١١٧)، ومسلم (٣٧) واللفظ له.

استتار موسى عنهم وجود عيب في جسده يخفيه.

ولا شك أن هذا القول آذى موسى عليه السلام، والله لا يرضى الأذى لرسوله، وهذه المقالة تضعف الثقة فيمن بعثه الله رسولاً، فالرسل في أعين الناس ونظرهم يجب أن يمثلوا الأنموذج الكامل، الذي لا يخدشه شيء، لا في خَلقه، ولا خُلقه.

وقد شاء الله أن يبرأ موسى مما افتراه عليه المفترون، ورماه به الجاهلون، فقد ذهب موسى عليه السلام يومًا يغتسل وحده كما هي عادته، ووضع ثيابه على حجر، فلما فرغ من غُسله، وجاء ليأخذ ثيابه، طار الحجر بثيابه، وفرَّ بها، والحجر ليس به القدرة على الحركة والطيران، فهو جماد، ولكن الله جعله يطير بطريقة لا نعلمها وذلك لحكمة يريدها، وهي تبرئة موسى مما نُسب إليه.

وأذهلت المفاجأة موسى عليه السلام، فجرى وراء الحجر يناديه، ويقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، والحجر يمضي بثيابه، وهي صورة طريفة، فموسى النبي الكريم، والرجل الحيي الوقور، يجري عريانًا وراء حجر

طائر بثيابه، حتى إذا بلغ الحجر مجمعًا من مجامع بنى إسرائيل ورأوا موسى سليمًا معافى لا عيب فيه، وزالت بذلك الفرية التى رماه بها الجاهلون، وقف الحجر، وتناول موسى ثيابه ولبسها ثم أخذ عصاه وأقبل على الحجر يضربه ضرب الغاضب على الإنسان المتمرد العاق الظالم.

كان موسى يعلم أنه حجر، ولكنه فعل فعلاً لا تفعله الحجارة، ففعل معه فعلاً لا يُفعل بالحجارة، فضربه ضرب المؤدب، ومن العجب أن عصا موسى، وهى من خشب أثرت فى الحجر الصلد القاسى، وتركت به نُدوبًا بعدد الضربات التى نالها من موسى، وفى العادة أن العصى لا تؤثر فى الحجارة، فالحجر أقسى من العصا، وفى كثير من الأحيان تُكسر العصا إن ضربت بها حجرًا، ويَسلم الحجر، ولكن عصا موسى من نوع آخر من العصى جعل الله فيها كثيرًا من الخصائص، ومن ذلك أنها أثرت فى الحجر وأحدثت به ستة ندوب أو سبعة[1].

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ٩٣ ، ٩٤).

وحان وقت الرحيل

ولكل بداية نهاية . . ومهما عاش الإنسان فلا بُد من تلك اللحظة التي يلقى الإنسان فيها ربه ﴿يا أيُّها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلَىٰ ربِّك كدْحًا فمُلاقيه﴾[1] ، ﴿وأنَّ إلَىٰ ربِّك الْمُنتهَىٰ﴾[2] .

بل لقد قال الحق (جل وعلا) لنبيه محمد ﷺ : ﴿إنَّك ميِّتٌ وإنَّهُم ميِّتُون﴾[3] . وقال له : ﴿وما جعلْنا لبشرٍ مِّن قبْلك الْخُلْد أفإن مِّتَّ فهُمُ الْخالدُون (٣٤) كُلُّ نفْسٍ ذائقةُ الْموْت﴾[4] .

* وهنا تنتهي قصة سيدنا موسى (عليه السلام) مع بني إسرائيل وتأتي اللحظة الحاسمة التي يرحل فيها موسى (عليه السلام) من الدنيا للقاء ربه (جل وعلا) .

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد

---

(١) سورة الانشقاق: الآية: (٦).

(٢) سورة النجم: الآية: (٤٢).

(٣) سورة الزمر: الآية: (٣١).

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان: (٣٤، ٣٥).

فقأ عيني. قال: فردَّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل الحياة تريد؟ فإن كنت تُريد الحياةَ فضع يدكَ على متن ثور فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنةً، قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت، قال: فالآن من قريب .. رب أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر»(١).

* وفي رواية قال ﷺ: «كان ملك الموت يأتي الناس عيانًا، قال: فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه، فأتى ربه فقال: يا رب .. عبدك موسى فقأ عيني، ولولا كرامته عليك لعنبت عليه - وفي رواية: لشققت عليه -.

قال له: اذهب إلى عبدي، وقل له فليضع يده على جلد - أو مسك ثور - فله بكل شعرة وارت يده سنة، فأتاه فقال له، فقال: ما بعد هذا؟ قال: الموت. قال: فالآن. قال: فشمه شمة فقبض روحه»(٢).

* وها هو ﷺ يخبر أنه رأى موسى (عليه السلام) وهو يصلي في قبره.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما أسري بي

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢) واللفظ له.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٠٥٢١)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣٢٧٩).

مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر»[1].

وأما سؤاله الإدناء من الأرض المقدسة، فلشرفها وفضيلة من فيها من المدفونين من الأنبياء وغيرهم.

قال بعض العلماء: وإنما سأل الإدناء ولم يسأل نفس بيت المقدس، لأنه خاف أن يكون قبره مشهورًا عندهم فيفتتن به الناس. وفي هذا استحباب الدفن في المواضع الفاضلة، والمواطن المباركة، والقرب من مدافن الصالحين، والله أعلم[2].

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن المسلم لا ينبغي عليه أن يشدد على نفسه .. فلقد رأينا كيف أن الله لما أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ليأخذوا جزءًا منها فيضربوا به جسد المقتول ليعرفوا مَنْ القاتل .. فلو أنهم ذبحوا أي بقرة لحصل المقصود ولكنهم شددوا فشدد عليهم.

(٢) أن برِ الوالدين ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة.. فلقد رأينا كيف أن هذا الشاب الذي كان بارًا بوالده باع البقرة التي كانوا يبحثون عنها بملء جلدها ذهبًا .. هذا غير ثوابه في الآخرة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٧٥).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٨٦).

(٣) أن المسلم ينبغى أن يرد العلم إلى الله لأن الله أعلم بمقادير العباد ولذا عتب الله على موسى (عليه السلام) لما سُئل: هل هناك على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله؟ فقال: لا.

(٤) الحرص على الرحلة لطلب العلم من سمات الصادقين فى طلب العلم .. فلقد رحل موسى (عليه السلام) ليطلب العلم من الخضر (عليه السلام).

(٥) لا بد لطالب العلم أن يكون متواضعًا مع شيخه لينال بركة علمه وليفوز بحبه وقُربه .. وعلى طالب العلم أن يطلب العلم لآخر لحظة فى حياته.

(٦) أن المسلم قد ينسى بعض الأشياء المهمة .. ويكون ذلك النسيان بسبب الشيطان فهو العدو الذى لا يريد الخير لمسلم أبدًا.

(٧) أنه قد يرى الإنسان أشياءً عجيبة لكن الله (عز وجل) له فيها حكمة جليلة قد تخفى على أعلم الناس وأقربهم إلى الله .. كما حدث عندما خرق الخضر السفينة وقتل الغلام وبنى الجدار لأهل القرية البخلاء فلما تعجب نبى الله موسى أخبره الخضر بعد ذلك بحكمة الله فى تلك

الأمور التى علمها من الله (جل وعلا) من خلال الوحى.

(٨) أن الله يحفظ الأبناء بصلاح الآباء فلقد رأينا كيف قام موسى والخضر (عليهما السلام) ببناء جدار الغلامين اليتيمين ليحفظا لهما كنزهما وكان السبب فى ذلك ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾(١).

(٩) أن كل من رفض أن يمتثل لأمر الله فإن الله (عز وجل) يعاقبه فى الدنيا والآخرة .. ولقد رأينا كيف أن بنى إسرائيل لما رفضوا أن يدخلوا الأرض المقدسة ليطهروها من دنس هؤلاء الجبارين الذين احتلوها كتب الله عليهم التيه أربعين سنة يتيهون فى الأرض لا يدرون إلى أين يذهبون ولا كيف يخرجون من التيه.

(١٠) إن الله يدافع عن الذين آمنوا .. ولقد رأينا كيف سخر الله (عز وجل) الحجر ليأخذ ثياب موسى (عليه السلام) ليمر أمام بنى إسرائيل فيرون جسده سليمًا ليس فيه عيوب وينتهى بذلك كذبهم فقد كانوا يزعمون أن موسى (عليه السلام) به عيوب فى جسده.

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٨٢).

قصة يوشع بن نون (عليه السلام)

كان ياما كان . .

كان هناك فتى صغير يعيش مع نبي الله موسى (عليه السلام)، وفي يوم من الأيام قام نبي الله موسى خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: أي رب ومن لي به؟ قال: تأخذ حوتًا فتجعله في مكتل، حيثما فقدت الحوت فهو ثَم، وأخذ حوتًا فجعله في مكتل ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون . .»[(١)].

* فكان هذا الفتى هو يوشع بن نون الذي صحب موسى عليه السلام في تلك الرحلة المباركة لطلب العلم. . وكان موسى (عليه السلام) يُعده ويربيه ويعلمه ففاز يوشع (عليه السلام) بصحبته وجنى الثمرات الكثيرة من ورائها.

(١) صحيح: رواه البخاري (١ - ٣٤) أحاديث الأنبياء.

بنو إسرائيل ينقضون العهد مع موسى (عليه السلام)

كان الله قد أمر موسى أن يُجند بنى إسرائيل وأن يجعل عليهم نُقباء، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[1] .

وهكذا ترى العهد مشروطًا بميثاق أخذه الله عليهم، أن يقاتلوا ولا يفروا، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا برسله كلهم.

ولكن كعهد اليهود دائمًا .. خونة، وأصحاب مصالح، لا يوفون بعهد الله أبدًا، فقد أنكروا، وغيروا، ورفضوا الوفاء بالعهد، وكذبوا الأنبياء وهم يعلمون[2] .

* لقد رفضوا أن يدخلوا مع نبى الله موسى (عليه السلام) لما أراد أن يحرر بيت المقدس من أيدى الجبابرة.

---

(١) سورة المائدة: الآية: (١٢).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٢٣٧).

يوشع يتولى الحكم والنبوة بعد موسى (عليهما السلام)

* توفى هارون (عليه السلام) ثم توفى موسى (عليه السلام) بعده بثلاث سنوات وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام، نبيًا خليفةً عن موسى بن عمران ومات أكثر بنى إسرائيل هناك فى تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب .. فلما انقضت المدة، خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقى منهم وبسائر الجيل الثانى، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر(١).

النبى ﷺ يصف لنا كيف فتح يوشع (عليه السلام) بيت المقدس

* ولقد وصف النبى ﷺ لنا وصفًا دقيقًا عن كيفية فتح يوشع (عليه السلام) لبيت المقدس.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦).

* لقد حرص نبى الله يوشع عند انطلاقته لفتح المدينة التى يقصدها على أن يكون جيشه قويًا متماسكًا، ولذلك أخرج من جيشه المقاتلين الذين قد يكونون سببًا فى الهزيمة، لانشغال قلوبهم إنشغالاً كبيرًا بمسائل الدنيا التى لا يستطيعون التخلص من إعمال قلوبهم وعقولهم بشأنها، فقد استثنى ثلاثة أصناف من المقاتلين وأمرهم بعدم الخروج معه.

الصنف الأول: الذى عقد نكاحه، ولم يدخل بزوجته، ولا شك أن هذا الصنف يكون متعلقًا قلبه بزوجه أشد التعلق، وبخاصة إذا كان فى مرحلة الشباب.

والصنف الثانى: المشغول ببناء لم يُكمل بناءه بعد.

والثالث: الذى اشترى غنمًا أو نُوقًا حوامل وهو ينتظر أن تلد أو تُنتج.

إن المبدأ الذى اعتمده هذا النبى يدل على أنه قائد فذ، صاحب نظرية فى قيادة الجيوش وإعدادها للقتال الذى يكون به النصر، .. إن الجيوش لا تنتصر بكثرة عددها، بل بالنوعية التى تقاتل، فالنوعية أهم من العدد والكمية.

ولذا أخرج من جيشه المشغولى القلوب، الذين يكونون

فى أرض المعركة وقلوبهم معلقة بالزوجة التى سيدخل بها، أو البناء الذى سيسكنه، أو الماشية والأنعام التى ستلد وتنتج[1].

يوشع (عليه السلام) يخاطب الشمس

خرج يوشع بجيشه متـجهًا إلى القرية التى يريد غزوها، فدنا من القرية فى عصر ذلك اليـوم، ومعنى ذلك أن فرصته فى فتح المدينة ليست قوية، لأن القتال فى الليل ليس سهلاً، وقد يكون ذلك اليوم يوم الجمعة، وعليه أن يوقف القتال إذا غربت الشمس، لأن دخـول الليل يعنى دخول يوم السبت، والقتال مُحرَّم على بنى إسرائيل فى يوم السبت، ومعنى ذلك أنه سيعود عن الـقرية قبل فتحها، وهذا سـيعطى أهل القرية فرصة لتقوية جيـشهم، وإصلاح أسوارهم، وإعداد المزيد من السلاح، فتوجه يوشع إلى الشمس مخـاطبًا لهـا قائلاً: إنك مـأمورة، وأنا مـأمـور، ثم دعـا ربه قـائلاً: اللهم احبسها علينا، . . . واستجاب

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١١٥).

الله دعاءه، فأخَّر الغروب حتى تم النصر[1].

* وفى ذلك بقول الحبيب المصطفى ﷺ: «ما حُبِست الشمس على بشرٍ قط إلا على يوشع بن نون ليالى سار إلى بيت المقدس»[2].

من تواضع لله رفعه الله

قال ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله».

* فإنه لما دخل يوشع (عليه السلام) فاتحًا منتصرًا أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا مدينة بيت المقدس سُجداً - أى: رُكّعًا متواضعين - شاكرين الله عز وجل على ما منَّ به عليهم من الفتح العظيم الذى كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم: (حِطة) أى: حُط عنا خطايانا التى سلفت، من نكولنا الذى تقدم منا.

* ولهذا دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها، دخلها وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر، ثم لما دخلها

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١١٦).

(٢) صحيح: رواه الخطيب البغدادى وأحمد عن أبى هريرة وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦١٢).

اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر على النصر.

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أُمروا به قولاً وفعلاً، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة، وفي رواية: حنطة في شعرة.

الجزاء من جنس العمل

ولم تكن هذه الجريمة هي أول جرائم بني إسرائيل ولا آخر جرائمهم، فقد عذبوا رسلهم كثيراً بعد موسى (عليه السلام)، وتحولت التوراة بين أيديهم إلى قراطيس يُبدون بعضها ويخفون أكثرها، وامتد هذا اللعب إلى العقيدة، وأخبر الله سبحانه عنهم بهذا فقال عز وجل: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[(١)].

عاد بنو إسرائيل إلى ظلمهم لأنفسهم، اعتقدوا أنهم

(١) سورة الأنعام: الآية: (٩١).

شعب الله المختار، وتصوروا انطلاقًا من هذا الاعتقاد أن من حقهم ارتكاب أى شيء وكل شيء، وعظمت فيهم الأخطاء وتكاثرت الخطايا وامتدت الجرائم بعد كتابهم إلى أنبيائهم، فقتلوا مَن قتلوا من الأنبياء، وقست قلوبهم حتى عميت، وتطاول عليهم الزمن فقالوا: قلوبنا غُلف، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

تسليط الملوك الجبارين عليهم

فسلط الله عز وجل عليهم بعد رحمة الأنبياء قسوة الملوك الجبارين، يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلط الله عز وجل أعداءهم عليهم ومكّن لهم من رقابهم وأموالهم.

وكان معهم تابوت الميثاق، وهو تابوت يضم بقية مما ترك موسى وهارون، ويقال: إنه هذا التابوت كان يضم ما بقي من ألواح التوراة التى أُنزلت على موسى (عليه السلام)

(١) سورة النساء: الآية: (١٥٥).

ونجت من يد الظالمين منهم والمفترين، وكان لهذا التابوت بركة تمتد إلى حياتهم وحروبهم، فكان وجود التابوت بينهم في الحرب، يمدهم بالسكينة والثبات، ويدفعهم إلى النصر، فلما ظلموا أنفسهم ورُفعت التوراة من قلوبهم لم يعد هناك معنى لبقاء نسختها معهم، وهكذا ضاع منهم تابوت العهد، وضاع في حرب من حروبهم التي هُزموا فيها.

وهنا.. مات نبي الله يوشع بن نون، ذلك القائد الفذ الرباني الذي استطاع بالإخلاص أن يقود بني إسرائيل إلى نصر كان عزيزًا أن يحققوه..[1].

وحان وقت الرحيل

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة حتى قبضه الله إليه، وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة، فكانت مدة حياته بعد موسى سبعًا وعشرين سنة[2].

(١) ابن الإسلام (ص: ٢٣٩ ، ٢٤٠) باختصار.
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٤٩٠).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) إذا أردنا أن نُنشئ أولادنا نشأة طيبة فلا بد أن نجعلهم فى صحبة الصالحين من أهل العلم ليربوهم تربية إيمانية تجعلهم بعد ذلك رجالاً صالحين ينفع الله بهم البلاد والعباد.

فقد رأينا كيف تربى نبى الله يوشع بين يدى نبى الله موسى (عليهما السلام) فكان بعد ذلك نبيًّا خليفة على بنى إسرائيل.

(٢) أن قائد الجيش لا بد أن يبحث عن الجندى الذى يريد أن يبذل نفسه وماله لله .. أما الجندى الذى ينشغل بحطام الدنيا فإنه يكون نقطة ضعف فى الجيش وقد يكون من أسباب الهزيمة ولذلك اشترط عليهم يوشع (عليه السلام) ألا يخرج معه أحد مشغول بشىء من الدنيا.

(٣) أن اليقين والثقة فى الله من أعظم أسباب النصر، فقد رأينا كيف أن يوشع (عليه السلام) نظر إلى الشمس بكل يقين وتوكل وثقة فى الله وسأل الله أن يحبس له الشمس فلا تغرب حتى يفتح بيت المقدس فحبس الله له

الشمس حتى فتح بيت المقدس.

(٤) أن الله (عز وجل) يؤيد الأنبياء بالمعجزات التي تعينهم على تبليغ دعوتهم ونشر دين الحق بين الناس .. فنحن نعلم أن حبس الشمس بلا غروب ليس أمرًا عاديًا بل كان معجزة من الله لنبيه يوشع (عليه السلام).

(٥) أن من تواضع لله رفعه الله (جل وعلا).

فقد رأينا كيف أن يوشع (عليه السلام) لما دخل فاتحًا منتصرًا أمر بني إسرائيل أن يدخلوا مدينة بيت المقدس سُجدًا متواضعين شاكرين لله (جل وعلا).

(٦) أن البغي والظلم والكبر والخروج عن أمر الله سبب لجلب سخط الله وعذابه فقد رأينا كيف أن بني إسرائيل لما بغوا وتكبروا وظلموا وقتلوا الأنبياء سلط الله عليهم قسوة الملوك الجبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم.

❋ ❋ ❋

قصة داود (عليه السلام)

كان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقًا كثيرًا، وأخذوا منهم بلادًا كثيرة، وكانوا لا يقاتلهم أحد إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذى كان فى قديم الزمان.

وكان ذلك موروثًا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام. فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعضُ الملوك فى بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوى الذى يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قُتل. فأخذوها فحبسوها فى بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلامًا يكون نبيًا لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن

يرزقها غلامًا، فاستجاب الله لها، ووهبها غلامًا، فسمته شمويل أي: سمع الله دعائي ومنهم من يقول: شمعون وهو بمعناه، فأنبته الله نباتًا حسنًا، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل[1].

* وكان قد حكم بني إسرائيل ملك ظالم اسمه جالوت، ولما زاد ظلمه وكثر طغيانه، ويئس بنو إسرائيل من صلاحه، طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم قائدًا ليقاتلوا الملك الظالم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه، ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[2] أي: وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[3] أي: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم[4].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٤١١).

(٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٢٤٦).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٤١١، ٤١٢).

الله يصطفى طالوت ملكًا

فأوحى الله إليه أنه قد بعث طالوت ملكًا على بنى إسرائيل ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾[1].

فتعجب الناس وقالوا: كيف يكون ملكًا علينا وهو ليس من أبناء أسرة يهوذا التى يخرج منها الملوك.

فأخبرهم أن الأمر ليس بيده وإنما هو اختيار الله (جل وعلا) وكذلك فإن الله زاده بسطة فى العلم والجسم فقد أعطاه الله العلم والقوة.

فقالوا له: وما هى آية مُلكه؟ - أى علامة مُلكه -.

فقال لهم نبيهم: آية ذلك أنه سيرجع لكم التابوت تحمله الملائكة مرة أخرى بعد أن ضاع منكم سنوات طويلة.

آية ملكه أن يأتيكم التابوت

* ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾[2] أى علامة مُلكه واصطفائه عليكم ﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾[3] أى يرد الله

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٤٦).

(٢)، (٣) سورة البقرة: الآية: (٢٤٨).

إليكم التابوت الذى أخذ منكم، وهو صندوق التوراة الذى كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه فكانت تسكن نفوس بنى إسرائيل ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾[1] أى: فى التابوت السكون والطمأنينة والوقار وفيه أيضًا بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهى عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التى كُتبت فيها التوراة تحمله الملائكة.

* جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] أى: إن فى نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكًا عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر[3].

ابتلاء وتمحيص

وتجهز طالوت لحرب جالوت وجنوده وأخذ الجيش وخرج لملاقاة جالوت .. فلما سار الجيش مسافات طويلة

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٢٤٨).

(٣) صفوة التفاسير (١/ ١٥٧ ، ١٥٨) بتصرف.

أحسوا بالعطش فأراد طالوت أن يختبرهم فأخبرهم أنهم سيمرون بعد قليل على نهر بين الأردن وفلسطين اسمه نهر الشريعة فمن شرب من النهر حتى يرتوى فليذهب ولا يجاهد معنا لأننا نريد رجالاً يتحملون الجوع والعطش ويصبرون على الجهاد فى سبيل الله .. وأما من أخذ شربة يسيرة يبل بها ريقه فلا بأس بذلك.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ (١).

* فشرب أكثر الجنود ولم يصبروا على العطش وخرجوا من الجيش ولم يبق إلا القليل .. فقد كان عدد الجيش ثمانين ألفًا فشربوا جميعًا ولم يبق منهم إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فقط لكنهم جميعًا من الصابرين الأقوياء الشجعان.

* وهنا أصبح عدد الجيش قليلاً جدًا وكان جيش العدو كبيرًا فأحس بعض أفراد الجيش الذين صبروا مع طالوت أنهم أضعف بكثير من جالوت وجيشه وقالوا:

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٤٩).

﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾[1].

لكن الفئة القليلة الثابتة أيقنوا أن النصر ليس بالعدد والعتاد وإنما النصر من عند الله (جل وعلا) فقالوا لطالوت: امضِ لسبيلك فإنا - إن شاء الله - سوف ننتصر عليهم ولو كان عددنا قليلاً ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

داود (عليه السلام) يقتل جالوت

والتقى الجيشان.. جيش الإيمان وعلى رأسه طالوت.. وجيش الطغيان وعلى رأسه جالوت.

فما كان من الفئة القليلة المؤمنة التي ثبتت مع طالوت إلا أن توجهوا بالدعاء إلى فاطر السماوات والأرض طالبين منه أن يرزقهم الصبر والثبات والنصر على الأعداء.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[3].

---

(١)، (٢) سورة البقرة: الآية: (٢٤٩).

(٣) سورة البقرة: الآية: (٢٥٠).

* وهنا برز جالوت الملك الظالم وهو يلبس دروعه الحديدية ومعه سلاحه وبدأ يطلب منهم أن يُخرجوا له رجلاً يبارزه فخاف كل الجنود الذين كانوا مع طالوت.

* وهنا برز من جيش طالوت غلام صغير كان يرعى الغنم اسمه داود (عليه السلام) وكان مؤمنًا بالله وكان يعلم يقينًا أن القوة ليست هى قوة السلاح أو الجسد وإنما هى قوة الإيمان واليقين والثقة فى الله (جل وعلا).

* وكان طالوت الملك قد وعد أفراد الجيش أن من استطاع منهم أن يقتل جالوت فإنه سيجعله قائدًا على الجيش ويزوجه ابنته.

ولم يكن داود يهتم كثيراً لهذا الإغراء، كان يريد أن يقتل جالوت؛ لأن جالوت رجل جبار وظالم ولا يؤمن بالله، وسمح الملك لداود أن يبارز جالوت.

وتقدم داود بعصاه وخمسة أحجار ومقلاعه (وهو نبلة يستخدمها الرعاة) وتقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع، وسخر من داود وأهانه وضحك منه ومن فقره وضعفه، ووضع داود حجراً قويًا فى مقلاعه وطوح به فى الهواء وأطلق الحجر،

فأصاب جالوت فقتله، وكانت مفاجأة مذهلة للجيشين.

وبدأت المعركة وانتصر جيش طالوت على جيش جالوت، بعد أن استغفر الجيش كله الله، ودعوه سبحانه وتوسلوا إليه وذلوا له، فنصرهم وقهر عدوهم[1].

وأصبح داود (عليه السلام) ملكًا لبني إسرائيل

وكما قلنا: إن طالوت كان قد وعد داود (عليه السلام) إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويُشركه في أمره فلما قتل داود جالوت وفَّى له طالوت بما وعده وجعله قائدًا على الجيش .. ثم أصبح داود (عليه السلام) بعد ذلك ملكًا على بني إسرائيل فجمع الله له بين الملك والنبوة.

شكره وعبادته لله (جل وعلا)

كان داود (عليه السلام) جميل الخَلق والخُلق وله قلب طاهر نقي، جمع الله له بين الملك والنبوة.

(١) ابن الإسلام (ص: ٢٤٤).

وكان الله (عز وجل) قد أنزل عليه كتابًا مقدسًا وهو (الزبور) .. وكان كثير الذكر والتسبيح والعبادة والصلاة وكان ورعًا تقيًا.

كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل أو النهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي[1].

* وكان (عليه السلام) يقوم الليل ويصوم نصف الدهر كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «**أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سُدسه**»[2].

* **وقال ﷺ: «كان داود أعبد البشر»**[3].

صاحب الصوت الجميل

وكان داود (عليه السلام) قد أنعم الله عليه بصوت في

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩).

(٣) حسن: رواه الترمذي (٣٤٩٠) وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٤٥٣).

غاية الحُسن والجمال فكان إذا قرأ بصوته الجميل فى الزبور سمعته الجبال والطيور فتُسبح معه فى الليل والنهار.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1].

﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[2].

كان الله تعالى قد وهب داود - عليه الصلاة والسلام - من الصوت الجميل ما لم يُعطه أحدًا بحيث إنه كان إذا ترنَّم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يُرجِّع بترجيعه ويردد، ويُسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه، كلما سبَّح بُكرة وعشيًا.

وقال عبد الله بن عامر: أعطى داود من حسن الصوت ما لم يُعط أحد قط، حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا، وحتى إن الأنهار لتقف.

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٧٩).

(٢) سورة سبأ: الآية: (١٠).

خفف الله عليه قراءة القرآن

فكان مع جمال صوته الذي وهبه الله إياه .. كان يقرأ الزبور بسرعة لا تخطر على قلب بشر وذلك لأن الله (عز وجل) خففه عليه.

* قال ﷺ: «خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتُسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده»[1]. - والمقصود بالقرآن هنا: الزبور -.

بكاؤه (عليه السلام)

إنه داود البكَّاء الأوَّاب الذي ما أكل طعامًا إلا بلَّه بدموعه، وما شرب قدحًا إلا مزجه بدموعه، .. داود - عليه الصلاة والسلام - الذي كان يقول: أوه.. من عذاب الله، أوه قبل ألاَّ تنفع أوه، يا ربّ! إني لا أستطيع حرّ شمسك فكيف أستطيع حر نارك؟ يا ربّ! إني لا أستطيع سماع صوت رحمتك - وهو الرعد- فكيف أستطيع سماع صوت غضبك؟

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٤١٧).

داود (عليه السلام) .. وصناعة الدروع

وفي ذلك العصر كانت الحروب كثيرة، وكانت الدروع الحديدية التي يصنعها صُنَّاع الدروع ثقيلة ولا تجعل المحارب حرًا يستطيع أن يتحرك كما يشاء أو يقاتل كما يريد، فقام داود عليه السلام بصناعة نوعية جديدة من الدروع، درع يتكون من حلقات حديدية تسمح للمحارب بحرية الحركة، وتحمي جسده من السيوف والفؤوس والخناجر، أفضل من الدروع الموجودة أيامها، . . . لقد ألان الله لداود الحديد: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[(١)] .

كانت يده تغوص في الحديد فيقطعه ويشكله في قطع صغيرة يصلها ببعضها البعض، ليصنعه دروعًا خفيفة غير مرهقة جعلت جيشه ينتصر بفضل الله في كل المعارك التي خاضها، وكان يصنع الدروع ويبيعها، ليعيش من ثمنها.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[(٢)(٣)] .

---

(١) سورة سبأ: الآيتان: (١٠، ١١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٠).

(٣) ابن الإسلام (ص: ٢٤٥).

وكان يستغنى بثمن الدروع التى يصنعها عن الراتب من بيت مال المسلمين، فقيل: إنه كان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم، يتصدق بثلثها ويشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوميًا إلى أن يعمل غيرها[1].

وشددنا ملكه

قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[2].

لقد جعل الله مُلكه قويًا بكثرة العدد والعُدد وأمده بالنصر والتأييد وجعله منصورًا على أعدائه دائمًا حتى أن أعداءه كانوا يخافون منه فى وقت الحرب بل وفى وقت السلم.

وفوق ذلك فقد أعطاه الله (جل وعلا) الحكمة.

أى: النبوة والكلام الطيب الذى يحض على مكارم الأخلاق والآداب.. وكذلك آتاه فصل الخطاب فكان يستطيع أن يميز بين الحق والباطل ولذلك كان يقضى بين الناس ويحكم بينهم بالعدل.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٢٦).
(٢) سورة ص: الآية: (٢٠).

* فكان داود (عليه السلام) يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس. ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحًا لله في المحراب. وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث

لقد كان داود (عليه السلام) يجلس بين الناس فيذكرهم بالله (جل وعلا) ويحل لهم مشاكلهم ويقضي بينهم في الخصومات التي تحدث بينهم.

* وذات يوم كان يجلس في مجلسه وجاءه بعض الناس ليحكم بينهم في خصومة حدثت بينهم.. فتعالوا بنا لنرى كيف قضى فيها نبي الله داود (عليه السلام)، ثم قضى فيها ابنه سليمان (عليه السلام) بحكم آخر فوافق داود على حكمه.

* فتعالوا بنا لنعرف هذه القصة:

أقبلت غنم ليلاً على مزرعة ولم يكن معها راعيها فأفسدت الزرع، وأتت عليه، فاحتكم أصحاب المزرعة

إلى دواد قائلين: يا نبي الله! إنا حرثنا أرضنا وزرعناها وتعهدناها حتى إذا آن أوان حصادها جاءت غنم هؤلاء القوم ليلاً فانتشرت في زرعنا وأكلته حتى لم يبق منه شيء، فقال داود لأصحاب الغنم: أحقًا ما يقول هؤلاء؟ قالوا: نعم، فقال لأصحاب المزرعة كم تقدرون ثمنًا لزرعكم؟ فذكروا له الثمن فقال لأصحاب الغنم: كم تقدرون ثمنًا لأغنامكم؟ فقدروه بثمن ما، فلما رأى داود الثمنين متقاربين قال لأصحاب الغنم: ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضًا لهم عن زرعهم.

ولكن ابنه سليمان كان حاضرًا يشهد هذه المحاكمة فابتدر أباه قائلاً: لي رأى في هذه القضية، وهو أن يدفع أصحاب الغنم أغنامهم إلى أصحاب المزرعة فينتفع هؤلاء بأصوافها وألبانها ونتاجها، وأن يأخذ أصحاب الغنم المزرعة فيحرثوها ويزرعوها ويسقوها ويتعهدوها حتى يستوى الزرع، فإذا حان وقت حصاده سلموا المزرعة إلى أصحابها وتسلموا منهم أغنامهم، فرضى الجميع بهذا الحكم، وقال داود: وُفِّقت يا بني بهذا الحكم، وحكم بما أفتى به سليمان، وهذا ما أشار إليه القرآن: ﴿وداود

وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[(١)(٢)] .

وهذه قضية أخرى

وفى يوم من الأيام كان داود (عليه السلام) جالسًا فى محرابه يتعبد ويصلى وفجأة فوجئ بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه، ففزع منهما. فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يطمئنانه. ﴿قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾[(٣)] .. وجئنا للتقاضى أمامك ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[(٤)] .

قال أحد الرجلين: لا تخف يا سيدى، بينى وبين هذا الرجل خصومة وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق.

سأل داود عليه السلام: ما القضية؟!

قال الرجل الأول: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[(٥)] .

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان: (٧٨، ٧٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٣٢٥ ، ٣٢٦) بتصرف.
(٣)، (٤) سورة ص: الآية: (٢٢).
(٥) سورة ص: الآية: (٢٣).

وقال داود عليه السلام بغير أن يسمع رأى الطرف الآخر، وحجته: ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ [١] وإن كثيرًا من الشركاء يظلم بعضهم بعضًا إلا الذين آمنوا، فحكم بظلم الطرف الآخر دون أن يسمع منه.

وفوجئ داود عليه السلام باختفاء الرجلين من أمامه، اختفى الرجلان كما لو كانا سحابة تبخرت فى الجو، وأدرك داود عليه السلام أن الرجلين ملكان أرسلهما الله إليه ليُعلماه درسًا، فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس إلا إذا سمع أقوالهم جميعًا، فربما كان صاحب التسع والتسعين نعجة معه الحق، . . . وخرَّ داود راكعًا، وسجد لله، واستغفر ربه.

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [٢][٣].

وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب

وظل داود يستغفر ربه (جل وعلا) حتى غفر الله له وأثنى عليه فى قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى

(١) سورة ص: الآية: (٢٤).
(٢) سورة ص: الآية: (٢٤).
(٣) ابن الإسلام (ص: ٢٤٧).

وَحُسْنَ مَآب ﴾[1].

* ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآب ﴾[2] يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول الله: يا داود! مَجِّدْنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى فى الدنيا، فيقول: وكيف وقد سلبته منى؟ فيقول: إنى أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود صوته الجميل ليزداد نعيم أهل الجنان.

كما كان أعبد الناس فى الدنيا، وكما كان يمجده فى الدنيا، فكذا اليوم يمجده على منبر من نور مع نعيم القرب والزلفى.

وفاة داود (عليه السلام)

* قد تقدم فى ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال: أى ربِّ! .. من هذا؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أى ربِّ! .. كم عمره؟ قال: ستون عامًا قال: أى ربِّ! .. زد فى عمره قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف عام

---

(١)، (٢) سورة ص: الآية: (٢٥).

فزاده أربعين عامًا فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال: بقى من عمرى أربعون سنة ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة[1].

* وها هى قصة وفاته (عليه السلام):

* لقد خرج داود فى ذلك اليوم من داره كما كان يخرج فى كل يوم، وكان فيه غيرة شديدة، ولذا فإن الأبواب تُقفل بعد خروجه، فلا يدخل على أهله بعد خروجه أحد، فلما خرج فى ذلك اليوم أقبلت امرأته تطلع على دارها، وتتفقد أحوالها، فوجدت رجلاً قائمًا فى وسط الدار، فعجبت من أمره، وكيفية دخوله، مع أن الدار مغلقة أبوابها بإحكام وسألت أهل منزلها وخدمها عن كيفية دخوله الدار، وخشيت من غضب داود إذا رجع فوجد رجلاً فى داره.

فلم يمض وقت طويل حتى جاء داود... والرجل على حاله فى الدار غير خائف.. وعادة الرجال أن يفزعوا من مقابلة الملوك، ويحذروا من الدخول عليهم فى منازلهم.

وسأل داود ذلك الرجل عن نفسه، فوصف نفسه وصفًا

(١) قصص الأنبياء (ص: ٥٤٤).

عرفه به داود، فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك، ولا أُمنع من الحجاب، فعرفه داود بنعته نفسه، وقال: أنت والله إذن ملك الموت، مرحبًا بأمر الله، ثم مكث حتى قُبضت روحه.

وأخبرنا نبينا ﷺ أنه لما غُسِّل وكُفِّن وفُرغ من تجهيزه طلعت عليه الشمس، فأمر سليمان الطير أن تُظله بأجنحتها، فأظلته وأظلت مُشيعيه، فكان لا ينفذ إلى المشيعين شيء من أشعة الشمس، حتى أظلمت الأرض، عند ذلك أمر سليمان الطير أن تقبض جناحًا، وقد أراهم الرسول ﷺ مُمثلاً بيديه كيف قبضت الطيور بأجنحتها، كما أخبرهم أن الصقور الطويلة الجناح، وهى التى سماها الرسول ﷺ بالمضرحية، غلبت غيرها فى التظليل على داود فى ذلك اليوم[1].

❋ ❋ ❋

(١) صحيح القصص النبوى (ص: ١٤١).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن المؤمن إذا وعد وعدًا فلا بد أن يفى بعهده .

(٢) أن الله يصطفى من يشاء من عباده . . فقد رأينا كيف أن الله اصطفى طالوت من بين هؤلاء الناس جميعًا ليكون ملكًا عليهم . . وزاده بسطة فى العلم والجسم .

(٣) أن العبرة فى الجهاد ليس بكثرة الجنود ولكن بنوعيتهم فقد يكون العدد كبيرًا ولا يثبتوا بل يفروا من أرض الشرف والجهاد . . وقد يكون العدد قليلاً ويثبتوا ولا يفروا . . ولذلك اختبر طالوت جنوده قبل أن يخوض المعركة .

(٤) أن النصر ليس بكثرة العدد والعتاد وإنما بقوة الإيمان والعقيدة . . ومن ثَمَّ فإن النصر من عند الله وحده (جل وعلا) .

(٥) من عاش على طاعة الله فإن الله يحبه ويُلقى محبته فى الكون كله . . فقد رأينا كيف كان الكون كله يحب داود (عليه السلام) .

(٦) أن العبد لا بد أن يستعمل نعم الله عليه فى كل

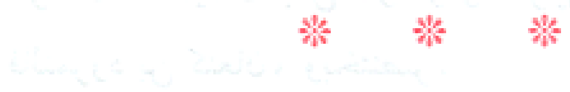
ما ينفعه في دينه ودنياه . . وقد رأينا كيف كان داود (عليه السلام) يبذل كل جهده في الصيام والقيام والتسبيح وصناعة الدروع وغير ذلك مما ينفعه في دينه ودنياه.

(٧) أن القاضي لا ينبغي أن يحكم بين اثنين إلا إذا استمع لهما حتى يستطيع أن يحكم بالعدل دون ميل إلى الآخر.

(٨) عليك أن تقبل الحق والنصح من أي إنسان ولو كان أصغر منك سنًا فقد قبل داود حكم سليمان رغم صغر سنه (عليهما السلام).

(٩) المسلم لا بد أن يكون غيورًا على نسائه كما كان داود (عليه السلام) غيورًا على نسائه.

(١٠) أن الله يكرم العبد الصالح عند موته فقد رأينا كيف ظللت الطير فوق داود (عليه السلام) عند موته حتى لا تؤذيه الشمس.



قصة سليمان (عليه السلام)

وتعالوا بنا لنتعرف على نبي الله سليمان (عليه السلام) قبل أن نبدأ في سرد قصته المباركة.

هو سليمان بن داود من سبط يهوذا بن يعقوب، وينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما داود فقد أعطاه الله الزبور كما قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾[1]، وجمع له سبحانه وتعالى بين النبوة والملك، وأعطاه خيري الدنيا والآخرة، فكان نبيًّا ملكًا كما كان ولده سليمان عليه السلام.

وقد كان نبي الله سليمان عليه السلام عظيم الحكمة، ولذلك يسميه أهل الكتاب «سليمان الحكيم» ولا يلقبونه بالنبي أصلاً.

قال مجاهد: مَلَكَ الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: فسليمان ابن داود وذو القرنين، وأما الكافران: فالنمرود بن كنعان، وبختنصر.

(١) سورة الإسراء: الآية: (٥٥).

وورث سليمان داود (عليهما السلام)

قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[1].

أي: ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال، لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخصه بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**»[2] وفي لفظ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**» فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباءهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضّلهم.

❋ ❋ ❋

(١) سورة النمل: الآية: (١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٨).

بعض الأشياء التى سخرها الله لنبيه سليمان (عليه السلام)

لقد طلب سليمان (عليه السلام) من الله (جل و علا) أن يهب له مُلكًا لا يكون لأحدٍ من بعده أبدًا فاستجاب الله له ووهبه مُلكًا لم يُعطه لأحد من بعده.

* ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[1].

فها هو (عليه السلام) يسأل الله (عز وجل) مُلكًا لا يكون لأحد من بعده من البشر وقد أعطاه الله ذلك كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

أولاً: معرفة لغة الطيور والحيوانات:

قال تعالى حاكيًا عنه أنه قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾[2] يعنى: أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويُعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[3] أى: من كل ما يحتاج الملك

(١) سورة ص: الآية: (٣٥).
(٢) سورة النمل: الآية: (١٦).
(٣) سورة النمل: الآية: (١٦).

إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾(١)

أى: من بارئ البريات وخالق الأرض والسموات.

ثانيًا: تسخير الجن لسليمان (عليه السلام):

ومن بين تلك النعم التى أنعم الله بها على نبيه سليمان (عليه السلام) تسخير الجن .. قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾(٣).

أى: منهم ما هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة، التى لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون فى البحار، يستخرجون ما فيها من

(١) سورة النمل: الآية: (١٦).
(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٢).
(٣) سورة ص: الآية: (٣٧).

اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة، التى لا توجد إلا فيها.

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾[1] أى: موثوقون فى الأغلال والأكبال، ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى.

* وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[2]

أى: سخر له الجن فدانوا له يسخرهم بإذن الله لما يشاء من عمل البنايات.

والجن ولد إبليس، كما أن الإنس من ولد آدم ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون، وهم شركاء فى الثواب والعقاب، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنًا فهو ولى الله تعالى، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرًا فهو شيطان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾[3] أى: ومن يعدل من الجن عن أمرنا له ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[4] وهو الحريق. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن

---

(١) سورة ص: الآية: (٣٨).

(٢) سورة سبأ: الآية: (١٢).

(٣)، (٤) سورة سبأ: الآية: (١٢).

مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾[1] أما المحاريب فهي المساجد وأما التماثيل فهي الصور وكانت من نحاس وقيل: من طين وزجاج.

وقوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾[2] الجواب هي الأحواض، والقدور الراسيات أي: الثابتات لا تتحرك لعظمها[3].

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[4] أي: وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض، واعملوا بطاعة الله شكرًا له جل وعلا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[5] أي: وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه[6].

ثالثًا: تسخير الريح لسليمان (عليه السلام):

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

لما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له

(١)، (٢) سورة سبأ: الآية: (١٣).
(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).
(٤)، (٥) سورة سبأ: الآية: (١٣).
(٦) القرطبي (١٤/ ٢٧٧).

الريح، يسير على متنها حيث أراد[١].

قال تعالى: ﴿ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا..﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ولِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ..﴾[٣].

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوّضه الله منها الريح التى هى أسرع سيرًا وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[٤] أى: حيث أراد من أى البلاد، كان له بساط مُرُكَّب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجن، وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفرًا أو مستنزهًا أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح

(١) روضة المحبين (ص: ٤٤٣).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨١).

(٣) سورة سبأ: الآية: (١٢).

(٤) سورة ص: الآية: (٣٦).

فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به، فإذا أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أي مكان شاء، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس[(١)].

رابعًا: إسالة النحاس لسليمان (عليه السلام):

ومن بين النعم التي أنعم الله (عز وجل) بها على نبيه سليمان (عليه السلام) تلك النعمة التي ذكرها في قوله:

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾[(٢)].

أي: وأذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض.

قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان لداود الحديد، . . . آية باهرة، ومعجزة ظاهرة.

خامسًا: أعطاه جيشًا من الجن والإنس والطير:

لقد أخبر الحق (جل وعلا) عن المُلك العظيم الذي وهبه

(١) قصص الأنبياء (ص: ٤٦٢).

(٢) سورة سبأ: الآية: (١٢).

لنبيه الكريم سليمان (عليه السلام) فقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1].

أي: جُمِعت له جيوشه وعساكره وأُحضرت له فى مسيرة كبيرة فيها طوائف الجن والإنس والطير، يتقدمهم سليمان فى أبَّهة وعظمة كبيرة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: فهم يُكَفُّون ويُمنعون عن التقدم بين يديه[2].

سادسًا: آتاه الله العلم والحكمة:

فلقد أتاه الله العلم والحكمة فكان فى غاية الفطنة والذكاء.

وها هى قصة عجيبة تدل على فطنة وذكاء نبى الله سليمان (عليه السلام).

عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ، قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال:

(١) سورة النمل: الآية: (١٧).
(٢) الطبرى (١٩/ ٨٨).

ائتونى بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى»(١).

* وقعت هذه القصة فى عهد نبى الله داود عليه السلام، فقد تحاكمت إليه امرأتان، ذهب الذئب بولد إحداهما، فتنازعتا فى الولد الآخر، كل واحدة تدَّعى أنه ولدها، فاجتهد نبى الله داود فى الحكم بينهما، فأداه اجتهاده بالحكم به للكبرى بدلائل استدل بها على ذلك.

فلما خرجتا على نبى الله سليمان رأى أن يستخدم معهما طريقة يستطيع من خلالها أن يعرف الأم الحقيقية، فطلب ممن حوله أن يأتوه بسكين ليشق الغلام بينهما نصفين، فيعطى كل واحدة منهما نصفًا، وبذا يعدل بينهما فى الحكم، وقد ظنت المرأتان أن سليمان جاد وعازم على تحقيق هذا الحكم، وهنا ظهر رد فعل كل واحدة منهما، فالأم الحقيقية، وهى الصغرى جزعت من الحكم؛ لأن فيه هلاك ولدها، فطابت نفسها به للأخرى، لأن فى ذلك بقاءه وحياته، وإن كان فيه حرمانها من رعايته وتربيته، أما الأخرى التى لا تربطها

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٢٧) أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٢٠) الأقضية.

بالطفل رابطة الأمومة، فإنها قبلت بالحكم الذى أظهره سليمان، فاستدل سليمان بذلك على الأم الحقيقية، فحكم لها بالطفل، على الرغم من إقرارها به للأخرى.

مروره على وادى النمل

وها هو (عليه السلام) يمر على وادى النمل ومعه هذا الموكب العظيم من الجن والإنس والطير.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1][2].

لقد سار الموكب. موكب سليمان من الجن والإنس والطير فى ترتيب ونظام، يجمع آخره على أوله، تضم صفوفه، وتتلاءم خُطاه. حتى إذا أتوا على وادٍ كثير النمل، قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح فى

(١) سورة النمل: الآية: (١٨).

(٢) وأذكر هنا قصة لطيفة وهى أنه: اعترض رجلٌ الخليفة المأمون العباسى واستوقفه ليعرض عليه مسألته، فلم يقف له، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! إن الله استوقف سليمان بن داود عليهما السلام لنملة ليستمع إليها، وما أنا عند الله بأحقر من النملة وما أنت عند الله بأعظم من سليمان، فقال له المأمون: صدقت، ووقف، وسمع منه، وقضى حاجته.

الوادى - ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تتنوع فيها الوظائف، وتؤدى كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالبًا عن اتباع مثله، على ما أوتوا من عقل راقٍ وإدراك عالٍ - قالت هذه النملة للنمل، بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل، وباللغة المتعارفة بينها. قالت للنمل: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾(1) كى ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (2) بكم.

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهشَّ له وانشرح صدره بإدراك ما قالت، وبمضمون ما قالت.

وانشرح صدره لإدراكه. فهى نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز. وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك. وأن يفهم عنها النمل فيطيع!

أدرك سليمان هذا ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾(3) .. وسرعان ما هزته هذه المشاهدة، وردَّت قلبه إلى ربه الذى أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة، وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه؛ واتجه إلى ربه فى

(1)، (2) سورة النمل: الآية: (18).

(3) سورة النمل: الآية: (19).

إنابة يتوسل إليه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾[1].

﴿رَبِّ﴾ .. بهذا النداء القريب المباشر المتصل ..

﴿أَوْزِعْنِي﴾ اجمعني كلِّي .. اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وقلبي وخواطري وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي اجمعني كُلي .. اجمع طاقاتي كلها أولها على آخرها وآخرها على أولها لتكون كلها في شكر نعمتك عليَّ وعلى والديَّ.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾[2] .. فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويوفقه على شكر نعمته، يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه. وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله.

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[3] .. أدخلني برحمتك .. فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين، رحمة من الله، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح،

(1)، (2)، (3) سورة النمل: الآية: (19).

فيسلك فى عداد الصالحين . يعلم هذا، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين فى هذا الرعيل[1] .

قصة سليمان (عليه السلام) مع الهدهد

وفى يوم من الأيام أراد سليمان (عليه السلام) أن يتفقد أحوال الجيش وإذا به يفاجأ بغياب الهدهد . . وقد كان سليمان (عليه السلام) يستخدم الهدهد فى البحث عن الماء فقد أودع الله فى الهدهد قوة وقدرة عجيبة وهى أنه يستطيع أن يرى الماء الذى يوجد تحت الأرض بمسافات كبيرة فإذا رآها أمر سليمان جنوده من الشياطين فحفروا فى نفس المكان حتى يستخرجوا الماء الذى يحتاجون إليه .

لكن الهدهد فى هذا اليوم بالذات لم يجده سليمان (عليه السلام) فى مكانه الذى أمره أن يبقى فيه ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾[2] .

وغضب سليمان (عليه السلام) غضبًا شديدًا، فقال :

---

(١) الظلال (٥/ ٢٦٣٦).

(٢) سورة النمل : الآية: (٢٠).

﴿ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ﴾[1].

ولكن سليمان ليس ملكًا جبارًا فى الأرض، إنما هو نبى.

وهو لم يسمع بعد حُجة الهدهد الغائب، فلا ينبغى أن يقضى فى شأنه قضاء نهائيًّا قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره. ومن ثَمَّ تبرز سمة النبى العادل: ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾[2] أى: حجة قوية توضح عذره، وتنفى المؤاخذة عنه.

ويُسدل الستار على هذا المشهد الأول فى القصة ويحضر الهدهد .. ومعه نبأ عظيم، بل مفاجأة ضخمة لسليمان[3].

وجاء الهدهد من سبإٍ بنبإٍ عجيب

قال تعالى: ﴿ فمكث غير بعيد ﴾[4] أى: غاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها وكان الهدهد فى قمة الذكاء ولذلك فإنه لما عاد وعلم أن سليمان (عليه السلام) قد غضب عليه فأراد أن يبدأ حديثه معه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته وتضمن إصغاء الملك له فقال له:

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (٢١).

(٣) الظلال (٥/ ٢٦٣٨).

(٤) سورة النمل: الآية: (٢٢).

﴿ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾[١] .

﴿أحطت بما لم تحط به﴾[٢] أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾[٣] أي: بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن. . . ثم قال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾[٤] وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وكانت بأرض يقال لها: مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثنى عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل. . . والله أعلم.

﴿وأوتيت من كل شيء﴾[٥] أي: ما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ولها عرش عظيم﴾[٦] هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ تجلس عليه، ولها ستمائة امرأة تلي الخدمة.

* ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾[٧] .

أي: وجدتهم جميعًا مجوسًا يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾[٨] أي:

(١)، (٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٢٢).

(٤) سورة النمل: الآية: (٢٢).

(٥)، (٦) سورة النمل: الآية: (٢٣).

(٧)، (٨) سورة النمل: الآية: (٢٤).

حسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها فن دون الله ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾[1] أى: فنعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾[2] أى: فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده، ثم قال الهدهد فتعجبًا: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3] أى: أيسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم، الذى يعلم الخفايا ويعلم كل فخبوء فى العالم العلوى والسفلى؟

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[4] أى: ويعلم السرَّ والعلن، ما ظهر وما بطن ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[5] أى: وهو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال، ربُّ العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود، وخصَّ العرش بالذكر؛ لأنه أعظم

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (٢٤).
(٣) سورة النمل: الآية: (٢٥).
(٤) سورة النمل: الآية: (٢٥).
(٥) سورة النمل: الآية: (٢٦).

المخلوقات، . . . وإلى هنا انتهى كلام الهدهد [١].

ولا يتسرع سليمان فى تصديقه أو تكذيبه، ولا يستخفه النبأ العظيم الذى جاءه به.

إنما يأخذ فى تجربته، للتأكد من صحته. شأن النبى العادل والملك الحازم: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[٢].

ولا يعلن فى هذا الموقف محتوى الكتاب، فيظل ما فيه مغلقًا كالكتاب نفسه، حتى يُفتح ويُعلن هناك وتُعرض المفاجأة فى موعدها المناسب!

ويُسدل الستار على هذا المشهد ليُرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب، وهى تستشير الملأ من قومها فى هذا الأمر الخطير[٣].

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٤٠٧).
(٢) سورة النمل: الآيتان: (٢٧، ٢٨).
(٣) الظلال (٥/ ٢٦٣٩) بتصرف.

الهدهد يذهب بكتاب سليمان (عليه السلام)

فحمل الهدهد الكتاب، ثم سار إلى بلقيس، فألقاه بقصرها فى «مأرب» فطرح الكتاب أمامها، فتلقفته وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[١].

أى: لا تستكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أى: وأقدموا علىَّ سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة.

لقد حمل الهدهد الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ثم توقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن الكتاب[٢].

بلقيس تستشير وزراءها وأكابر دولتها

لما وصل كتاب سليمان (عليه السلام) إلى بلقيس ملكة سبأ قررت بلقيس عقد جلسة طارئة مع وزرائها وأكابر

(١) سورة النمل: الآيتان: (٣٠، ٣١).
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٥٥٣).

دولتها لترى رأيهم فى هذا الكتاب وماذا تصنع.

جلست بلقيس على عرشها المزخرف بالذهب والجواهر واللآلئ وجلس حولها أكابر قومها وفتحت لهم كتاب سليمان (عليه السلام) وهى فى غاية الخوف والاضطراب وقرأت عليهم مضمون الكتاب.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(١).

هذا هو نص خطاب الملك سليمان عليه السلام لملكة سبأ..

إنه يأمرها فى خطابه أن تأتيه ومن معها مسلمين، هكذا مباشرة، إنه يتجاوز أمر عبادتهم للشمس، ولا يناقشهم فى فساد عقيدتهم، ولا يحاول إقناعهم بشىء الآن، إنما يأمر فحسب، أليس مؤيدًا بقوة تسند الحق الذى يؤمن به؟ بلى. عليه إذن أن يأمرهم بالتسليم .. وفورًا.

كان هذا كله واضحًا من لهجة الخطاب القصيرة القوية المهذبة فى نفس الوقت..

---

(١) سورة النمل: الآيات: (٢٩- ٣١).

طرحت الملكة على رؤساء قومها الرسالة، وكانت عاقلة تشاورهم في جميع الأمور: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[1].

كان رد فعل الملأ وهم رؤساء قومها التحدى، أثارت الرسالة بلهجتها القوية المهذبة غرور القوم، وإحساسهم بالقوة، أدركوا أن هناك من يتحداهم ويلوح لهم بالحرب والهزيمة ويطالبهم بقبول شروطه قبل وقوع الحرب والهزيمة.

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[2].

اغتروا بقوتهم وظنوا أن الأمر تحدٍّ للقوة والاستطاعة، وظنوا أن هذا ما تسألهم عنه؛ فطمأنوها أن بأسهم شديد..

أراد رؤساء قومها أن يقولوا: نحن على استعداد للحرب، ... ومن العجب أن تجد المرأة تستشيرهم، ولكنك تجد من تعوَّد الخضوع والخنوع والذل والمهانة لا يستطيع أن يُحكِّم رأيه، فإنهم في النهاية يقولون: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾[3]،

(١) سورة النمل: الآية: (٣٢).
(٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٣).

﴿ مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾[1]، إنه والله العجب من هؤلاء الذين رُوِّضوا على الذل فلم يعودوا يأنفون منه بل يطلبونه.

ويبدو أن الملكة كانت أكثر حكمة من رؤساء قومها، فإن رسالة سليمان أثارت تفكيرها أكثر مما استفزتها للحرب.

فكرت الملكة طويلاً فى رسالة سليمان عليه السلام، كان اسمه مجهولاً لديها، لم تسمع به من قبل، وبالتالى كانت تجهل كل شيء عن قوته، ربما يكون قويًا إلى الحد الذى يستطيع فيه غزو مملكتها وهزيمتها.

ونظرت الملكة حولها فرأت ضعف من حولها حتى آثروا الذل: ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾[2] ﴿ مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾[3]، ورأت كذلك تقدم شعبها وثرائه، وخشيت على هذا الثراء والتقدم والترف الذى تعيش ويعيشون فيه من الغزو، ورجحت الحكمة فى نفسها على التهور، وقررت أن تلجأ إلى اللين، وترسل إليه بهدية، فإن قَبِلَ الهدية فهو ملك يريد ثروات الدنيا، وكأنها كانت تريد أن تمتحن سليمان وتعرف مراده.

وقدرت فى نفسها أنه ربما يكون طامعًا قد سمع عن

(١)، (٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٣).

ثراء المملكة فطمع فيها، فحدثت نفسها بأن تهادنه وتشترى السلام منه بهدية، . . . قدرت فى نفسها أيضًا أن إرسالها بهدية إليه، سيُمكّن رسلها الذين يحملون الهدية من دخول مملكته، وسيكون رسلها عيونًا فى مملكته، يرجعون بأخبار قومه وجيشه، وفى ضوء هذه المعلومات، سيكون تقدير موقفها الحقيقى منه ممكنًا.

أخفت الملكة ما يدور فى نفسها، وحدثت رؤساء قومها بأنها ترى استكشاف نيات الملك سليمان، عن طريق إرسال هدية إليه، انتصرت الملكة للرأى الذى يقضى بالانتظار والترقب، وأقنعت رؤساء قومها بنبذ فكرة الحرب مؤقتًا؛ لأن الملوك إذا دخلوا قرية انقلبت أوضاعها وصار رؤساؤها هم أكثر من فيها تعرضًا للهوان والذل.

واقتنع رؤساء قومها حين لوَّحت الملكة بما يتهددهم من أخطار: ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[1][2].

---

(١) سورة النمل: الآية: (٣٤، ٣٥).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

وصول رسل بلقيس بهدية سليمان (عليه السلام)

وأرسلت بلقيس رسلها بهدية قيِّمة إلى سليمان (عليه السلام) وجاءت الأخبار إلى سليمان (عليه السلام) بأن بلقيس قد أرسلت إليه رسلها بهدية قيمة فعلم سليمان (عليه السلام) بذكائه وفطنته أن هذه الملكة أرسلت رجالها ليعرفوا مدى قوته وقوة جيشه الذى معه لينقلوا تلك الأخبار إلى بلقيس فتقرر بعدها موقفها بشأنه إذا كانت ستأتى مسلمة أم أنها ستحاربه.

وهكذا لا يستطيع إنسان مهما بلغت درجة ذكائه أن يغلب نبيًّا من الأنبياء فهم جميعًا أصحاب فطنة وذكاء ومعهم فوق ذلك الوحى الإلهى.

* وعلى الفور نادى سليمان (عليه السلام) على أفراد الجيش ليجتمع ويحتشد فيكون سببًا فى إلقاء الرعب فى قلوبهم.

* ودخل رسل بلقيس ومعهم الهدية القيمة وسط غابة كثيفة من الجيش المدجج بالسلاح .. ونظروا إلى مملكة سليمان (عليه السلام) فعلموا أن مُلك بلقيس لا يساوى شيئًا أمام مُلك

سليمان (عليه السلام) حتى إنهم لما رأوا ذلك احتقروا هدية بلقيس وفكروا أن يرجعوا بها مرة أخرى مع أنها هدية ثمينة.

* بل فوجئوا بأن في الجيش نمورًا وأسودًا وطيورًا وأدركوا أنهم أمام جيش لا يستطيع أى جيش أن يقف أو يصمد أمامه.

* وفى تلك اللحظة قاموا وقدموا لسليمان (عليه السلام) هدية الملكة بلقيس على استحياء شديد.

* ثم أخبروه بأنهم يرفضون الخضوع له والدخول فى الإسلام ولكنهم أيضًا لا يريدون القتال .. وأن هذه الهدية علامة صلح بينهم وأنهم يودون أن يقبلها.

* فنظر سليمان (عليه السلام) إلى هذه الهدية بغضب وقال: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾[1].

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾[2] أتقدمون لى هذا العرض التافه الرخيص؟ ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾[3] لقد آتانى من المال خيرًا مما لديكم ولقد آتانى ما هو خير من المال على

(١)، (٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٦).

الإطلاق: العلم والنبوة، وتسخير الجن والطير، فما عاد شيء من عرض الأرض يفرحني ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[1] وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعني أهل الأرض، الذين لا يتصلون بالله، ولا يتلقون هداياه!

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾[2] بالهدية وانتظروا المصير المرهوب: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾[3][4].

أي: فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[5] عليهم الصغار والعار والدمار.

ويُسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل، ويدعهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قُضي الأمر وانتهى الكلام في هذا الشأن.

* * *

(١) سورة النمل: الآية: (٣٦).

(٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٧).

(٤) الظلال (٥/ ٢٦٤٠).

(٥) سورة النمل: الآية: (٣٧).

إحضار عرش بلقيس

فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئًا... وبعثت إليه: إني قادمة إليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه وكان من ذهب ولؤلؤ وزبرجد فجُعل في سبعة أبيات بعضها في بعض وأوصت بحفظه ثم ذهبت إلى سليمان في اثني عشر ألف، - قيل: من ملوك اليمن - وكانت الجن تأتي لسليمان بأخبار بلقيس كل يوم وليلة حتى إذا قربت جمع مَن عنده من الجن والإنس فقال: ﴿يا أيها الْمَلأُ أيُكم يأتيني بعرشها قَبْلَ أن يأتوني مُسْلمين﴾[1] فكره أن يأخذه بعد إسلامهم قبل أن تحرم عليه دماؤهم وأموالهم ﴿قَالَ عفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾[2] أي: مارد منهم ﴿أَنَا آتيكَ به قَبْلَ أن تَقُومَ من مَّقَامكَ﴾[3] أي: من مجلسك أي من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿وَإِنِّي عَلَيْه

(١) سورة النمل: الآية: (٣٨).

(٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٣٩).

لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[١] أى: قوى على حمله أمين على ما فيه من الجواهر فأراد سليمان أعجل من ذلك إظهاراً لعظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذى لم يعط أحد من قبله ولا يكون لأحد من بعد، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن الإتيان بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه أمر خارق عظيم لاسيما وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾[٢] وهو آصف كاتب سليمان وكان صدِّيقًا يعلم اسم الله الأعظم ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[٣] فلم يشعر سليمان إلا وعرشها يُحمل بين يديه[٤].

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾[٥] أى: فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[٦] أى: هذا من فضل الله علىّ وفضله على عباده

(١) سورة النمل: الآية: (٣٩).

(٢)، (٣) سورة النمل: الآية: (٤٠).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٤ - ٣٦٥).

(٥)، (٦) سورة النمل: الآية: (٤٠).

ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾(١) أى: إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٢) أى: غنى عن شكر الشاكرين ولا يتضرر بكفر الكافرين(٣).

من تواضع لله رفعه الله (جل وعلا)

لقد كانت المسافة بين مجلس سليمان (عليه السلام) فى فلسطين وبين عرش ملكة سبأ فى اليمن تُقدر بآلاف الأميال ومع ذلك جيء بالعرش فى غمضة عين .. فيا تُرى كيف كان رد فعل نبى الله سليمان (عليه السلام).

إنه لم يفرح بقدرته ولم يشمخ بهذا الإنجاز الكبير وإنما تواضع لربه (جل وعلا) ونسب الفضل إليه (جل جلاله) وشكره على تلك النعمة العظيمة.

﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٤).

---

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (٤٠).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٥٥٦).

(٤) سورة النمل: الآية: (٤٠).

مفاجأة ضخمة لبلقيس

نظر سليمان (عليه السلام) إلى عرش بلقيس ثم أمر بتغيير بعض معالمه وإجراء بعض التعديلات عليه ليمتحن بلقيس حين تأتي ويرى هل ستعرف عرشها أم أنها لن تستطيع أن تعرفه بعد إجراء تلك التعديلات.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾[1].

وقفت بلقيس تنظر وتتأمل عرشها بعد إجراء هذه التعديلات عليه وهي مترددة في أن تقول هو عرشها أو تقول: ليس هو عرشها.

فكانت في غاية الذكاء فردّت ردًا ذكيًا ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾[2].

وهذا من فطنتها وغزارة فهمها، لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها تركته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحدًا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب.

قال الله تعالى إخبارًا عن سليمان وقومه: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾[3] أي: ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد

(١)، (٢) سورة النمل: الآية: (٤٢).
(٣) سورة النمل: الآيتان: (٤٢، ٤٣).

لها هى وقومها من دون الله اتباعًا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك[1].

وها هى تعلن إسلامها لرب العالمين

وأمر سليمان جنوده أن يبنوا قصرًا رائعًا يُبهر الأبصار ويُذهب العقول لتعرف بلقيس أن مُلكها لا يساوى أى شيء أمام مُلك سليمان المؤيَّد من الله (جل وعلا).

اختار سليمان (عليه السلام) مكانًا رائعًا على البحر وأمر جنوده ببناء القصر فى هذا المكان بحيث يقع معظم القصر داخل مياه البحر.

وأمر أن تكون أرضية القصر من الزجاج الصلب الشفاف بحيث يسير السائر فوقه فيرى الأسماك ودواب البحر تسير وتسبح تحت قدميه.

* وتم بناء القصر بإتقان عجيب حتى أن السائر فوق الزجاج لم يعرف أنه زجاج.

* فلما جاءت بلقيس أُمرت بدخول الصرح وسليمان

(١) قصص الأنبياء (ص: ٥٥٦) بتصرف.

جالس على سريره فيه ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1][2].

* لقد كانت المفاجأة قصرًا من البلور، أقيمت أرضيته فوق الماء. وظهر كأنه لُجة - ماء كثير - فلما قيل لها: ادخلى الصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة، فكشفت عن ساقيها؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾!

أي: قصر مُملَّس من زجاج شفاف.

ووقفت الملكة مدهوشة أمام هذه العجائب التى تُعجز البشر، وتدل على أن سليمان مُسخَّر له قوى أكبر من طاقة البشر، فرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره. معلنة إسلامها ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾[3] لا لسليمان. ولكن ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

لقد اهتدى قلبها واستنار. فعرفت أن الإسلام لله ليس

(١) سورة النمل: الآية: (٤٤).
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٥٥٦).
(٣)، (٤) سورة النمل: الآية: (٤٤).

استسلامًا لأحد من خلقه، ولو كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين. ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة .. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

وسجّل السياق القرآني هذه اللفتة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله، لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله رب العالمين .. على قدم المساواة(٢).

* لقد وقفت منبهرة أمام أرضية القصر البلورية الشفافة التي تسبح تحتها الأسماك، اعترفت بلقيس بظلمها لنفسها وأسلمت ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣)، وتابعها قومها على الإسلام.

أدركت أنها تواجه أعظم ملوك الأرض، وأحد أنبياء الله الكرام، وهكذا قادها الانبهار إلى تحطيم الغرور والاستسلام لله رب العالمين.

---

(١) سورة النمل: الآية: (٤٤).

(٢) الظلال (٥/ ٢٦٤٣).

(٣) سورة النمل: الآية: (٤٤).

قصة سليمان (عليه السلام) مع الخيل

كان سليمان (عليه السلام) يحب الصلاة حبًّا جمًّا .. ولا عجب فى ذلك فكل الأنبياء كانوا يحبون الصلاة حتى إن نبينا ﷺ كان يقول: «**وجُعلت قرة عينى فى الصلاة**»[(١)].

وكان سليمان (عليه السلام) يحب الخيل كثيرًا وكان يُعدها للجهاد فى سبيل الله وكان يحب من الخيل (الصافنات) وهى: التى تقف على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة وهى من علامات خفته وكريم أصله وهى من أجود أنواع الخيول وأسرعها.

* وفى يوم من الأيام بدأ استعراض هذه الخيول الجميلة أمام سليمان (عليه السلام) وكان ذلك قرب وقت العصر فأخذ ينظر إليها ويستمتع برؤيتها وهى تمشى أمامه فى خفة ورشاقة حتى شغله النظر إلى الخيول عن صلاة العصر فحزن سليمان (عليه السلام) حزنًا شديدًا على فوات وقت صلاة العصر مع أنه لم يتعمد تركها بل تركها نسيانًا منه (عليه السلام).

---

(١) حسن: رواه النسائى (٣٩٤٠)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى المشكاة (٥٢٦١).



فأمر الجنود بأن يردوا إليه الخيول مرة أخرى وقال: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾(١).

* قالوا: إنه أخذ يمسح عليها ويستغفر الله (جل وعلا) على فوات وقت صلاة العصر.

* وقال آخرون: إنه ذبحها كلها، وقال: والله لا تشغلينى أبدًا عن عبادة ربى..

* فإن تعجبت يا بُنى لماذا ذبحها؟! أقول لك: إنه كان جائزًا فى شريعة سليمان (عليه السلام) ذبح الخيل وأكلها.. وهو هنا ذبحها تقربًا إلى الله (عز وجل) لأنها شغلته عن صلاة العصر ولذلك لما فعل ذلك أبدله الله خيرًا منها فسخَّر له الريح عاصفة تجرى بأمره إلى أى مكان يريده.

---

(١) سورة ص: الآية: (٣٣).

نبى الله سليمان يُرزق بنصف إنسان

ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة .. سبعمائة بمهور وثلاثمائة سرارى، وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء، وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرًا عظيمًا جدًا.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلامًا يضرب بالسيف فى سبيل الله. ولم يقل إن شاء الله، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت له نصف إنسان» فقال رسول الله ﷺ : «لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة غلامًا يضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل».

وفى رواية: فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده، لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركًا لحاجته»[1]. وفى رواية: «ولقاتلوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون»[2].

(١) دركًا لحاجته: دركًا أي: لحاقًا، أي: كان سبب إدراكه لها.
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٢٠)، ومسلم (١٦٥٤).

وهذا هو تفسير فتنة سليمان (عليه السلام)

قال الإمام الشنقيطى - رحمه الله - تعليقًا على هذا الحديث:

فإذا علمت هذا، فاعلم أن هذا الحديث الصحيح بيَّن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا...﴾[1].

وأن فتنة سليمان كانت بسبب تركه قول: «إن شاء الله» وأنه لم يلد من تلك النساء إلا واحدة (نصف إنسان) وأن ذلك الجسد الذى هو نصف إنسان هو الذى أُلقى على كرسيه بعد موته... وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا...﴾[2] الآية، فما يذكره المفسرون فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ..﴾[3] الآية، من قصة الشيطان الذى أخذ الخاتم وجلس على كرسى سليمان، وطرد سليمان من ملكه، حتى وجد الخاتم فى بطن السمكة التى أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطرودًا عن ملكه، إلى آخر القصة، لا يخفى أنه باطل لا

(١)، (٢)، (٣) سورة ص: الآية: (٣٤).

أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهو من الإسرائيليات.

سليمان (عليه السلام) ..
وتجديد بيت المقدس

ولقد قام سليمان (عليه السلام) بتجديد بناء بيت المقدس امتثالاً لأمر الله (عز وجل) .. وكان ذلك بعد توليه الملك بأربع سنوات وأنفق فى سبيل ذلك أموالاً كثيرة وانتهى من بنائه بعد سبع سنين وأقام السور حول مدينة (أورشليم) أى: مدينة القدس.

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثًا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة

سأله حكمًا يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه. فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها»[1].

(١) صحيح: رواه النسائى (٦٩٣)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٠٩٠).

فأما الحكم الذى يوافق حكم الله تعالى فقد أتى الله تعالى عليه وعلى أبيه فى قوله: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[١].

وقد سبق أن ذكرنا تلك القصة فى ثنايا قصة داود (عليه السلام).

* وأما الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده فلقد سخر الله له الريح والجن وعلَّمه منطق الطير.

وحان وقت الرحيل

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾[٢].

لقد عاش سليمان (عليه السلام) حياة كريمة فكان مثالاً رائعًا للعابد الشاكر والحاكم العادل والنبى المجاهد.. إنه قمة تتجلى فى صورة نبى كريم من أنبياء الله (جل وعلا).

(١) سورة الأنبياء: الآيتان: (٧٨ ، ٧٩).
(٢) سورة سبأ: الآية: (١٤).

* ولكن لا بد لكل بداية من نهاية فقد حانت اللحظة التى سيخرج فيها سليمان (عليه السلام) من الدنيا ليلقى ربه (عز وجل) وليلحق بالأنبياء والمرسلين فى جنات النعيم.

* لقد جاء موته منسجمًا مع حياته الفريدة فكان موته فريدًا كحياته.

فلقد كان الجن يعملون لسليمان (عليه السلام) طوال حياته .. وفى يوم من الأيام أمرهم بعملٍ شاقٍ وكان واقفًا متكئًا على عصاه ومات وهو متكئ على تلك العصا ولم يعلم الجن بموته فظلوا سنة كاملة يعملون أمامه لا يفترون لأنه مات وهو ينظر إليهم فلما رآه الجن ظنوا أنه يصلى واستمروا فى عملهم تلك الفترة الطويلة.

فلما جاءت دابة الأرض (الأَرَضة) وأكلت العصا سقط سليمان (عليه السلام) على الأرض بعدما اختل توازنه فأسرع الناس إليه وأسرع الجن إليه وعند ذلك أدركوا أنه قد مات منذ زمن بعيد ولو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا يعملون وهم يظنون أن سليمان (عليه السلام) حى.

فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون عليهم

ولو أنهم يطلعون على الغيب، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله تعالى: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾[(١)] .

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن صلاح الآباء يرثه الأبناء فقد ورث سليمان من أبيه داود (عليهما السلام) العلم والحكمة والفهم والدين.

(٢) أن العبد إذا أنعم الله عليه بنعمة فلا بد أن يستعملها فى طاعة الله وأن يشكر الله عليها . . فأهل الشكر فى مزيد.

(٣) أن العبد المسلم إذا دعا لنفسه فلا بد أن يحرص كل الحرص على الدعاء لوالديه . . وذلك من كمال البر بالوالدين.

(٤) أن المسلم لا بد أن يتحرك لنُصرة دين الله ولدعوة الناس إلى الله (جل وعلا) فها هو الهدهد تحرك لنُصرة دين الله فهل أنت أقل مكانة من الهدهد.

(٥) أن المسلم لا يعاقب أحدًا إلا بعد أن يسمع عذره فلعله يكون معذورًا فلا ينبغى أن يظلمه . . ولقد رأينا

(١) سورة سبأ: الآية: (١٤).

كيف أن سليمان (عليه السلام) لم يعاقب الهدهد على غيابه وانتظر حتى يسمع منه فلما استمع إليه عذره.

(٦) أن الأنبياء لا يعلمون الغيب على الإطلاق وإنما يعرفون بعض الغيبيات التى يُطلعهم الله عليها.

فعلى الرغم من أن المسافة التى كانت بين سليمان (عليه السلام) وبلقيس ملكة سبأ (قصيرة) ومع ذلك لم يعلم بخبرها وخبر قومها إلا من الهدهد.. مع أن الله سخر له الجن والريح.

فهذا دليل واضح على أن الأنبياء - عليهم السلام - لا يعلمون الغيب فكيف يزعم أناسٌ أن الولى الفلانى يعلم الغيب؟!! - والله وحده هو الذى يعلم أولياءه -.

فعلم الغيب لا يعلمه إلا الله (جل وعلا) كما قال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾(١)، بل قالت الملائكة: ﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾(٢).

---

(١) سورة الجن: الآيات: (٢٦ - ٢٨).

(٢) سورة البقرة: الآية: (٣٢).

(٧) أنه لا بد من دعوة الأمم الكافرة قبل محاربتها ولذلك أرسل سليمان (عليه السلام) كتابه إلى بلقيس ملكة سبأ ليدعوها هى وقومها إلى الإسلام ولم يذهب بجيشه لمحاربتها لأن الأصل هو الدعوة وليس الحرب.

(٨) أن الشورى بين الناس تجعل الرأى صائبًا سديدًا وهذا من بركة الألفة والتعاون على البر والتقوى .. وقد أمر الله (جل وعلا) سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ فقال له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [١].

(٩) أنه قد يوجد فى النساء امرأة أعقل وأفضل من كثير من الرجال .. ولقد رأينا كيف كانت بلقيس امرأة عاقلة بل كانت أعقل من وزرائها وأكابر قومها الذين كانوا يظنون أن الحل فى المواجهة والقتال.

(١٠) أن الملوك - فى الغالب - إذا تمكنوا من بلدٍ أفسدوا فيها وجعلوا ملوكها أذل الناس.

(١١) أن المسلم لا يتاجر بدينه ولا يقبل الرشوة أبدًا.. فقد رأينا كيف أن سليمان (عليه السلام) رفض

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٥٩).

هدية بلقيس لأنها كانت فى مقابل السكوت على المنكر الأكبر الذى ترتكبه هى وقومها وهو عبادتهم للشمس من دون الله (جل وعلا).

(١٢) أن الله أعطى الجن قدرات فائقة فى سرعة الانتقال والتشكُّل فى صور مختلفة لكنهم مع ذلك لا يعلمون الغيب ولا يملكون لإنسان نفعًا ولا ضرًا.

(١٣) أن المسلم إذا حدث له أمر يحبه فلا بد أن ينسب الفضل لله (جل وعلا) ولا يغتر أو يصيبه شىء من الكبر والغرور .. فقد رأينا سليمان (عليه السلام) لما جىء له بالعرش ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾(١).

(١٤) أن هدف المسلم هو تعبيد الناس لرب الناس ولذلك لما أسلمت بلقيس وقومها فرح بذلك سليمان (عليه السلام).

(١٥) أن المسلم يحزن إذا شغله أى شىء عن طاعة الله (جل وعلا) .. ولقد رأينا كيف حزن سليمان (عليه السلام) عندما شغلته الخيل عن صلاة العصر.

(١) سورة النمل: الآية: (٤٠).

(١٦) أن المسلم إذا أراد أن يفعل شيئًا فلا بد أن يقدم مشيئة الله (جل وعلا) .. فلقد رأينا كيف أن سليمان (عليه السلام) لما قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلامًا يضرب بالسيف فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله .. فلم تلد منهن إلا امرأة ولدت له نصف إنسان.

(١٧) أن الجن لا يعلمون الغيب .. فقد رأينا كيف أن سليمان (عليه السلام) قد مات أمام الجن ولم يعلموا بموته إلا بعد سنة عندما أكلت الأرَضة عصاه فسقط أمامهم ميتًا (عليه السلام).

❋ ❋ ❋

قصة إلياس (عليه السلام)

كان ياما كان . .

كان هناك نبي كـريم من أنبياء الله (جل وعلا) اسـمه إلياس وهـو أحد أنبيـاء بنى إسرائيل . . وهو إلـياس بن ياسين من نسل هارون أخى موسى (عليهما السلام) .

* أرسله الله نبيًّا إلى أهل مدينة تُسمى (بعلبك) غربى دمشق وكـان أهل هذه المدينة يعبـدون من دون الله صنمًا اسمه (بعل) .

* فأخـذ إلياس (عليه السـلام) يدعوهم إلى التوحـيد مستنكرًا عبادتهم لهذا الصنم الذى يُسمى (بعل) .

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾(1) .

كيف تعبدون هذا الصنم الذى لا ينفع ولا يضر ولا يسمع ولا يبـصر ولا يتكلم ولا يسـمع الدعاء ولا يسـتجيب لكم وتتركون الخالق العظيم (جل وعلا) الذى خلقكم ورزقكم .

---

(1) سورة الصافات: الآيات: (١٢٣ - ١٢٥).

* دعاهم إلى التوحيد وإلى عبادة الخالق (جل وعلا) فكذبوه ورفضوا نعمة التوحيد وأصروا على كفرهم وعنادهم.

* ثم أخذ يُذكرهم مرة أخرى بأنه لا يدعوهم إلى دين غريب بل إنه يدعوهم إلى الدين الذى كان عليه آباؤهم وأجدادهم وهو الإيمان والتوحيد فقال لهم: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾[1].

ولكنهم أصروا أيضًا على كفرهم وعنادهم ورفضوا أن يتركوا عبادة الأصنام.

* وعندما رأوا إصرار سيدنا إلياس (عليه السلام) على الدعوة إلى الله عز وجل حاولوا أن يقتلوه، فهرب منهم واختفى فى كهف بالجبل، ويقال: إن الغربان كانت تحمل إليه طعامه حتى لا يموت جوعًا.

* فلما أصر قوم إلياس على كفرهم وعنادهم توعَّدهم الله بالعذاب فى الدنيا والآخرة فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الصافات: الآية: (١٢٦).
(٢) سورة الصافات: الآية: (١٢٧).

ولكن الله استثنى منهم من آمن مع إلياس فقال تعالى: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾[1].

ومدح الله نبيه إلياس عليه السلام فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وتركنا عليه فى الآخرين (129) سلام على إل ياسين (130) إنا كذلك نجزى المحسنين (131) إنه من عبادنا المؤمنين﴾[2].

لقد أعد الله سبحانه وتعالى له ثوابًا فى الدنيا وهو أن الناس ستذكره دائمًا بالخير وهم يقرؤون القرآن، أما فى الآخرة فهو فى أعلى مكانة مع الرسل والأنبياء.

* * *

(1) سورة الصافات: الآية: (128).

(2) سورة الصافات: الآيات: (129 - 132).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) أن المؤمن مشغول بدعوة الناس إلى عبادة رب العالمين (جل وعلا) ولذا فإنه يغار إذا وجد إنسانًا يعبد غير الله . . ولذلك فإنه يسرع إلى دعوته لعبادة الله وتوحيده وترك ما يعبده من دون الله من تلك الآلهة المزعومة التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر .

(٢) أن أعداء الدين يحاولون إيذاء الدعاة المخلصين . . كما حاول قوم إلياس أن يقتلوه لما دعاهم إلى التوحيد والإيمان . . لكن الله يحفظ الأنبياء وورثة الأنبياء من الدعاة والعلماء ويدبر لهم أمرهم ويحفظهم من كيد أعدائهم .

(٣) أن الله (عز وجل) أعد لعباده المؤمنين ثوابًا عظيمًا في الدنيا بأن يجعل لهم ذكرًا حسنًا بين الناس . . وأعد لهم ثوابًا أعظم في الآخرة بالنعيم المقيم في جنته التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

* * *

قصة اليسع (عليه السلام)

كان ياما كان . .

كان هناك نبي من أنبياء الله (عز وجل) اسمه اليسع (عليه السلام) آتاه الله النبوة بعد نبي الله إلياس (عليه السلام).

قال تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[1].

* قام نبي الله اليسع (عليه السلام) بدعوة الناس من حوله إلى الإيمان والتوحيد وإلى عبادة الله (جل وعلا) . . وكان ذلك بعد موت نبي الله إلياس (عليه السلام).

* ولقد كثرت في زمانه الأحداث والخطايا وكثر الملوك الجبابرة فقتلوا من قتلوا من الأنبياء وشردوا المؤمنين فأخذ اليسع (عليه السلام) يعظهم ويخوفهم من عذاب الله (جل وعلا) ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته.

(١) سورة الأنعام: الآية: (٨٦).

* وتمر الأيام ويموت نبي الله اليسع (عليه السلام) .. فسلط الله (عز وجل) على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب جزاءً على ما فعلوه.

* ولقد أثنى الله (جل وعلا) على نبي الله اليسع فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾[1].

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن كل نبي ما جاء إلا ليدعو الناس إلى التوحيد وإلى عبادة الخالق (جل وعلا).

(٢) أنه لا يخلو زمان من نبي يدعو الناس ويدلهم على طريق الجنة ليفوزوا في دنياهم وآخرتهم.

(٣) أنه لما كان نبينا ﷺ هو خاتم الأنبياء وليس هناك نبي بعده جعل الله علماء هذه الأمة هم ورثة الأنبياء يُبلغون شرع الله وسُنة رسول الله ﷺ للأمة بل وللأمم من حولنا.

* * *

(١) سورة ص: الآية: (٤٨).

قصة زكريا ويحيى (عليهما السلام)

كان ياما كان . .

كان فى بنى إسرائيل فى قديم الزمـان نبى كريم اسمه زكريا (عليـه السلام) وكان يـعيش وحده مع زوجـته فى فلسطين فلم يكن عندهما ولد رغم أنهـما تقدما فى السن ومع ذلك لم ييأس سيدنا زكريـا (عليه السلام) من رحمة الله (جل وعلا) بل كان يدعو دائمًا بأن يرزقه الله الأولاد وكان عنده ثقة ويقين فى الله (جل وعلا).

وكان زكريا (عليه السـلام) يعمل نجارًا فكان يأكل من كسب يده كما كان جده داود (عليه السلام) يعمل ويأكل من عمل يده.

ميلاد مريم

* وكان فى نفس المكان والـزمان الذى يعيش فـيه نبى الله زكـريا (عليـه السلام) كـان هناك عـالم جليل يصلى بالناس اسمه عمران.

وكانت زوجـة عمران - ذلك العالم الكبـير - لا تلد

وكانت أيضًا تشتهى أن يرزقها الله الولد.

وفى يوم من الأيام بينما كانت امرأة عمران تسير فى الحدائق وجدت طائرًا جميلاً يُطعم ابنه الطائر الصغير الجميل طعامًا فى فمه ويسقيه ويأخذه تحت جناحه خوفًا عليه من البرد.. فأحست فى تلك اللحظة بالحنين الشديد إلى الولد لتفعل معه مثلما يفعل هذا الطائر بابنه.

فسقطت دمعة من عينيها وتوجهت إلى الله (عز وجل) وسألته أن يرزقها ولدًا صالحًا ونذرته أن يكون خادمًا لبيت المقدس: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

فاستجاب الله لها وحملت وامتلأ قلبها بالسعادة والفرح والسرور ونذرت ما فى بطنها محررًا لعبادة الله ولخدمة بيت الله (جل وعلا).

* وتمر الأيام ويموت زوجها عمران ذلكم العالم الإمام الجليل ويترك زوجته وهى حامل.

وجاء موعد الولادة.. ووضعت امرأة عمران وهى

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٥).

تتمنى أن يكون المولود ذكرًا ليخدم بيت المقدس لأن الإناث لا تخدم بيت المقدس وإنما كان يخدمه الذكور.

ولكن كانت المفاجأة التى أدخلت الحزن على قلبها أن المولودة كانت أنثى فحزنت امرأة عمران حزنًا شديدًا وجلست تفكر.

هل تصلح هذه الأنثى لخدمة بيت المقدس؟!

هل تصلح هذه الأنثى أن توهب لله وتكون بذلك قد وفَّت بنذرها؟!

وفى نهاية الأمر قررت أن تفى بنذرها لله على الرغم من أن الذكر ليس كالأنثى.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[1].

الله يحفظ مريم وذريتها من الشيطان الرجيم

لقد سمع الله (عز وجل) دعاء امرأة عمران واستجاب لها ورزقها بمولودة جميلة طاهرة.. فلما رأت امرأة

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٦).

عمران ذلك أرادت أن تسأل الله المزيد من فضله ورحمته فلجأت إلى الله أن يعصم ابنتها مريم وذريتها من كيد الشيطان فقالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه»، ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[(٢)(٣)].

زكريا (عليه السلام) يكفل مريم

ولما كان عمران ذلكم العالم الجليل والد مريم قد مات وهي في بطن أمها فقد أراد علماء وشيوخ ذلك الزمان أن يربوا مريم ويكفلوها.

- وكان كل واحد منهم حريص كل الحرص على أن ينال هذا الشرف وذلك بأن يكفل ابنة شيخهم وعالمهم

(١) سورة آل عمران: الآيتان: (٣٦، ٣٧).

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

الجليل وإمامهم عمران.

فقام زكريا (عليه السلام) وقال: أنا أكفلها لأنها قريبتى فزوجتى خالتها وأنا نبى هذه الأمة فأنا أولى الناس بها.

فقال العلماء والشيوخ: ولماذا لا يكفلها أحدنا؟ فنحن أيضًا نحرص على الفوز بهذا الأجر والثواب.

* وفى النهاية اتفقوا جميـعًا على إجراء قُرعة يتم من خلالها اختيار من يكفل مريم .. فمن وقعت عليه القرعة فهو الذى سيكفلها ويربيهـا ويكون له شرف خدمتها حتى تكبر وتخدم بيت المقدس وتتفرغ لعبادة الله (جل وعلا).

* وتمت القرعة .. وذلك بأنهم جـاؤوا بمريم ووضعوها وهى مولودة صغيرة على الأرض ووضعوا إلى جوارها أقلام الذين يرغبون فى كفالتها ثم أحضروا طفلاً صغيرًا وأمروه أن يختار قلمًا من تلك الأقلام الموضوعة بجوار مريم. فما كان من الطفل إلا أنه أخرج قلم زكريا (عليه السلام).

* فاعـترض العلمـاء والشيـوخ وقالوا: نريد أن تكون القرعة ثلاث مرات.

فوافق نبى الله زكريا (عليه السلام).

* وقاموا بإجراء القرعة الثانية وذلك بأن حفر كل واحد منهم اسمه على قلم خشبي وقالوا: نُلقى أقلامنا فى النهر فمن سار قلمه ضد التيار وحده فهو الذى سيكفل مريم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1].

* وألقوا أقلامهم فى النهر فسارت كل الأقلام مع التيار ما عدا قلم زكريا (عليه السلام) فقد سار قلمه وحده ضد التيار.. ومع ذلك لم يقتنعوا وأصروا أن يعملوا القُرعة للمرة الثالثة.

* **وبالفعل أجروا القُرعة للمرة الثالثة وقالوا:** فى هذه المرة الأخيرة سنُلقى أقلامنا فى النهر فمن سار قلمه مع التيار وحده يكفل مريم.

وألقوا الأقلام فسارت كل الأقلام ضد التيار ما عدا قلم زكريا (عليه السلام) فقد سار قلمه مع التيار.. وهنا فقط وافقوا على أن يعطوا مريم لزكريا (عليه السلام) ليكفلها.

* فأخذها زكريا (عليه السلام) ليربيها ويعلمها ويكرمها وهذا من سعادتها، لتقتبس من هذا النبى الكريم

(١) سورة آل عمران: الآية: (٤٤).

العلم النافع والعمل الصالح .

* وأصبح بعد ذلك لها مكان خاص تعيش فيه في المسجد . . محراب تتعبد فيه لله (جل وعلا) فقد أخذت الصلاة والعبادة والذكر كل وقتها .

كرامة الله لمريم

أخذ زكريا (عليه السلام) بعد أن كفل مريم ابنة عمران - يلاحظ تلك العناية الرّبانية لمريم، ويرى كرامة الله لها، كرامة من الله لمريم الصالحة التي تقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، فقد كانت مريم كريمة على الله، إذ اصطفاها الله واختارها على نساء العالمين، وكانت أمًّا لنبي جاء ميلاده معجزة كخلق آدم (عليه السلام) .

* كان لمريم - عليها السَّلام - محراب خاص تتعبد فيه، وكانت لا تغادر مكانها إلا قليلاً، تقضي وقتها كله في عبادة وصلاة، فقد وصلت الصلاة بالمناجاة، والذكر بالشكر والحمد لله عندما تقوم من الليل وأطراف النهار .

* وباعتبار كفالة زكريا لها، كان يزورها في المحراب،

وهذا شيء طبيعي، لكن شيئًا ما كان يُلفت انتباهه ويحرك وجدانه، ويجعله أمام شيء مدهش، إذ كان يجد عند مريم رزقًا من الله، . . . والعجيب في ذلك أن زكريا كان يجد عند مريم فاكهة الشتاء في الصيف، ويجد فاكهة الصيف في الشتاء[1]، . . حقًا إنه لشيء مدهش.

* لم ير ذلك المنظر مرة واحدة، بل تكرر ذلك مرات ومرات، وتكرر المشهد أمام زكريا، عندئذ سألها: من أين يأتيك هذا الرزق؟ وتجيب مريم: من عند الله.

وهذا ما ذكرته الآية الكريمة في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2][3].

* * *

(١) الكامل (١/ ٢٩٩).
(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).
(٣) نساء الأنبياء (ص: ١٨٦، ١٨٧).

تاقت نفس زكريا عليه السلام إلى الولد

فى هذه اللحظة تحركت فى نفس زكريا (عليه السلام) تلك الرغبة القوية فى أن يرزقه الله الذرية الصالحة .. وذلك لما رأى تلك الكرامات التى أكرم الله بها مريم (عليها السلام).

فى هذا الوقت كان زكريا (عليه السلام) شيخًا كبيرًا قد وهن عظمه وضعف وشاب شعره وأحس أنه قد اقترب أجله وكانت زوجته وهى خالة مريم عجوزًا مثله لم تلد قبل ذلك لأنها كانت عقيمًا .. ولكن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون.

* وجاءت اللحظة الحاسمة .. فقد دخل زكريا (عليه السلام) على مريم فى صباح ذلك اليوم فوجد عندها فاكهة ليس هذا أوانها، فسألها زكريا: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾[1]؟

فقالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).
(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[(١)].

فكانت الاستجابة الفورية من فاطر السماوات والأرض الذى لا يُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

كان حرص زكريا على الولد من أجل الدين

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[(٢)].

ولم يكن هدف زكريا (عليه السلام) من دعائه عرض الحياة الدنيا وإنما كان هدفه من دعائه أن يكرمه الله بولد صالح يرث النبوة من بعده، ويحفظ أمر الدين الذى هو من عند الله، وهذا الدين هو تراث آبائه وأجداده من الأنبياء، فقد كان زكريا (عليه السلام) من ذرية يعقوب عليه السلام.

* ولقد أخبر الحق (جل وعلا) عن هذا المشهد الجليل فى كتابه فقال: ﴿كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٨).
(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٨٩).

الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[١][٢].

البشرى بيحيى (عليه السلام)

* لقد كان زكريا (عليه السلام) يخشى أن يضل الناس من بعده إذا لم يبعث الله فيهم نبيًّا فأخذ يدعو بكل صدق وإخلاص أن يرزقه الله ولدًا صالحًا يرث النبوة من بعده ليأخذ بأيدى الناس إلى طاعة الله (جل وعلا).

ثم ترتسم لحظة الاستجابة فى رعاية وعطف ورضى...

فالرب ينادى عبده من الملأ الأعلى: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾[٣] .. ويُعجل له البشرى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ﴾[٤] ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذى بشره به: ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾[٥]. وهو اسم فَذّ غير مسبوق: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[٦][٧].

---

(١) سورة مريم: الآيات: (١ - ٦).
(٢) تفسير القرطبى (١١/ ٧٩)، تفسير ابن كثير (٣/ ١٠٦).
(٣)، (٤)، (٥)، (٦) سورة مريم: الآية: (٧).
(٧) الظلال (٤/ ٢٣٠٢).

فوجئ زكريا بهذه البشرى، أن يكون له ولد لا شبيه له أو مثيل من قبل، أحس زكريا من فرط الفرح باضطراب، تساءل من موضع الدهشة: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[1].

أدهشه أن ينجب وهو شيخ كبير وامرأته عجوز عقيم لا تلد..

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[2].

أفهمته الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله إلا النفاذ، وليس هناك شيء يصعب على الله سبحانه وتعالى، كل شيء يريده يأمره أن يكون فيكون، وقد خلق الله زكريا نفسه من قبل ولم يكن له وجود، وكل شيء يخلقه الله عز وجل بمجرد المشيئة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[3][4].

* وتأتي البشارة في الآية الأخرى بقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ

---

(١) سورة مريم: الآية: (٨).
(٢) سورة مريم: الآية: (٩).
(٣) سورة يس: الآية: (٨٢).
(٤) ابن الإسلام (ص: ٢٧٥).

الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾[1] أي: خاطبته وأسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته أي: محل ومجلس صلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة:

﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾[2] أي: بولد من صُلبك اسمه يحيى ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[3] أي: بعيسى ابن مريم إذ هو أول من صدق به وعلى سنته ومنهاجه.

﴿وَسَيِّدًا﴾[4] أي: سيدًا في العلم والحلم والعبادة والخلق[5].

﴿وَحَصُورًا﴾[6] أي: يحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهدًا ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[7] هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى عليه السلام بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى.

العلامة على وجود الحمل واستجابة الدعاء

* بعد أن بشرت الملائكة زكريا - عليه السلام -

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سورة آل عمران: الآية: (٣٩).

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٢٦٨).

(٦)، (٧) سورة آل عمران: الآية: (٣٩).

بغلام، طلب من الله تعالى أن يجعل له دليلاً وعلامة على وجود الحمل فى بطن زوجه، ولم يكن هذا الطلب من قبيل عدم الثقة بوعد الله عز وجل، فحاشا لزكريا النبى التقى النقى أن يكون كذلك، وهو من أعرف الناس بالله عز وجل، لكن ذلك من قبيل الطمأنينة القلبية والاستقرار النفسى، لكى يبادر إلى الشكر ويتعجل السرور، إذ الحمل لا يظهر فى بدايته فأراد معرفته أول وجوده.

* مرة أخرى استجاب الله عز وجل لطلب زكريا .. وصدر الأمر العلوى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[(1)]، إن علامة ذلك أنك يا زكريا لا تستطيع التكلم إلى الناس ثلاثة أيام بلياليهن، وأنت صحيح ليس بك خرس ولا علة، .... اعتقل لسان زكريا من غير مرض ولا علة، وذلك كما ذكر الله عز وجل فى آية آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[(2)].

---

(1) سورة مريم: الآية: (10).

(2) سورة آل عمران: الآية: (41).

* إن زكريا – عليه السلام – مع ذلك لم ينقطع لسانُه عن الذكر والتسبيح، وهو دليلٌ على أنه كان فى غاية السلامة والقدرة على النطق إلا أنه يُعتقل لسانه عند التكلم مع الناس، وهذه هى العلامة [1].

* وأعطى الله زكريا العلامة، وأمره بالذكر والتسبيح، واطمأنت نفس زكريا، وخرج من المحراب الذى بُشر فيه بيحيى، فأوحى إلى من حوله من العباد والناس بإشارة خفيفة سريعة باليد أو بالرأس بالذكر والتسبيح موافقة له فيما أُمر به فى هذه الأيام الثلاثة، كما ذكر الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[2]، فقد كان زكريا – عليه السلام – فى منزلة عالية عندهم وهو خيرهم وإمامهم، وعالمهم ونبيهم[3].

إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات

ولقد وضَّح الحق (جل وعلا) سبب إجابته لزكريا

(١) انظر: تفسير الماوردى (٢/ ٥١٨)، وتفسير ابن كثير (٣/ ١٠٧).
(٢) سورة مريم: الآية: (١١).
(٣) نساء الأنبياء (ص: ٢٠٠، ٢٠١).

(عليه السلام) فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1].

فقد كان زكريا (عليه السلام) يسارع إلى فعل كل الخيرات ولم يتأخر أبدًا عن أى طاعة تُقربه من الله (جل وعلا) .. وكان كثير الدعاء فى السر والعلن وفى الرخاء والشدة وكان فى غاية الخشوع لله (جل وعلا).

فأكرمه الله بولد صالح .. وهو يحيى (عليه السلام) فقد كان له سمات وصفات خاصة لم تكن لأحد من قبله أبدًا وكان بارًا بوالديه .. ففرح به زكريا (عليه السلام) وربّاه على الإيمان والتوحيد وحب الدعوة إلى الله حتى أصبح يحيى (عليه السلام) نبيًا كريمًا وآتاه الله الحكم صبيًا.

* أما زكريا (عليه السلام) فقد ظل عابدًا لله داعيًا إليه (سبحانه وتعالى) حتى حضرته الوفاة وخرج من هذه الدنيا ليلحق بالأنبياء والمرسلين فى جنات النعيم.

* أما عن سبب وفاته فلم نقف على رواية صحيحة توضح سبب وفاته إلا أنه وردت روايات كثيرة ضعيفة أنه مات مقتولاً على يد جنود الملك الظالم فى ذلك الوقت - فالله أعلم-.

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٩٠).

المؤهلات التى تزود بها يحيى (عليه السلام)

لقد شهد الله (جل وعلا) أنه لما خلق يحيى (عليه السلام) لم يجعل له من قبل شبيهًا ولا مثيلاً .. فلقد فضّله الله بفضائل وصفات فريدة وجليلة فقال تعالى:

﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾[1] ..

* ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[2] .

* ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾[3] أى: تعطّف الله عليه بالرحمة والمحبة والحنان فكما أن الله أعطى الخضر علمًا من لدنه فكذلك أعطى يحيى حنانًا من لدنه.

وقيل: أن الله أعطاه الحنان والرحمة بالناس حتى يدعوهم إلى الله ويُخلصهم من الكفر والشرك.

* ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾[4] .

---

(١) سورة مريم: الآية: (٧).
(٢) سورة مريم: الآية: (١٢).
(٣) سورة مريم: الآية: (١٣).
(٤) سورة مريم: الآية: (١٤).

* ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1].

هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولا يدرى ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخًا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها!

* وكذلك إذا مات وفارق هذه الدنيا وسكن قبره فإنها تكون لحظة عصيبة وأما النقلة الثالثة فهى حينما يُنفخ فى الصور نفخة البعث فيخرج من قبره للقاء الله يوم القيامة.

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما يكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل موطن منها فقال:

﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾[2].

* ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾[3].

* ﴿ وَسَيِّدًا ﴾[4] أى: سيدًا فى العلم والحلم والعبادة.

* ﴿ وَحَصُورًا ﴾[5] أى: يحبس نفسه عن الشهوات ولا

---

(1)، (2) سورة مريم: الآية: (15).

(3)، (4)، (5) سورة آل عمران: الآية: (39).

يقرب النساء مع قدرته على ذلك خوفًا من الله (جل وعلا).

* ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[(1)].

فكانت هذه هي المؤهلات التي أكرم الله بها يحيى (عليه السلام) ليكون نبيًا من خيرة الأنبياء.

طفولة يحيى (عليه السلام)

وُلد يحيى عليه السلام، وكان ميلاده معجزة، فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يئس الشيخ من الذرية، وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبي زكريا عليه السلام.

وُلد يحيى عليه السلام فجاءت طفولته غريبة عن دنيا الأطفال، كان معظم الأطفال يمارسون اللهو، أما هو فكان جادًا طوال الوقت، كان بعض الأطفال يتسلى بتعذيب الحيوانات، وكان يحيى يطعم الحيوانات والطيور من طعامه رحمة بها، وحنانًا عليها، ويبقى هو بغير طعام، أو يأكل من أوراق الشجر أو ثمارها.

وكلما كبر يحيى عليه السلام في السن زاد النور في

(1) سورة آل عمران: الآية: (39).

وجهه وامتلأ قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام، وكان يحيى عليه السلام يحب القراءة، وكان يقرأ فى العلم من طفولته، فلما صار صبيًا ناداه ربه عز وجل: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾(١).

أوحى الله سبحانه وتعالى ليحيى عليه السلام وهو صبى أن يأخذ الكتاب بقوة، بمعنى أن يدرس الكتاب بإحكام، كتاب الشريعة، رزقه الله الإقبال على معرفة الشريعة والقضاء بين الناس وهو صبى، كان أعلم الناس وأشدهم حكمة فى زمانه، درس الشريعة دراسة كاملة، ولهذا السبب آتاه الله الحكم وهو صبى، كان يحكم بين الناس، ويبين لهم أسرار الدين، ويعرفهم طريق الصواب ويحذرهم من طريق الخطأ.

وكبر يحيى فزاد علمه، وزادت رحمته، وزاد حنانه بوالديه، والناس، والمخلوقات، والطيور، والأشجار، حتى عَمَّ حنانه الدنيا وملأها بالرحمة، كان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب، وكان يدعو الله لهم، ولم يكن هناك إنسان يكره يحيى أو يتمنى له الضرر، كان محبوبًا

(١) سورة مريم: الآية: (١٢).

لحنانه وزكاته وتقواه وعلمه وفضله، ثم زاد يحيى عليه السلام على ذلك بالعبادة [١].

زهد يحيى (عليه السلام)

ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس، إنما كان يأنس إلى البرارى ويأكل من ورق الأشجار ويَرِد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد فى بعض الأحيان، ويقول: من أنعم منك يا يحيى؟

إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعامًا إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس فى معايشهم.

* وعن وهيب بن الورد قال: فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه فى البرية فإذا هو قد احتفر قبرًا وأقام فيه يبكى على نفسه، فقال: يا بنى .. أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت فى قبر قد احتفرته قائم تبكى فيه؟ فقال: يا أبت .. ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة والنار مفازة لا تُقطع إلا بدموع البكّائين. فقال له: ابك يا بُنى.. فبكيا جميعًا [٢].

(١) ابن الإسلام (ص: ٢٧٨ ، ٢٧٩) بتصرف.
(٢) قصص الأنبياء (ص: ٦٠٥).

إن الله أمر يحيى بخمس كلمات

وها هو يحيى (عليه السلام) يحمل أمانة هذا الدين ويُبلغ دعوة الله (عز وجل) للناس من حوله.

عن الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإما أنا أبلغهن. فقال: يا أخى .. إنى أخشى إن سبقتنى أن أُعذَّب أو يُخسف بى. قال: فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد الناس على الشُّرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن. وأولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدًا من خالص ماله بورِق - فضة - أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك! وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم

يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصيام، ومثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيرًا، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل»[١].

بيان سبب قتل يحيى (عليه السلام)

* وهكذا ظل يحيى بعد موت أبيه زكريا (عليهما السلام) عابدًا خاشعًا لله داعيًا إلى الله (جل وعلا) بكل لين ورحمة وحنان حتى أحبه الناس جميعًا.

(١) رواه أحمد (١٦٧١٨) والترمذي (٢٨٦٣) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧٢٤).

* ولكن كما قال النبي ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء»[1].

فقد مات نبي الله يحيى (عليه السلام) مقتولاً .. لكن كيف مات مقتولاً؟ .. سأقص عليكم قصة قتله.

* كان هناك في هذا الزمان ملك ظالم طاغية قاسي القلب.

وكان الفساد منتشرًا في قصره وكان يغار من نبي الله يحيى (عليه السلام) لأنه كان محبوبًا من الناس في الوقت الذي كان الناس فيه يكرهون هذا الملك الظالم.

وكان هذا الملك يريد الزواج من ابنة أخيه لأنها كانت في غاية الحسن والجمال .. وكانت هي الأخرى تريد الزواج منه رغم أنه عمها ولا يجوز لها أن تتزوجه ولكنها كانت تطمع في الثروة والملك، فأراد هذا الملك أن يأخذ الإذن من يحيى (عليه السلام) لهذا الزواج المحرم فذهب يستفتي يحيى (عليه السلام) ويُغريه بالأموال ليفتيه بأن زواجه من ابنة أخيه حلال فرفض يحيى (عليه السلام) وأعلن أمام الناس جميعًا أن زواج الملك من ابنة أخيه حرام.

فغضب الملك غضبًا شديدًا وامتنع عن الزواج حتى لا

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٦٥٣٩)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٩٦).

يُفضح أمام الناس.

أما الفتاة فكانت لا تزال تريد أن تتزوج من عمها طمعًا فى الملك والثروة فذهبت إلى الملك بعدما تزينت له وفتنته حتى تعلق بها وأصرَّ على الزواج منها.. وهنا رفضت وقالت له: إن أردت أن أوافق على الزواج فائتنى برأس يحيى مهرًا لى وإلا فلن أوافق على الزواج.

فأرسل الملك جنوده فدخلوا على يحيى (عليه السلام) وهو يصلى فى المحراب فقتلوه وقطعوا رأسه وأحضروها على صحن للملك فقام الملك وقدَّم الصحن هدية لابنة أخيه فوافقت على الزواج فتزوجها فى الحرام.

* وهكذا مات يحيى (عليه السلام) مقتولاً ليلحق بأبيه وبسائر الأنبياء فى جنات النعيم.

* الدروس المستفادة من القصة:

(١) أن المسلم لا ييأس من رحمة الله.. فقد رأينا كيف أن الله (عز وجل) رزق امرأة عمران الولد بعد عمرٍ طويل.. ورزق زكريا بيحيى (عليهما السلام) بعدما كبر سِنُّه وشاب رأسه.

(٢) أننا ينبغى أن نستعمل نِعم الله فى طاعته وخدمة دينه..

فقد رأينا كيف أن امرأة عمران بمجرد أن استجاب الله دعاءها وحملت نذرت ما فى بطنها لعبادة الله ولخدمة بيت المقدس.

(٣) أن المسلم لا بد أن يرضى بقضاء الله ليفوز برضوان الله فى الدنيا والآخرة .. فقد رأينا كيف أن امرأة عمران لما ولدت أنثى وكانت تتمنى أن تلد ذكراً ليخدم بيت المقدس فأكرمها الله بصدق نيتها بأن اصطفى ابنتها مريم وجعل من نسلها عيسى (عليه السلام).

(٤) أن المؤمنين يجب أن يتنافسوا فى فعل الخيرات.. فقد رأينا كيف تنافس زكريا (عليه السلام) مع العلماء فيمن يكفل مريم حتى عملوا القرعة وكانت من نصيب زكريا (عليه السلام).

(٥) كرامات الأولياء ثابتة لأهل السنة، ومن كرامة الله لمريم أن يكون عندها فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف.

(٦) أن العبد المؤمن ليس له إلا الله (جل وعلا) فإذا أراد شيئًا من أمور الدنيا والآخرة فعليه أن يفزع إلى الله ويسأله وحده كل ما يريد.. وليكن على ثقة ويقين من أن الله سوف يستجيب دعاءه.

(٧) أن من أخلص لله وكـان مسـارعًا فى طاعـة الله فإن الله يستجيب دعـاءه أكثر من غيره ممن يتكاسلون عن طاعة الله .. فـقد قال تعـالى عن زكريا (عليـه السلام) وزوجه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1] .

(٨) أن النشأة الطيبة لها أثر عظيم فى تربية الأولاد.. فـقد رأيـنا كيف أن يحـيى لما نشـأ فى بيت أبيـه زكـريا (عليهما السـلام) كان مثالاً حيًّا للصبى العابد الخاشع لله (جل وعلا) حـتى أكرمه الله (عـز وجل) وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[2] .

(٩) أن الدعوة الرحيمة يفتح الله بها القلوب ولذلك كان الناس يحبون يحيى (عليه السلام) لأن دعوته كانت رحيمة.

(١٠) أن أشد الناس بلاءً الأنبياء .. فقد رأينا كيف قُتل زكريا ويحيى (عليهما السلام) فى سـبيل العقيدة وفى سبيل تبليغ شرع الله وعدم المجاملة فى دين الله (جل وعلا).

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٩٠).

(٢) سورة مريم: الآية: (١٢).

قصة عيسى (عليه السلام)

كان ياما كان . .

كان هناك رجل عالم جليل يصلى بالناس اسمه عمران . . وكان يعيش فى فلسطين فى زمان سيدنا زكريا (عليه السلام).

وكانت زوجة عمران لا تلد وكانت تشتهى أن يرزقها الله الولد.

وفى يوم من الأيام وجدت طائرًا يُطعم ابنه الصغير فى فمه فأحست بالحنين الشديد إلى الولد فتوجهت إلى الله (جل وعلا) بالدعاء بأن يرزقها الله ولدًا ليخدم بيت المقدس فاستجاب الله لها وحملت وامتلأ قلبها بالسعادة والفرح والسرور . . ونذرت ما فى بطنها محررًا لخدمة بيت المقدس.

* وتمر الأيام ويموت زوجها عمران ذلكم العالم الجليل ويترك زوجته وهى حامل.

* وجاء موعد الولادة . . ووضعت امرأة عمران ما فى بطنها وكانت أنثى فحزنت لأنها كانت تتمنى أن يكون المولود ذكرًا ليخدم بيت المقدس ولكنها قررت أن تفى بنذرها لله.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[1].

- كانت المولودة هي مريم أم عيسى (عليهما السلام).

* خافت امرأة عمران على ابنتها مريم فتوجهت إلى الله أن يحفظها هي وذريتها من الشيطان الرجيم.

ولذلك جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه**»، ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾[2][3].

* وجعل الله كفالة مريم ورعايتها إلى سيدنا زكريا (عليه السلام) وهو نبي ذلك الزمان وهو زوج خالة مريم.. وكان هذا من سعادتها لتقتبس منه العلم النافع والعمل الصالح.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

(٢) سورة مريم: الآية: (٣٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٣١)، ومسلم (٢٣٦٦).

كرامة ثابتة لمريم (عليها السلام)

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من خدمة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يُضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقًا غريبًا في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾(٢) فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾(٣) أي: رزق رزقنيه الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

(٢)، (٣)، (٤) سورة آل عمران: الآية: (٣٧).

الله يصطفى مريم على نساء العالمين

لقد كـان ميلاد مـريم تمهيدًا للمـعجزة الكبـرى حيث سيولد نبى الله عيسى (عليه السلام) من هذه المرأة الطاهرة التقية النقية دون أن يكون له أب كسائر الناس.

* قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[1].

لقد اصطفاها الله واختارها وطهرها من كل الأخلاق الرذيلة وأعطاها كل الصفات الجميلة واصطفاها على نساء العالمين.

إن الله اصطفاها فهى الطاهرة العفيفة التقية .. واصطفاها مرة أخرى لأنها ستنجب للدنيا عيسى ابن مريم (عليه السلام) ذلكم النبى الرسول الكريم من أولى العزم الخمسة.

* ثم قالت الملائكة لمريم: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[2]، لقـد طلبـوا منهـا أن تزيد من خشوعها وركوعـها وسجودها شكرًا لله (جل وعلا) على هذا الاصطفاء.

(١) سورة آل عمران: الآية: (٤٢).
(٢) سورة آل عمران: الآية: (٤٣).

ميلاد عيسى ابن مريم (عليه السلام)

وها هى قصة ميلاد سيدنا عيسى ابن مريم (عليه السلام).

* قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾[1].

لقد قامت مريم واعتزلت أهلها وأقاربها فى مكان شرقى بيت المقدس من أجل أن تتفرغ لعبادة الله (جل وعلا) فقد كانت كثيرة العبادة.

* ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[2]، لما أرادت أن تتفرغ للعبادة جعلت بينها وبين قومها سترًا وحاجزًا فأرسل الله إليها جبريل (عليه السلام) وهى فى المحراب وحدها فجاءها فى صورة شاب أبيض الوجه فى غاية الحسن والجمال فخافت منه مريم، وقالت: ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾[3].

لقد فزعت مريم منه وقالت: إنى أحتمى وألتجئ إلى الله منك فإن كنت تقيًا فاتركنى فى حالى ولا تقترب

(١) سورة مريم: الآية: (١٦).
(٢) سورة مريم: الآية: (١٧).
(٣) سورة مريم: الآية: (١٨).

مني ، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾[1] .

أراد جبريل (عليه السلام) أن يُطمئن قلبها فأخبرها أنه ملك أرسله الله إليها ليهب لها غلامًا زكيًّا طاهرًا من الذنوب.

* فاطمأنت مريم لكنها فجأة تذكرت ما قاله: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾[2] !!

كيف سيحدث ذلك وهي الطاهرة التي لم تتزوج بعد ولم يمسسها بشر.

كيف تنجب بغير زواج؟!

قالت لجبريل (عليه السلام): ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[3] .

فأراد جبريل (عليه السلام) أن يُطمئن قلبها فقال لها: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾[4] .

إنه أمر سهل ميسور على الخالق (جل وعلا) فالله هو الذي أمر بأن يُخلق عيسى من أم بلا أب ليكون معجزة

(١)، (٢) سورة مريم: الآية: (١٩).
(٣) سورة مريم: الآية: (٢٠).
(٤) سورة مريم: الآية: (٢١).

ورحمة من الله لبني إسرائيل.

ثم إن الأمر انتهى، فما دام الله أمر بذلك فليس هناك أى مجال للمناقشة... إن الله إذا أمر بشيء فلا بد من تنفيذه على الوجه الذى أراده الله.

* ولماذا تعجبين.. فلقد خلق الله آدم (عليه السلام) من غير أب ولا أم وخلق حواء من آدم فهى قد خُلقت من ذكر بغير أنثى، وسيخلق ابنك من أم بلا أب وخلق الناس جميعًا من أب وأم حتى يعلم الناس قدرة الخالق (جل وعلا) وعظيم سلطانه.

وهكذا اطمأن قلب مريم (عليها السلام)

لقد استقبلت مريم كلمات جبريل (عليه السلام) بكل رضا واستسلام لأمر الله (جل وعلا).

* وعاد جبريل (عليه السلام) يتحدث مرة أخرى ليخبرها بتفاصيل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) فقال لها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ

النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[١].

سبحان الله!!... لقد عرفت اسم ابنها قبل أن تحمله فى بطنها.. بل وعرفت أنه سيكون وجيهًا فى الدنيا والآخرة، وسيكون من المقربين إلى الله بل وإلى الناس من حوله.. وعرفت أيضًا أنه سيكلم الناس وهو طفل صغير وسيتكلم وهو رجل كبير.

وحملت مريم بعيسى (عليهما السلام)

وهنا.. انتهى الحوار بين جبريل (عليه السلام) وبين مريم العذراء وقبل أن تنطق مريم كلمة أخرى نفخ جبريل (عليه السلام) فى جيب مريم[٢] فدخلت النفخة فى جوفها فحملت فورًا بعيسى (عليه السلام).

* ومرت الأيام ثقيلة على مريم.. فهى تفكر ماذا ستقول للناس وهى التى حملت بغير زواج.

* كان حملها يختلف تمامًا عن حمل سائر النساء.. فهى لم تشعر بثقل ولا بمرض ولم ترتفع بطنها كسائر النساء بل كان حملها به نعمة طيبة.

(١) سورة آل عمران: الآيتان: (٤٥، ٤٦).

(٢) الجيب: هو شق الثوب الذى يكون فى الصدر.

وحان وقت الولادة

ومرت الأيام مسرعة وهى تعانى من الآلام النفسية الشديدة فهى تفكر فيما تُخبئه لها الأيام وماذا سيقول الناس عنها.

اقتربت ساعة الولادة وأحست مريم بألم الولادة فخرجت من القرية وذهبت إلى مكان بعيد يمتلئ بالشجر والنخل .. إنه مكان لا يعرفه أحدٌ غيرها.

ولم يكن أحد يعرف أن مريم حامل وأنها ستلد فقد أغلقت المحراب عليها طوال هذه الشهور والناس يعرفون أنها فرغت نفسها للعبادة فلا يقترب منها أحد حتى لا يسبب لها إزعاجًا.

* وجلست مريم تستريح قليلاً تحت جذع نخلة وتفكر فيما سيحدث لها فى الأيام القادمة .. وفجأة زادت عليها آلام الولادة.

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾(١).

وبدأت لحظات ميلاد المسيح عيسى ابن مريم (عليهما

(١) سورة مريم: الآية: (٢٣).

السلام) والأم فى غاية الحزن والاكتئاب .. ماذا سيقول الناس؟ هل يصدق الناس أنى ولدت هذا الطفل دون أن يمسسنى بشر؟ .. ظلت تفكر حتى وصل بها الأمر إلى أنها تمنت أن تموت قبل أن يتهمها أحد فى طهارتها وعفافها.

* ولدت مريم سيدنا عيسى (عليه السلام) .. وفجأة حدث شيء لا يخطر على قلب بشر!! .. يا ترى ما الذى حدث؟

عيسى (عليه السلام) يتكلم وهو طفل رضيع

فى هذه اللحظة جاء التثبيت من عند الله وجاءت المعجزة التى لا تخطر على قلب بشر .. لقد أنطق الله عيسى (عليه السلام) فنادى أمه وتكلم معها: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(١).

* لم تصدق مريم ما تراه وما تسمعه .. هل هذا

(١) سورة مريم: الآيات: (٢٤ - ٢٦).

معقول ؟ .. طفلي الصغير الذي وُلد منذ دقائق معدودات ينطق ويتكلم!!

لقد أنطق الله (عز وجل) طفلها عيسى (عليه السلام) ليكلمها ويطلب منها أن تكف عن حزنها وأن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها التمر والرُّطَب فتأكل وتشبع فإذا أرادت الماء فقد جعل الله تحتها عينًا تجرى فيها المياه الصافية النقية.

ثم قال لها عيسى (عليه السلام): فإذا رآك أحد من البشر فقولي له: إني نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسانًا.

* فرحت مريم فرحًا شديدًا وأحست لأول مرة بالسعادة تملأ قلبها منذ أن حملت بعيسى (عليه السلام).. قامت في سعادة غامرة تهز جذع النخلة وما إن لمست الجذع حتى وجدت التمر والرطب يتساقط أمامها فأكلت وشربت ووضعت طفلها في ملابسها وألصقته بقلبها خوفًا عليه من نسيم الهواء ثم نامت من شدة التعب والإعياء.

اللحظة الحاسمة

وجاءت اللحظة الحاسمة التى ستعود فيها مريم إلى قومها. يا ترى ماذا ستصنع؟ ماذا سيقولون لها؟ وهل يصدقون بأن الله هو الذى رزقها بهذا الطفل أم أنهم سيوجهون إليها أبشع التهم ويرمونها بأقبح الكلمات؟!

* عادت مريم قُرب العصر وكان السوق الكبير الذى يقع فى طريقها إلى المسجد قد امتلأ بالناس الذين فرغوا فى هذه الساعة من البيع والشراء وجلسوا يتكلمون.

* وما إن وصلت مريم إلى السوق حتى نظر الناس إليها ولاحظوا أنها تحمل طفلاً وتضمه لصدرها.

فقال أحدهم: أليست هذه مريم العذراء؟ فما هذا الطفل الذى تحمله؟ فجاء إليها أحد الكهنة وسألها: من هذا الطفل الذى تحملينه يا مريم؟

هل هو ابنك؟ وكيف يكون ابنك وأنت لم تتزوجى؟

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[1].

وبدأت الاتهامات تسقط عليها من الناس حولها ومع

---

(١) سورة مريم: الآية: (٢٨).

ذلك فهي تقف مرفوعة الرأس واثقة في ربها (جل وعلا) أنه سوف يُبرؤها من كل هذه الاتهامات.

فلما ضاق الحال اشتد توكلها على الله (جل وعلا) فأشارت بيدها إلى عيسى (عليه السلام).

فتعجب الناس واندهشوا ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[1].

وإذا بعيسى (عليه السلام) ينطق وهو طفل رضيع، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[2].

* ما هذا الذي يحدث؟.. طفل رضيع يتكلم!!

لقد رأى الناس أمام أعينهم معجزة حقيقية.. طفل جاء بغير أب ثم إنه يتكلم وهو ما زال يرضع.. طفل يقول: إن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيًّا.. معنى هذا

(١) سورة مريم: الآية: (٢٩).

(٢) سورة مريم: الآيات: (٣٠-٣٣).

الكلام أن مُلكهم سيزول ولن يكون لهم أى قدر ولا مكانة عندما يكبر هذا الطفل.

لن يستطيع وقتها أحد منهم أن يبيع الغفران للناس.

* وأحس كهنة اليهود بأن ميلاد هذا الطفل الصغير سيكون مأساة بالنسبة لهم لأن حياتهم قائمة على الغش والخداع والسرقة.

وإن مجيء عيسى (عليه السلام) سيكون سببًا فى عودة الناس إلى دين الله (جل وعلا) .. وهذا معناه إعدام كهنة اليهود الموجودين فى هذا الوقت.

فاختلف الأحزاب من بينهم

قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

* ومع أن الله (عز وجل) أنطق عيسى (عليه السلام) وهو طفل رضيع وعلموا أن مريم هى الطاهرة العفيفة .. ومع ذلك اختلف الناس فى شأن مريم وشأن ابنها عيسى (عليه السلام).

---

(١) سورة مريم: الآية: (٣٧).

* فمنهم من قال إنه جاء من الحرام - عياذًا بالله-.

ومنهم من قال: أن عيسى هو الله.

ومنهم من قال: إنه ابن الله.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله، وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون.

* عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[1].

نشأة عيسى (عليه السلام)

نشأ عيسى (عليه السلام) كما ينشأ كثير من الأطفال إلا أنه قد ظهرت عليه بوادر النبوغ والذكاء والتدين وبدت عليه مظاهر نبوته.

فكان وهو يلعب مع أقرانه وأصحابه كان يُنبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم .. وكان إذا ذهب إلى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨).

مُـعلم القريـة يجلس إليه ويـستـمع إلى حـديثه فى جِـدٍ واهتمام . . وكان مُقبلاً على العلم بكل جوارحه.

ثم يرحل بعد ذلك إلى بيت المقدس مع أمه وكان بارًا بها.

نبوته (عليه السلام)

ولما بلغ الثـلاثين من عمـره هبط عليه الرُّوح الأمـين، فكان ذلك بدء الرسـالة، وفاتحـة النبـوة، ثم تلقَّى من ربه الكتاب الذى جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة فأخذ يؤذن فى الناس برسالتـه، ويدعوهم إلى متابعتـه ويسعى فى أن يرد اليـهـود عن زيغـهم، ويصدهـم عن ضلالهم، فـقـد انحـرفوا عن الطريـق القويمـة، وحرفـوا شـريعة مـوسى السمـحة، وجعلوا همّهـم جمع المال؛ فصاروا يحـرّضون الفقراء والمحتاجين على أن يقدموا للهيكل ما استطاعوا من نذور، ليسيل الذهب إلى جيـوبهم، ويتدفق فى خزائنهم، وإن كان من يحرّضونهم فى أمسّ حاجة إلى المال يعولون به آباءهم ويربُّون منه أبناءهم، ويسترون به أجسامهم.

وكان من اليـهود طائفـة أنكروا القيامـة، واستبـعدوا

الحشر، وكذَّبوا بالحساب والعقاب، وطائفة غيرهم ألهتهم الحياة الدنيا، وانغمسوا في ملاذِّها، وأقبلوا على شهواتها ويتسترون عن أعين الناس وهم يقترفونها.

هذه كانت الحال عندما بزغ نجم عيسى، وأشرقت شمسه، وبعثه الله ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، فلم يترك سبيلاً لهدايتهم إلا سلكه، ولا بابًا إلا طرقه.

وشعر رجال الدِّين بالتيار يَجرفهم، وأحسّوا بالخطر يقترب.. فها هو ذا عيسى ينكر عليهم انغماسهم في الشهوات، وتهالكهم على اللّذات، وتسابقهم إلى جمع المال، ثم هو يفضح أسرارهم، وينشر بين الناس مخازيهم، فأجمعوا بينهم على تكذيبه حيثما ذهب، وعلى حربه أينما كان.

ولكنه لم يُبال جَمعهم، بل صمد في سبيل الحق، وثبت لدعوة الصدق، وسار متنقلاً بين القرى يُزيِّف آراءهم، ويُفنِّد أقوالهم، فطالبوه بما يؤيِّد رسالته، ويثبت دعوته، ويدلهم على نبوته، فأيَّده الله بالمعجزة الباهرة، وآزره بالآية البينة، فصار يَخلُق من الطين كهيئة الطير،

فينفخُ فيه فيكونُ طيرًا بإذن الله، ويُبرئ الأكمه[1]، والأبرص[2]، ويحيي الموتى بإذن الله[3].

بعض معجزات عيسى (عليه السلام)

لما كبر سيدنا عيسى (عليه السلام) ونزل عليه الوحي وأعطاه الله الإنجيل وكان قد بلغ من العمر ثلاثين سنة وأظهر الله على يديه المعجزات فكان من بين تلك المعجزات:

* ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾[4] أي: في أضعف الأحوال وأقواها بكلام واحد.
* ﴿يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[5].
* ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[6].

وكذلك كان يفعل، ... يصوّر من الطين شكل طير

(١) الأكمه: مَن ولد أعمى، أو من فقد بصره.
(٢) الأبرص: البرص: بياضٌ يظهر في الجسد لعلة.
(٣) قصص القرآن (ص: ٢٨٩، ٢٩٠) بتصرف.
(٤) سورة آل عمران: الآية: (٤٦).
(٥) سورة آل عمران: الآية: (٤٨).
(٦) سورة آل عمران: الآية: (٤٩).

ثم ينفخ فيه فيطير عيانًا بإذن الله عز وجل الذى جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله.

* ﴿ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ ﴾(١) وهو مَن وُلد أعمى، فيمسح على عينيه أمامهم فيبصر.

* ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾(٢) وهو المرض الذى يصيب الجلد فيجعل لونه أبيض، فيمسح على جسمه فيعود سليمًا.

* ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(٣) أى: أحيى بعض الموتى لا بقدرتى ولكن بمشيئة الله وقدرته.

* ﴿ أُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾(٤) كان يخبر الشخص بما أكل وما ادَّخر فى بيته.

* ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٥) جاء عيسى عليه السلام ليخفف عن بنى إسرائيل بإباحة بعض الأمور التى حرمتها التوراة عليهم عقابًا لهم.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٤٩).

(٢)، (٣)، (٤) سورة آل عمران: الآية: (٤٩).

(٥) سورة آل عمران: الآية: (٥٠).



* وهناك معجزة المائدة التى سأذكرها لكم بالتفصيل فيما يلى.

الحواريون أتباع عيسى (عليه السلام)

ومع كل هذه المعجزات التى أيده الله بها والتى تدل على أنه نبى كريم أرسله الله (عز وجل) إليهم .. إلا أن بنى إسرائيل كفروا ورفضوا الإيمان بأن عيسى رسول الله.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[(١)].

لما أحس عيسى (عليه السلام) أنهم لن يؤمنوا سألهم وقال لهم: هل أنتم مسلمون؟ .. فما آمن له إلا الحواريون.

وكان عدد الحواريين اثنى عشر رجلاً.

* * *

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان: (٥٢، ٥٣).

ذكر خبر المائدة

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[(١)].

* ومضمون ذلك أنه لما آمن الحواريون مع عيسى (عليه السلام) كان التردد لا يزال موجودًا في نفوسهم . . ومن أجل أن يقطع عليهم هذا التردد أمرهم عيسى (عليه السلام) بأن يصوموا ثلاثين يومًا ليتبين له صدقهم ولكي تطهر نفوسهم . . فاستجابوا له وصاموا ثلاثين يومًا.

فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبهم، وتكون لهم عيدًا يفطرون

(١) سورة المائدة: الآيات: (١١٢ - ١١٥).

عليها يوم فطرهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم، لغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى عليه السلام فى ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل.

فلما لم يُقلعوا عن ذلك قام إلى مُصلاه ولبس مِسحًا من شعر وصفَّ بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال أن يُجابوا إلى ما طلبوا.

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة. فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام وهى مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: «بسم الله خير الرازقين»، فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة.

ويقال: وخلٌّ، ويقال: ورُمَّان وثمار، ولها رائحة عظيمة جداً.

قال الله كونى فكانت.

ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزَّمنَى وكانوا قريبًا من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يومًا بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يومًا بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء، فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم فى ذلك، فرُفعت بالكلية ومُسخ الذين تكلموا فى ذلك خنازير(١).

لكن الله سبحانه وتعالى حذرهم من الكفر بعد هذه الآية التى جاءت تلبية لطلبهم، وتوعَّد من يكفر منهم بعد هذه المعجزة بعذاب شديد لا يعذبه لأحد آخر من

(١) قصص الأنبياء (ص ٦٦٢، ٦٦٣).

العالمين، . . . قال تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾(١) وصار يوم نزول المائدة عيدًا للحواريين.

وظلوا على إيمانهم وتصديقهم لعيسى عليه السلام، إلا رجلاً واحدًا كفر بعد رفع عيسى عليه السلام.

عيسى (عليه السلام)
يبشرهم برسولنا محمد ﷺ

وها هو عيسى (عليه السلام) يبشرهم بخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ الذي يأتي من بعده.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»(٣).

(١) سورة المائدة: الآية: (١١٥).

(٢) سورة الصف: الآية: (٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢١٧٥٨)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٥٤٥).

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1].

وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله عز وجل حاكيًا عن المسيح عليه السلام: ﴿ ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾[2].

رفع عيسى (عليه السلام) إلى السماء

قال تعالى: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين (٥٤) إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾[3].

وقال تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله: ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٢٩).

(٢) سورة الصف: الآية: (٦).

(٣) سورة آل عمران: الآيتان: (٥٤ ، ٥٥).

ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما (١٥٨) وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾[١].

وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يُبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرًا ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشهد طيرانه بإذن الله عز وجل إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها، وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يُقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، وكان رجلاً مشركًا من عَبَدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان

---

(١) سورة النساء: الآيات: (١٥٦ - ١٥٩).

وأنهوا إليه أن فى بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب لنائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امتثل والى بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام، وهو فى جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحصروه هنالك، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يُلقَى عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفُتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنة من النوم فرُفع إلى السماء، وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي

مُتَوَفِّيكَ [(١)] وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[(٢)]... فلما رُفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى في ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، وقد قال تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وما قتلوه يقينا﴾[(٤)] أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ﴿بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما﴾[(٥)(٦)].

ظل الحواريون يدعون بالسر إلى الله، ويُعلمون الناس الدين في السر، وظل النصارى على التوحيد أكثر من مائتي سنة، ثم آمن أحد ملوك الروم واسمه قسطنطين، وأدخل الشركيات في دين النصارى.

يقول ابن عباس: افترق النصارى ثلاث فرق، فقالت

---

(١) الوفاة هنا: بمعنى النوم - بدليل قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ سورة الأنعام: الآية: (٦٠).
(٢) سورة آل عمران: الآية: (٥٥).
(٣)، (٤) سورة النساء: الآية: (١٥٧).
(٥) سورة النساء: الآية: (١٥٨).
(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٣، ٥٧٤) باختصار.

طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وقالت طائفة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وقالت طائفة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام مطموسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ فذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[1][2].

نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان

وفي آخر الزمان عندما يظهر المسيح الدجال الذي يملأ الأرض فسادًا والذي حذرنا منه نبينا محمد ﷺ .. فينزل عيسى (عليه السلام) عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ويكون نزوله على المؤمنين الثابتين على الحق من المسلمين فيصلي خلف أميرهم ثم يبحث عن المسيح الدجال ليقتله.

(١) سورة الصف: الآية: (١٤).

(٢) ابن الإسلام (ص: ٢٩٠).

هلاك الدجال على يديه

يكون هلاك الدجال على يدى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام؛ كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وذلك أنَّ الدجال يظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ويكثر أتباعه، وتعمُّ فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين، وعند ذلك ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عبادُ الله المؤمنون، فيسير بهم قاصدًا المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى متوجهًا نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب (لُد)[١]، فإذا رآه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح، فيقول له عيسى عليه السلام: «إن لى فيك ضربة لن تفوتنى»، فيتداركه عيسى، فيقتله بحربته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودىٌّ خلفى، تعال فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود[٢].

(١) (لُد): بلدة فى فلسطين قرب بيت المقدس. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ١٥).

(٢) انظر: «النهاية فى الفتن والملاحم» (١/ ١٢٨، ١٢٩)، تحقيق د. طه زينى.

* ثم يأتى عيسى (عليه السلام) إلى قوم قد عصمهم الله من فتنة المسيح الدجال فيمسح وجوههم ويخبرهم بدرجاتهم فى الجنة.

هلاك يأجوج ومأجوج فى عهد عيسى (عليه السلام)

يأجوج ومأجوج من ذرية يافث أبى الترك .. ويافث من أولاد نوح (عليه السلام).

وأما عن صفتهم فهم يُشبهون أبناء جنسهم من الترك المغولى.

وهم من المفسدين فى الأرض فلو خرجوا لأفسدوا فى الأرض ولما استطاع إنسان أن يجد طعامًا أو شرابًا لأنهم يأكلون ويشربون كل شىء ولا يتركوا شيئًا لأحد من البشر.

* وقد استطاع ذو القرنين أن يبنى سدًا بين الجبلين وأن يتركهم محبوسين فى هذا المكان إلى أن يشاء الله أن يخرجوا من هذا السد فيخرجون فى زمن عيسى (عليه السلام) حينما ينزل فى آخر الزمان.

* وأما عن كيفية هلاكهم فإن الله سيوحى إلى عيسى

(عليه السلام) أن يأخذ المؤمنين إلى جبل الطور ليختبئوا من يأجوج ومأجوج ثم يرسل الله عليهم النغف - والنغف عبارة عن دود يكون فى أنوف الإبل والغنم - فيأكل النغف فى رأسهم بعدما يدخل من الأنف فيموتون جميعًا فتصبح الأرض منتنة من ريحهم فيلجأ عيسى (عليه السلام) إلى الله ليطهر الأرض منهم فيرسل الله طيرًا فى ضخامة الإبل فتحملهم بعيدًا ثم يرسل الله المطر فيغسل الأرض حتى تكون كالمرآة اللامعة .. فيخرج عيسى (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين ويحمدون الله على أنه نجاهم من هؤلاء المفسدين.

بماذا يحكم عيسى (عليه السلام)؟

يحكم بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد ﷺ ، فإنه لا ينزل بشرع جديد؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان وباقٍ إلى قيام الساعة، لا يُنسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة، ومجددًا لأمر الإسلام، إذ لا نبى بعد محمد ﷺ .

فمرحى بأمة رسول الله ﷺ نبيها أعظم الأنبياء، وآخر مجدديها نبى على ملة رسول الله وشريعته، بل آخر صحابى نبى.

انتشار الأمن وظهور البركات فى عهده (عليه السلام)

ولأن الكون كله قد أسلم واستسلم لله - جل وعلا - فإن الإنسان كلما ازداد طاعة لله كلما سخَّر الله له الكون كله.

ولذلك فعند نزول عيسى - عليه السلام - يعلم الناس أن نزوله علامة على قُرب القيامة فينشغل الناس جميعًا بالعبادات والطاعات فيأمر الله الأرض أن تُخرج بركتها ويأمر السماء أن تُنزل بركتها فيفيض المال ولا يجد من يأخذه وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد.

* بل وينتشر الأمان بين الناس وبين الدواب والمخلوقات كلها.

حتى ترتع وتلعب الأسود مع الإبل والنمور مع البقر

والذئاب مع الغنم ويلعب الأطفال بالحيات فلا تضرهم.

* وتنتشر البركات لدرجة أن المجموعة من الرجال يأكلون رمانة واحدة فلا يستطيعون أن يكملوها .. والحلاب من اللبن يكفى قبيلة كاملة.

فتكون هذه السنوات من أجمل وأسعد السنوات التى يعيشها الإنسان على كوكب الأرض.

وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

ذلك عند نزول عيسى وقبل موته عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به وهذا القول هو الحق، لأنه المقصود من سياق الآية فى تقرير بطلان ما ادّعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى

(١) سورة النساء: الآية: (١٥٩).

الجهلة فى ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شُبِّه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ثم إنه رفعه إليه وإنه باقٍ حيٌّ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلّت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعنى: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان - بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف.

* ثم يمكث عيسى (عليه السلام) سبع سنين .. يذهب خلالها لحج بيت الله الحرام.

قال ﷺ: «ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردةً من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ فى قلبه مثقال ذرة من خيرٍ أو إيمان إلا قبضته»[1].

* ثم يموت عيسى (عليه السلام) ويصلى عليه المسلمون ويُدفن فى الأرض المقدسة.

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٠).

مشهد من مشاهد يوم القيامة

ويخبرنا المولى عز وجل بحوار لم يقع بعد.

هو حواره مع عيسى عليه السلام يوم القيامة فيقول:

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1]؟!

يقول عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة المائدة: الآية: (١١٦).

(٢) سورة المائدة: الآيات: (١١٦ - ١١٨).

* الدروس المستفادة من القصة :

(١) الله يصطفي ويختار من عباده من يشاء .. فلقد رأينا كيف أن الله (عز وجل) اصطفى مريم على نساء العالمين.

(٢) أن العبد لا بد أن يقابل نعم الله بالشكر .. فإن الله لما اصطفى مريم على نساء العالمين قيل لها بعدها مباشرة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[١] شكرًا لله على هذا الاصطفاء.

(٣) الله قادر على كل شيء .. ولقد رأينا كيف أن الله جعل مريم تنجب نبي الله عيسى (عليه السلام) بغير أب.

(٤) جواز تمني الموت عند خوف الفتنة في الدين .. فلقد رأينا كيف أن مريم لما حملت بعيسى (عليه السلام) تمنت الموت خوفًا من أن يظن الناس بها شرًا في دينها.

(٥) أن قدرة الله لا تحدها حدود .. فلقد أنطق الله عيسى ابن مريم (عليه السلام) وهو طفل رضيع لِيُبرِئَ أمه أمام قومها.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (٤٣).

(٦) الأخذ بالأسباب لا يقدح فى التوكل، بل هو سنة كونية لا بد منها، فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يرزق مريم الطعام دون هز الجذع، ولكنه الأخذ بالأسباب.

(٧) من كرامة الله لمريم مطاوعة جذع النخلة لها، فلو اجتمع رجال أشداء لهز جذع النخلة ما طاوعتهم، فكيف بامرأة ضعيفة فى مخاض الولادة.

(٨) اليهود أهل بُهت وكذب وزور، هم أحرص الناس على الدنيا وشهواتها، وفى سبيلها يقتلون الأنبياء، ويكذبون الرسل[(١)].

(٩) أتباع الأنبياء دائمًا هم أقل الناس عددًا لكنهم هم الفائزون المفلحون فى الدنيا والآخرة.

(١٠) إن معجزات كل نبى لا بد أن تتناسب مع أهل ذلك الزمان.

(١١) إن عيسى (عليه السلام) رُفع حيًا وأنه لم يُصلب وسينزل فى آخر الزمان ليقتل الدجال ويكسر

---

(١) ابن الإسلام (ص: ٢٩٢).

الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وسوف تكثر البركة فى عهده.

(١٢) إن أسلم طريقة للنجاة من الفتنة أن تبتعد عنها وتهرب منها، وقد قال النبى ﷺ: «من سمع بالدجال فلينأ عنه»[١]. أى: يبتعد عنه.

(١٣) إن الأنبياء بشرٌ يموتون كما يموت البشر بل ويتعرضون للسخرية والاستهزاء والإيذاء كما يتعرض البشر ولكنهم يصبرون ويحتسبون ولا يغضبون لأنفسهم وإنما غضبهم لله (جل وعلا).

❊ ❊ ❊

حبايبى الحلوين:

وهنا ينتهى كتاب قصص الأنبياء.

وسوف نلتقى قريبًا مع قصة حياة النبى محمد ﷺ.

عمو محمود

---

(١) صحيح سنن أبى داود (٤٣١٩)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٣٠١).

الفهرس

قصة هود (عليه السلام)

قصة صالح (عليه السلام)

قصة إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)

قصة لوط (عليه السلام)

قصة شعيب (عليه السلام)

قصة يعقوب ويوسف (عليهما السلام)

قصة أيوب (عليه السلام)

قصة ذى الكفل (عليه السلام)

قصة يونس (عليه السلام)

قصة موسى (عليه السلام)

قصة يوشع بن نون (عليه السلام)

قصة داود (عليه السلام)

قصة سليمان (عليه السلام)

قصة إلياس (عليه السلام)

قصة اليسع (عليه السلام)

قصة زكريا ويحيى (عليهما السلام)

قصة عيسى (عليه السلام)

* * *





من
إصداراتنا
فقه المسلم
فقه المسلم
فقه المسلم
السحر الحلال
كيف تكسب قلوب الناس
رفقاً بالمخطئين
ساعة و ساعة
نوادر و عجائب
لا تحزن
وابتسم للحياة
تحذير الساجد
من أخطاء العبادات والعقائد
موسوعة الزواج الإسلامي السعيد
موسوعة الحقوق الإسلامية
مسك الختام
ليلة في بيت النبي
فتاوى الحج والعمرة
صحابيات حول الرسول
أصحاب الرسول
رحلة إلى الدار الآخرة
سيرة الرسول
أخلاق الرسول
الأطفال
سيرة الرسول
للأطفال
تفسير جزء عم
أصحاب الرسول
يوسف الأحلام
حكايات عمو محمود
للأطفال
حكايات عمو محمود
قصص القرآن
قصص الأنبياء
قصص الرسول